الأب
توماس ميشال
اليسوعيّ

مدخل إلى العقيدة المسيحيّة



محاضرات
أُلْقِيَتْ في كُلّيّةِ الشّريعةِ الإسلاميّة
بأنقرة (تركيا)



دار المشرق
بيروت

مَدخل إلى العَقيدة المسيحيّة

طُبع هذا الكتاب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

الأب
توماس ميشال
اليسوعيّ

مدخل إلى العقيدة المسيحيّة

محاضرات
ألقيت في كلّيّة الشّريعة الإسلاميّة
بأنقرة (تركيا)

نقلها عن الإنكليزيّة
الأب كميل حشيمه اليسوعيّ

طبعة ثانية



لا مانع من طبعه
بولس باسيم
النائب الرسوليّ للاتين
بيروت، ١٩٩٢/٧/٢٥

ISBN 2-7214-4773-4

© جميع الحقوق محفوظة، طبعة ثانية ١٩٩٥
دار المشرق ش م م – ص. ب. ٩٤٦ – بيروت

التوزيع :
المكتبة الشرقيّة، ص. ب. ١٩٨٦
بيروت، لبنان

ظهر هٰذا الكتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان :
Dr Thomas Michel
An Introduction to Christian Theology
Rome, Italy, 1987

مقدّمة الناقل

قيل : «الإنسان عدوّ ما يجهل». وعليه فلا سبيل إلى العيش بسلام مع الآخرين، ولا مجال لمحبّتهم، بدون معرفتهم. ومجتمعات اليوم، أكثر منها في أيّ يوم مضى، هي على اتّصال واحتكاك مستمرّ بعضها ببعض، ومكتوب لها أن تتعارف لتتآلف فتتحابب فيكون لها الازدهار والبقاء. ولئِن هي أصرّت على التقوقع والتعالي، استشرى فيها الجهل وقِصَرُ النظر، فضِيقُ الصدر والتعصّب والكراهية، فالتآكل الذاتيّ فالاضمحلال.

من هذا المنطلق تواترت اللقاءات والمحاورات في العقود الأخيرة بين الحكماء من سائر المشاربِ والملل، لا سيّما بين علماء المسلمين والمسيحيّين، أبناء الديانتين العُظمَيَيْن الموحِّدتين. وكلا المعتقدَين يهمّنا، نحن أبناء العالم العربيّ، إلى أقصى الحدود. فلا بدّ للمسيحيّ العربيّ من معرفة أخيه المسلم، رفيق عيشه، ولا مناص للمسلم العربيّ من معرفة أخيه المسيحيّ، ابن وطنه.

وفي هذا المجال، تعود بنا الذاكرة إلى أيّام دراساتنا اللاهوتيّة في جامعات لبنان والغرب حيث استُدعي بعض علماء المسلمين ليلقوا علينا محاضرات في الإسلاميّات. وكانت لنا تلك الأحاديث إذ ذاك مناسبات مميَّزة حثّتنا على مزيد من البحث لاكتشاف ما عند إخوةٍ لنا في التوحيد مِن غِنًى وعمقِ إيمانٍ يستوجب الاحترام. وفي مقابل ذلك يطيب لنا اليوم أن نقدّم للقارئ خبرةً مماثلة، صدرت بمبادرة من الجانب الآخر، وهي محاضرات ألقاها أحد علماء اللاهوت المسيحيّين على طلاّب كلّيّة الشريعة الإسلاميّة في أنقره (تركيا) سنة ١٩٨٦، بدعوة كريمة من إدارة تلك المؤسَّسة، لمساعدة الطلاّب المسلمين على

معرفة الديانة المسيحيّة من مصادرها * . وإنّها لعمري مبادرة سمحاء إن دلّت على شيء فعلى الروح الجديدة المحيية التي تهبّ اليوم بنعمةٍ منه تعالى ، والتي تدعونا إلى التجاوب معها كلّ التجاوب على نحو ما ورد في القول المأثور : « إذا هبّت رياحُك فاغتنمها » .

صاحب هذه المحاضرات راهب يسوعيّ غربيّ متخصِّصٌ في الإسلاميّات ، عَرَضَ لطلاّبه المسلمين معتقدَه المسيحيّ بأسلوب موضوعيّ صرف . وقد صاغ كلامه بحيث جعله بعيدًا عن لغة الاختصاص المفرط ، قريبًا من متناول المثقّف المسلم . ومن ميزة هٰذه الأحاديث أنّها وإنْ كُتبت أصلاً لخدمة المسلمين ، فإنّها ستُسدي الخدمة إلى المسيحيّين العرب أيضًا ، إذ يجدون فيها مختصرًا مفيدًا لمعتقداتهم بأسلوب يناسب أوضاعهم . وقد حاولنا ، في نقلنا النصّ الإنكليزيّ الأصليّ إلى العربيّة ، أن نراعي مبتغى المؤلِّف ، مكتفين بتعليقات وجيزة قليلة حيث لم يكن للتعليق من بدّ .

ورجاؤنا وطيد أن تساهم تلك الأحاديث في تقريب القلوب من باب تقريب الأذهان ، والله سبحانه من وراء القصد .

* وقد أعاد المحاضر إلقاء أحاديثه سنة ١٩٨٨ في إزمير ، وسنة ١٩٨٩ في قونية ، وكلتا المدينتين بتركيا .

المقدّمات

آ – الغاية من هٰذا الكتاب

ما بالُ أَحد الكهنة المسيحيّين يؤلِّف للمسلمين كتابًا عن المعتقد المسيحيّ؟ دعُوني، باديءَ بدء، أَستبعد بعض الأسباب التي قد تدفع إلى كتابة مثل هٰذا المصنَّف. وأَوَّل ما أقوله إِنَّني لا أُحاول «هَدْي» أحد، ولا أرجو إقناع أحد باعتناق المسيحيّة. ثمّ إنّي لا أبتغي الخوض في أيّ جدال لأُحاول إقامة البرهان على أنّ المسيحيّة حقّ والإسلام باطل، أو أنّ المسيحيّة أصلح من الإسلام أو خيرٌ منه. بل إنّ هٰذا الكتاب أُلِّف أوّلَ ما أُلِّف لطلاّبٍ جامعيّين مسلمين أرادوا دراسة الديانة المسيحيّة في إطار برنامج «تاريخ الأديان» أو «الدين المقارَن». وبصفة كوني مسيحيًّا مؤمنًا، آمَل توجيهَ «نظرةٍ من الداخل» إلى كيفيّة فَهْمِ المسيحيّين دينَهم.

وما دام الكتاب صُنِّف من هٰذا المنطلَق، فسوف تختلف فيه نقاط التركيز عمّا عُهد في الكثير من المؤلَّفات الدفاعيّة والجدليّة المسيحيّة التي أصدرها المسيحيّون عبر القرون. فبعض الموضوعات التي كانت في صميم المناظرات بين المسيحيّين والمسلمين سوف تنال هنا نصيبًا قليلاً من الاهتمام، لا لسببٍ إلاّ لأنّها ليست من صميم ما يعنيه الإيمان المسيحيّ لمن يمارسونه. إلى ذٰلك سوف أجتهد وآخذ بعين الاعتبار الكثير من الأسئلة التي طرحها المسلمون عليّ بطريقةٍ مباشرة شخصيّة، أو التي أُثيرت في الكتب والمجلاّت.

للمسلمين مآخذُ عديدةٌ محقَّة على الكثير ممّا يكتبه المستشرقون في شؤون

الإسلام. فهم يشعرون بأنّ هؤلاء العلماء يرسمون صورةً مشوَّهة لِما يؤمن المسلم به فعلاً ويعيش بموجبه. والحقُّ يُقال إنّ المستشرقين، في غالب الأحيان، لا يتعمَّدون إظهار الإسلام على غير ما هو، بل إنّهم يحملون معهم همومهم واهتماماتهم الخاصّة وأفكارهم المسبَقة فيُقحمونها في دراساتهم عن الإسلام. إلاّ أنّ نتيجة ذلك، ومهما حسُنت النوايا، أنّ المسلم الذي يطالع مثل هذه الأعمال، قد يصعب عليه الإقرار بأنّ ما يقرأه يمتّ إلى إيمانه بشيء.

والحالة هي عينها من جهة المسيحيّين. فكثيرًا ما تغيب في مؤلّفات غير المسيحيّين الأمورُ التي تهمّنا حقًّا والتي نتكلّم عليها وندعو من أجلها ونناقِش فيها بحماسة. ورجائي أن يساعِد هذا الكتابُ مَن يطالعه من الطلاّب على أن يَعرف على نحوٍ أفضل كيف يفهم المسيحيُّون إيمانهم.

لن أُحاول في الصفحات الآتية إقناعَ أيٍّ كان بأنّ المسيحيّة هي على حقّ وأنّ الإسلام أو أيّ ديانة أُخرى هي على ضلال. بيد أنّه ينبغي الإقرار منذ البداية بأنّني مسيحيّ مؤمن، وبالتالي أُومن بما يعلّمه المعتقَدُ المسيحيّ. وكلّ إنسانٍ مؤمنٍ حقّ، مسيحيًّا كان أو مسلمًا، يؤمن بأنّ دينه يأتيه بالجواب الشامل عن القضايا الهامّة في الحياة البشريّة: مِن أين جئنا، إلى أين نذهب، وكيف يجب أن نعيش في أثناء حياتنا على وجه البسيطة؟ ومن البديهيّ أن يؤمن كلٌّ منّا بأنّ طريقته هي الجواب الدينيّ الحقّ عمّا أوحاه الله إلينا. ولئن اعتقد بعضنا بأنّ إحدى الديانات تأتي بالأجوبة الجازمة عن مشاكل الحياة وتؤمّن الوصول إلى الله بطريقٍ أفضل من طريقه، توجَّب عليه، بلا جدال، العدولُ عن دينه واتّباع الدين الآخر بعد أن رآه إلى الصواب أقرب وللإقناع أجدى.

وفي الواقع يبيِّن التاريخُ أنّ عدد المسيحيّين أو المسلمين المخلِصين لدينهم وضميرهم، الذين تحوّلوا إلى دينٍ آخر، هو أقلّ من القليل. فإنّ بعض الأفراد انتقلوا في الماضي، وما زالوا ينتقلون اليوم، مِن دين إلى آخر لأسباب تمُتّ إلى الزواج، أو المصلحة المهنيّة، أو التكيُّف الثقافيّ، أو الضغط الاجتماعيّ؛ غير أنّ عدد الذين يهتدون إلى ديانة أُخرى ممّن هم مقتنعون راسخون في ديانتهم، ليس بالكثير.

وسبب ذٰلك واضح : إذا وَجد المرءُ اللّهَ ورسالتَه من خلال ممارسته الدينيّة المألوفة ، فهو لا يشعر بالحاجة إلى بدء البحث عنه تعالى في إطارٍ آخر. وإنّي لا أشكّ أنّ الله سبحانه قد أثّر في حياة الملايين من المسلمين والمسيحيّين عن طريق التعاليم والكتب والشعائر الخاصّة بالإسلام والمسيحيّة بالذات ، ويقين هٰؤلاء الناس أنّ اللّهَ موجود في إطار المعتقدات الإسلاميّة والمسيحيّة.

وإنّي لا أعني أنّ الإسلام والمسيحيّة هما في الأساس دينٌ واحد ، أو أنّه ليس مِن اختلافات حقيقيّة بينهما. فثمّة بالفعل اختلافات حقيقيّة ، ولا يمكن المسيحيّين والمسلمين ، إذا التقوا ، تهوين هٰذه الاختلافات أو تجاهلها. والاختلافات مؤلمة لأنّنا بشر نريد دومًا مِن الذين نعيش معهم ونهتمّ بهم أن يفكّروا ويعملوا مثلنا. فلو نظرنا إلى المؤمنين المتديّنين لرأينا أنّ أَلَمَهُم أشدُّ إن لم يَتبع الآخرون طريقَهم إلى الله ، لأنّ كلاًّ منّا يحسب إيمانه «كنزًا ينبغي تقاسمه» وأعظمَ هديّة يمكننا تقديمها إلى جيراننا الأدنَين أو حتّى إلى العالم بأسره. وعلى الرغم من ذٰلك فعندما ندرس معًا الاختلافات القائمة بين كلٍّ من ديانتينا ، نصل إلى عدد من النتائج الإيجابيّة. أوّلُها أنّنا نجدِّد تقديرنا لِما هو فريد في معتقدِنا الخاصّ ، فنعود إلى الله شاكرين له نعمة الإيمان التي مَنَّ بها علينا ؛ ثمّ إنّنا نزداد احترامًا لما يعتقده الآخَرون مخلِصين ، على الرغم ممّا بيننا وبينهم من اختلاف ؛ كما أنّنا نزداد فهمًا للأسباب التي تدفعهم إلى القيام بما يقومون به ، ولكيفيّة نظرهم إلى الحياة ومشاكلها ؛ وأخيرًا ندرك إدراكًا أوضح أنّنا من جنسٍ بشريّ واحد يقوم في حضرة الله.

من جهة أُخرى لا ينبغي أن نركِّز فقط على ما بيننا من اختلافات. فإنّي لواثق بأنّ المسيحيّين والمسلمين هم واحد في الكثير مِن أعمق وأهمّ عناصر معتقداتهم وخبراتهم الدينيّة. وقد تيقّنتُ أنّ المسلمين والمسيحيّين ، إذا ما أَكبَّ كلُّ فريقٍ منهم على دراسة ديانة الفريق الآخر ، شعروا ، لا بل لمسوا ، أنّ بينهم الكثير من الأمور المشتركة. وغالبًا ما يحدث أنّ تعابيرنا المختلفة تخفي مفاهيم تلتقي في الكثير من النقاط ، كما أنّه من الأكيد أنّنا ، عندما نزيد من اطّلاعنا على ديانة الآخر ، نكتشف في كثيرٍ من الأحيان أنّ ثمّة كلمات

متشابهة تشير إلى مفاهيم في غاية التباين. فإحدى ثمار الحوار بين المسيحيّين والمسلمين هي أن نتعلّم كيف نُبرز بمزيد من الدقّة مجالات التلاقي والتباين بين ديانتينا.

تِلكم هي الغاية المحدودة المتواضعة من كتابي هٰذا: فلا هي الهدي، ولا هي الجدل، بل ما هو أبسط: المزيد من الفهم لما يؤمن به المسيحيّون وللطُرق التي تدعوهم ديانتُهم إلى سلوكها.

قال أحدهم: «بقدر ما نُحسن فَهْمَ إيمان الآخر نجيد فَهْمَ إيماننا». ولقد خبرتُ صدق هٰذا القول في حياتي عينها. فإنّي أعتبر مِن عظيم نِعم الله عليّ أنّي، طوال السنين العشرين المنصرمة، عشتُ بين المسلمين، وأُتيح لي دراسة القرآن الكريم والسُّنَّة، كما أَمضيتُ ساعات عديدة مع أصدقاء مسلمين أناقش مسائلَ تمتّ إلى الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة.

ب - التعريف بالمؤلِّف

إسمحوا لي الآن بأن أُعرِّفكم إلى نفسي. أنا كاهن وراهب كاثوليكيّ، من التابعيّة الأميركيّة (الولايات المتّحدة). وبصفة كوني راهبًا، لستُ متزوّجًا ولا أولاد لي. أُمّي ما زالت على قيد الحياة، أمّا والدي فقد تُوفّي منذ بضع سنوات. لي شقيق وشقيقتان وجميعهم متأهِّلون ولهم أولاد وأحفاد.

لمّا لبَّيتُ الدعوة إلى الكهنوت، خضعت لفترة تنشئة درستُ في أثنائها الفلسفة الكاثوليكيّة مدّةَ أربع سنوات، ثمّ علمَ اللاهوت الكاثوليكيَّ مدَّةَ أربع سنوات أخرى. الدروس اللاهوتيّة تضمّنت عدّة موادّ: الكتاب المقدَّس، علم اللاهوت العقيديّ - وهو عرضٌ منظَّم للعقيدة الكاثوليكيَّة، علم اللاهوت الأدبيّ - أو الأَخلاق المسيحيّة -، تاريخ الكنيسة، عِلم الآباء - ويَدرس المفكِّرين المسيحيّين الأوائل -، وعلم اللاهوت الروحيّ، وبه نسعى جاهدين إلى اتِّباع يسوع المسيح على أكمل وجهٍ ممكن.

وبعد الدروس عملتُ مدّةَ سنتين كاهنًا لإحدى الرعايا في أميركا، ثمّ

ذهبتُ إلى أندونيسيا حيث درَّست الإنكليزيّة في دارٍ للمعلِّمين. وكان الكثير من طلاّبي مسلمين، فصرتُ من خلالهم أتشوّق يومًا بعد يوم إلى زيادة معرفتي لِما يؤمن به المسلمون. وعَرَض عليّ بعضُ طلاّبي المسلمين أن أقوم بدراسة الإسلاميّات لأنّني أستطيع بذٰلك، أنا المعلِّم، أن أكون جسرًا بين الجماعتين المسيحيّة والإسلاميّة فأساعد المسيحيّين على زيادة معرفتهم للعقيدة الإسلاميّة، كما أساعد المسلمين على زيادة فَهمِهم للعقيدة المسيحيّة.

هٰذا هو العمل الذي لزمتُه طوال السنين الستّ عشرة الأخيرة. وفي عام ١٩٧١ ذهبتُ إلى لبنان حيث باشرتُ درس اللغة العربيّة، وبعد مضيّ سنة هناك سُجِّلتُ في جامعة شيكاغو وتتلمذتُ للأستاذ فضل الرحمٰن وتأثّرت كثيرًا بمؤلَّفاته في الشؤون الإسلاميّة. وبعد فترة أمضيتها في شيكاغو، انتقلت إلى القاهرة لتعميق معرفتي للّغة العربيّة والإسلام ودرستُ في الجامعة الأميركيّة ودار العلوم وجامعة الأزهر.

ثمّ عدتُ إلى جامعة شيكاغو وبدأتُ إعداد أُطروحتي لشهادة الدكتورا، وموضوعها نقد ابن تيميَّة للديانة المسيحيّة المعروف **بالجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح**. وقد تطلَّب ذٰلك منّي الإفاضةَ في مطالعة كُتب ابن تيميّة الكثيرة ومؤلَّفات سواه من كبار المفكّرين المسلمين. وبعد سنة أُخرى أمضيتها في القاهرة مكبًّا على المخطوطات في خزانة كتب الجامعة العربيّة، عدتُ إلى شيكاغو لإكمال أُطروحتي والدفاع عنها.

وتجدر بي الإشارة إلى أنّ أبحاثي قادتني في تلك المُدَّة إلى زيارة تركيا، واسطنبول خاصّةً، حيث مكثت شهرًا واحدًا أَدرُس مخطوطًا هامًّا لابن تيميّة محفوظًا في الخزانة (الكتبخانة) السليمانيّة. وبعد انتهائي من مرحلة الدراسة الجامعيّة، التحقتُ بجامعة كُولُومبيا في نيويورك حيث درَّست مدّة سنة واحدة اللغة العربيّة والفلسفة الإسلاميّة.

ومن ثمّ عدتُ إلى إندونيسيا، إلى مدينة جُوكياكارتا في وسط جزيرة جاوة، حيث درَّست علم اللاهوت المسيحيّ والفلسفة الإسلاميّة، كما ألقيت على تلامذة بعض المعاهد المسيحيّة دروسًا بمثابة مداخلَ إلى الديانة الإسلاميّة.

وكثيرًا ما كنتُ أتلقّى دعوات من مجموعات إسلاميّة لأعرض حقائق المعتقَد المسيحيّ على عدد من المؤسّسات الإسلاميّة في إندونيسيا ضمن برنامج الديانات المقارَنة وتاريخ الأديان. وكانت السنوات التي أمضيتها في إندونيسيا هنيئة سعيدة، واتّصالاتي الكثيرة بالإندونيسيّين، من مسلمين ومسيحيّين، كان لها بالغَ الأثر في حياتي وأكسبَتْني الكثير.

وفي سنة ١٩٨١ استُدعيتُ إلى الڤاتيكان، وهو مجموعة الهيئات الإداريّة التي تساعد البابا رئيس جماعة الكاثوليك في الكنيسة. وكانوا ثمّة بحاجة إلى مَن له إلمام بالعلوم الإسلاميّة وخبرة شخصيّة في الحوار مع المسلمين، بغيةَ مساعدة الدوائر الڤاتيكانيّة على تحسين التفاهم والتعاون بين المسيحيّين والمسلمين. ومذ ذاك أعملُ في أمانة سرّ الڤاتيكان لغير المسيحيّين، وهي الدوائر المعنيَّة بالحوار بين الأديان. وممّا تَضمَّنه عملي لقاءُ الكثير من المسلمين، ومحاوراتٌ ومحاضرات تُلقى في سائر أنحاء العالم الإسلاميّ: السعوديّة، والأردنّ، وسورية، ومصر، وتونس، ولبنان، وباكستان، والهند، وسري لانكا، وماليزيا، وإندونيسيا، والفيليبّين. وإنّي أُدرِّس، في الجامعة الغريغوريَّة بروما، الفكرَ الإسلاميّ في آسيا وعلم اللاهوت المسيحي في الأديان.

في السنة الماضية[1] قمتُ في أَنقَره بخبرةٍ ممتعةٍ مفيدةٍ معًا. فقد نزلتُ عند دعوة جامعة العاصمة التركيّة وألقيت في كلّيّة الشريعة، وضمن برنامج تاريخ الأديان، سلسلة من المحاضرات أردتُها مدخلاً إلى الديانة المسيحيّة وتعاليمها. وهيّأتُ محاضراتي باللغة الإنكليزيّة واستعنت بشابّ تركيّ، خرِّيج الجامعة، يجيد الإنكليزيّة كلَّ الإجادة، فكان ينقل المحاضرات إلى التركيّة. ولمّا أوشكَت السنة الدراسيّة أن تنتهي، عَرَضَ عليّ بعضُ زملائي في الكلّيّة أن أُنسِّق المحاضرات على شكل كتاب يمكن نقله إلى التركيّة (أو سواها من اللغات). وهكذا أبصر هذا المؤلَّفُ النور.

١. ١٩٨٦.

ج – ما أرتجيه من هٰذا الكتاب

إنّي لواثق بأنّ المسلمين والمسيحيّين هم أُسرتان من المؤمنين تتحدّران من جدٍّ واحد هو إبراهيم الخليل، وبأنّ الله سبحانه يريد منّا أن نعيش معًا في الاحترام المتبادل والسلام، ونعمل يدًا واحدة بحيث تتمّ مشيئته تعالى على وجه الأرض. ورجائي أن يكون هٰذا الكتاب، لكلّ من يطالعه، مساعدًا فيزيد معرفته للديانة المسيحيّة من سائر وجوهها: كُتُبها المقدَّسة، عقائدها الأساسيّة، تاريخها، فلسفتها، كلامها في اللاهوت، روحانيَّة المؤمن المسيحيّ، والتزام الشعب المسيحيّ في المجتمع.

قلتُ سابقًا إنّ هٰذا الكتاب يدخل في باب علم الأديان المقارَنة، فلا مكان فيه للتبشير ولا الجدال، إذ جلُّ ما أُريده عَرْضُ ما يؤمن به المسيحيّون. أمّا مَن هو صاحب الحقّ أو صاحب كلمة الفصل، فذاك أمر أَترك البتَّ فيه لله وحده، فهو صاحب الحقّ وهو وحده العليم. وسوف يأتي يوم نقف فيه جميعًا أمام الله لنؤدّي الحساب ونجيب عن السؤال: هل عشنا بموجب التعاليم والقيم الدينيّة التي بها نؤمن؟ والله نفسه يُعْلِمنا إذ ذاك كنهَ ما نحن فيه مختلفون.

وثمّة أمرٌ أخير أودّ تبيانه. قلتُ إنّي كاهن كاثوليكيّ؟ هٰذا يعني أنّني أنتمي إلى تلك الجماعة التاريخيّة من المسيحيّين المؤمنين بأنّ الله عيّن بعض الأفراد، ويُدعَون «أَساقفة»، للقيام في ما بيننا بدور الرئاسة والتعليم والتقديس، وبأنّ رئاسة هٰذه الهيئة العالميّة من الأساقفة موكولة إلى البابا وهو أُسقف روما. ولمّا كان الكاثوليك يعترفون بأنّ أسقف روما هو رئيسهم، فهم يُدعَون في بعض الأحيان «الكاثوليك الرومانيّين».

لقد حصل أن اختلف المسيحيّون في ما بينهم حول بعض النقاط من إيمانهم. وانقسامهم المعروف إلى أُرثوذكس وكاثوليك وبروتستانت يعكس مراحل الانقسام الأساسيّة في تاريخ المسيحيّة، وسأحاول في الفصل الرابع أن أبيِّن كيف انشقّت تلك الجماعات بعضها عن بعض. كما أنّي لا أنوي في هٰذا الكتاب إظهار الموقف الكاثوليكيّ وحده، بل سأسعى إلى إيراد رأي كلٍّ من

الفئات الثلاث : الكاثوليك والأُرثوذكس والبروتستانت ، حيثما اختلفت.

ومطالعة كتابي لا تفترض معرفةً سابقة للمسيحيّة ، ممّا يعني أنّه بالحقيقة «مَدخل». ومع ذلك فالفصل الخامس ، وهو يلقي نظرات سريعة على علم اللاهوت والفلسفة والروحانيّة المسيحيّة ، يمكن أن يؤدّي بعض الخدمة للذين يدرسون **الكلام والفلسفة والتصوُّف** ، فيكون لهم مدخلاً إلى معرفة بعض الوجوه البارزة لدى الطرف المسيحيّ ، كما يبيّن لهم كيف عالج المفكّرون المسيحيّون ما اعترضهم من قضايا مماثلة.

وفي ما يلي عناوين المواضيع التي سيتطرّق إليها الكتاب :

١. الكتب المسيحيّة (**الكتاب المقدّس**).

٢. العقائد الأساسيّة في الإيمان المسيحيّ.

٣. تاريخ الكنيسة المسيحيّة.

٤. مدخل إلى علم اللاهوت ، والفلسفة ، والروحانيّة.

«الكتاب المقدَّس» : الإلهام والوحي

آ – ما هو «الكتاب المقدَّس» ؟

الكتاب المقدَّس هو مجموعة الكتب المقدَّسة لدى المسيحيّين. وتجدر الإشارة إلى أنّ معظم اللغات الأوروبيّة تَستعمل، للدلالة على **الكتاب المقدّس**، كلمات مشتقّة من كلمة يونانيّة بصيغة الجمع : Βιβλια ، وتعني «الكُتُب». فبالإنكليزيّة والفرنسيّة يكتبونها Bible وبالألمانية Bibel وبالهولنديّة Bijbel وبالإيطاليّة Bibbia ، الخ. أمّا المسيحيّون الناطقون بالعربيّة فيضيفون إلى الكلمةِ صفةً فيقولون : **الكتاب المقدّس** ؛ ومثلهم يفعل مسيحيّو البلدان التي يتكلّمون فيها لغاتٍ تأثّرت بالعربيّة (كالفارسيّة والأُردو والإندونيسيّة، الخ). ويَستعمل المسيحيّون أيضًا عبارات أُخرى للدلالة على المعنى نفسه : الكِتاب، الكُتُب، النصوص أَو المؤلَّفات الكتابيّة.

يُقسم الكتاب المقدّس المسيحيّ إلى قسمَين متباينَين في الحجم : **العهد القديم** (أو العتيق)، **والعهد الجديد**. العهد القديم يكاد أن يكون مثل الكتاب المقدّس اليهوديّ، وفيه ٤٦ (٣٨) سِفرًا، في حين أنّ **العهد الجديد** هو للمسيحيّين فقط وفيه ٢٧ سِفرًا.

إذا نظر المسلم إلى **الكتاب المقدّس**، لاحظ بسرعة أنّه يختلف عن **القرآن الكريم** كلَّ الاختلاف. فالقرآن كتابٌ واحد، نَقَلَه بلغة واحدة رجل واحد خلال حقبة من الزمن استمرّت ٢٢ عامًا. وعلى عكس ذلك **فالكتاب المقدَّس** مجموعةٌ من ٧٣ (٦٥) كتابًا أُلِّفت أو جُمعت بلغات مختلفة طوال فترةٍ

زمنيَّة دامت ١٥٠٠ سنة. وعُني بالعمليّة المعقَّدة التي نتج عنها إنشاءُ هٰذا الكتاب، عدد كبير من المؤلِّفين الملهَمين لم يَحفظ لنا التاريخ أسماء الكثيرين منهم؛ لذا تعكس الأسفار تنوُّعًا في الأساليب التاريخيّة وما يُعرف بالفنون الأدبيّة.

بعض هٰذه الأسفار تطوَّر تطوّرًا بطيئًا على مرّ القرون، وصاغه بصورته النهائيّة كتّابٌ ملهَمون مجهولون، على نحو ما كان من أسفار موسى. وبعضه الآخر كَتَبه في ظرف معيَّن أُناس معروفون، وهٰذا شأن رسائل القدِّيس بولس. والفنون الأدبيّة المستعمَلَة في **الكتاب المقدّس** تشمل التاريخ الشعبيّ (أسفار موسى)، والنبوءة (أسفار **عامُوس وإرْميا** وسواهما)، والتعليم الحكميّ (أسفار **أيُّوب، والأمثال والجامعة** وما إليها)، وإعلان الإيمان **(الأناجيل)**، ورسالة التعليم (رسائل **بولس وبطرس ويوحنّا ويعقوب**)، والنشيد والصلاة (**المزامير** أو **الزبور**)، والرؤيا (سفر **دانيال**، **رؤيا يوحنّا**).

ب – الأَسفار القانونيَّة

«الأَسفار القانونيَّة» هي مجموعة المؤلَّفات التي يُعتَرَف بها كُتُبًا مقدَّسةً صحيحة. لا شكَّ أنّ القارئ اللبيب لاحظ ما سبق وقلتُه من أنّ **العهد القديم** يحتوي على ٤٦ (٣٨) سِفرًا. فما معنى ذٰلك؟ لا بدّ، لإعطاء الجواب السديد، من الرجوع إلى تاريخ الشعب اليهوديّ في العصور التي سبقت المسيح. فلمّا احتلَّت جيوش الإسكندر ذي القرنين بلاد فلسطين حوالى سنة ٣٣٠ ق. م.، بدأ الكثير من اليهود يهجرون المنطقة ويستوطنون ديارًا أُخرى من ديار الإمبراطوريّة. وزاد من تلك الهجرة – وقد سُمِّيت الشتات – ما لقيه أتباعُ الدين اليهوديّ من اضطهاداتٍ شُنَّت عليهم وعلى ديانتهم في أيّام خلفاء الإسكندر، لا سيَّما أَنطيُوخُس الرابع أَبِيفانِيُوس (١٧٥–١٦٤ ق. م.). وحلَّ الكثير من اليهود في الإسكندريّة حيث عاشوا حياةً ثقافيّةً ودينيّةً خاصّةً بهم، ومع مرور الأيّام صاروا في أغلبيّتهم يجهلون اللغة العبريّة وباتوا يتكلّمون

ويكتبون ويصلّون باللغة اليونانيّة. وفي سنة ٢٥٠ ق. م. نَقل يهود الإسكندريّة كتبهم المقدّسة إلى اليونانيّة. ويُعْتَقَد أنّ عدد المترجمين كان سبعينًا، ممّا يفسِّر أنّ ترجمتهم عُرِفت بـ«**السبعينيَّة**».

وكانت تلك الترجمة تشمل نحو ٤٦ كتابًا، على الرغم من أنّ إدخال بعض الأسفار ضمن المجموعة الجديدة كان فيه نظر، إذ إنّه ليس ما يؤكِّد لنا أنّ عددًا مِن كتب **السبعينيَّة** كان له أصل عبريّ. ومع ذلك فالكثير من اليهود في العالم الناطق باليونانيّة، وحتّى في فلسطين، استعملوا الترجمة اليونانيّة للكتاب المقدّس العبريّ. وقد درج مدوّنو **العهد الجديد** على استعمال الترجمة السبعينيّة لدى استشهادهم **بالعهد القديم**.

وحوالى السنة ١٠٠ ب. م. وفي أعقاب خراب أورشليم وهيكلها، اجتمع أعيان اليهود في جَمْنِيَة (يَبْنِه الحاليّة) بفلسطين للبتّ في عدد من الأمور الدينيّة. وراجعوا الأسفار المقدّسة واحدًا واحدًا فقرّروا الاعتراف الرسميّ بـ٣٨ سفرًا، ضاربين صفحًا عن عددٍ من الأسفار التي تضمّنتها الترجمة السبعينيّة. وجرت تسمية تلك الأسفار بـ«الأَپوكريفا» (ومعناها باليونانيّة الكتب «المخفيّة») أو «القانونيَّة الثانية» (أي التي تحتلّ المرتبة الثانية في «القانون» أو القائمة الرسميّة، ممّا يعني أنها لا تُعتَبر حجّةً على غرار الأسفار الأخرى).

أمّا الجماعة المسيحيّة الأولى في الإمبراطوريّة الرومانيّة، فإنّها استعملت النسخة السبعينيّة بمجموع كتُبها الأوسع، وأخذ هذا النصّ الكتابيّ يشقّ طريقه إلى الكنائس المسيحيّة. واليومَ تقبل الكنائس الأُرثوذكسيَّة والكاثوليكيّةُ بنصٍّ **للعهد القديم** يرتكز على السبعينيّة.

وفي القرن السادس عشر نادى المُصلِحون بالرجوع إلى إيمان كنيسة البدايات، فنبذوا الأَپوكريفا وتبنَّوا النصّ اليهوديّ المشتمِل على ٣٨ كتابًا. ومع أنّ البروتستانت المعاصرين يقرّون بما تتمتّع به بعض الأسفار الأَپوكريفا من قيمة روحيّة، إلاّ أنّهم، على وجه الإجمال، لا يضعون تلك الكتب في مستوى الأسفار الثمانية والثلاثين الباقية. وفي الترجمات البروتستانتيّة والمسكونيّة

غالبًا ما تُجمَع الأَپوكريفا في قسم خاصّ يُجعل ذيلاً للعهد القديم.

أمّا في شأن نصّ العهد الجديد، فلا خلاف بين المسيحيّين، إذ إنّ الأُرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت يعترفون بصحّة جميع الكتب السبعة والعشرين التي يتألّف منها **العهد الجديد**.

ج - الأَسفار المقدّسة والإلهام

يعتقد المسيحيّون أنّ أسفار **الكتاب المقدّس** كَتَبها الله بواسطة مؤلِّفين من البشر، وعليه فإنّهم يقولون بأنّ للأسفار المقدَّسة مؤلِّفًا إلٰهيًّا ومؤلِّفًا بشريًا؛ أو بعبارة أخرى، يعتقد المسيحيّون أنّ الله ألّف **الكتاب المقدّس** بواسطة إلهامات الروح القدس، دافعًا المؤلِّفين البشر إلى الكتابة، وموفِّرًا لهم العون في الكتابة بحيث عبَّروا عن كلّ ما عناه الله دون سواه.

ويلاحِظ المسلمون أنّ المسيحيّين يخالفون في ذٰلك موقف الإسلام. فالله في المعتقد المسيحيّ هو المؤلِّف الأخير للكتاب المقدّس، إلاّ أنّه ألّفه من خلال **مؤلّفٍ بشريّ** كان عاملاً له تعالى. وهٰذا المؤلّف البشريّ هو إنسان عاش في عصرٍ معيَّن وطُبع بطابعه، وتُقيِّده حدودُ المعرفة واللغة التي تقيِّد سائر الآدميِّين. والمسيحيّون على وجه الإجمال لا يقولون بأنّ الله **أَملى** الكتب المقدّسة على المؤلِّف البشريّ، بل إنّه أتاح له أن يعبّر عن الرسالة الإلٰهيّة بطُرقه الخاصّة وفنونه الأدبيّة الخاصّة وأسلوبه الشخصيّ.

وهناك أقلّيّة من المسيحيّين، جدُّ محدودة، تحسب أنّ الكتب المقدّسة ملهمَة بحرفها، فيدفع الله برسالته كلمةً كلمةً إلى كاتب بشريّ يسجِّل بأمانة كلَّ ما يُمليه الله عليه. وهٰذه النظريّة تشبه ما كان يعتقده ربابنة اليهود الأقدمون وتوافق إلى حدٍّ بعيد نظرة المسلمين إلى الوحي **بالقرآن**، ومِن نتائجها المنطقيّة أنّه من المستحيل وجودُ كلمة واحدة مخطئة في الكتاب المقدّس.

والقول بالعصمة الحرفيّة في **الكتاب المقدّس** هو أحد المبادئ التي يستند إليها المسيحيّون المعاصرون المعروفون بالأصوليّين، لأنّهم يريدون الرجوع إلى ما

يعتبرونه أُصول الإيمان المسيحيّ. بيد أنّ أكثريّة المفكّرين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت في أيّامنا يرفضون تلك النظريّة ولا يعتقدون بأنّ الكتب المقدّسة ملهمةٌ بحروفها، بل يرون أنَّ المسألة أكثر تعقيدًا. فالمسيحيّون يميِّزون بين بشارة الخلاص التي تُحمَل إلى البشريّة وبين الشكل أو «الغلاف» الذي تُقدَّم به هٰذه البشارة. وعليه فجميع المسيحيّين يعتقدون أنّ تلك **الرسالة** هي من الله وبالتالي هي حقّ؛ أمّا **الشكل** فهو غير منوط بالله وحده، بل بعامل الله البشريّ أيضًا، أي بمحرِّر الكتاب وهو، شأنه شأن جميع الناس، محدود ومعرَّض للخطأ. وتعتقد الكنيسة الكاثوليكيّة أنّنا نقرأ رسالة الله في ما ينوي الله أن يعلِّمنا إيّاه من خلال المحرِّر البشريّ؛ وقد يكون لهٰذا المحرّر البشريّ نظريّات خاطئة أو معلومات مغلوطة، ممّا يترك أثرًا له في النصّ الكتابيّ، إلاّ أنّ ذٰلك يعود إلى الشكل، إلى الغلاف الذي تُنقَل فيه الرسالة.

وقد قطع المسيحيّون شوطًا بعيدًا في دراساتهم **الكتابَ المقدّس**، مستعينين بالأساليب التاريخيّة والأدبيّة للوصول إلى الرسالة التي يريد الله أن ينقلها بواسطة عامله البشريّ المعرّض للخطأ. ويمكن القول إنّ الدراسات النقديّة في ميدان **الكتاب المقدّس**، وما أكثر ما يُقام بها في الجامعات ومعاهد اللاهوت والمدارس الإكليريكيّة، هي المحاولة والجهد «لانتزاع الرسالة من الغلاف»، ولاكتشاف ما يقوله الله في نصوص **الكتاب المقدّس**.

د – الوحي

غالبًا ما يتساءل المسلمون: ما هي الحاجة إلى محرِّر بشريّ؟ أليس الله بقادر على أن يوحي رسالته مباشرةً إلى نبيّ ينقل بعد ذٰلك تلك الرسالة إلى البشريّة نقلاً دقيقًا؟ وبهٰذه الطريقة لا تعود الجماعات الدينيّة مرتبطةً بالدراسات والأبحاث النقديّة للتوصّل إلى معرفة ما يريده الله، بل يَحمل إليها النبيُّ الرسالةَ بوضوح ولا يبقى للبشريّة سوى أن تختار بين قبولها وطاعتها، وبين رفضها.

في هٰذا الموقف من الوحي الإلٰهي يقوم أحدُ الإختلافات الأساسيّة بين الإسلام والمسيحيّة. ففي نظر المسلمين، لا يشير **القرآن** إلى أيّ عمل سواه أو أيّ عمل يتعدّاه من أعمال الوحي الإلٰهي. **القرآن** هو وحي الله، الوحي بالذات؛ ورسالته، بواضح العبارة ونهائيّ الشكل، كامِلة. القرآن لا يبتغي الوصول بالمؤمنين إلى اختبار الوحي الإلٰهي في ما هو أبْعَد منه.

أمّا نظرة المسيحيّين إلى **الكتاب المقدّس**، فهي على خلاف ذٰلك. وهم يرون أنّه لم يتمّ وحي الله الأكمل في كتاب، بل في إنسان. يؤمن المسيحيّون بأنّ المسيح هو الذي يكشف عن الله ويعبّر على أكمل وجه، في حياته وشخصه، عمّا يريد الله قولَه للبشر. وعليه فهُم يرون أنّ **الكتاب المقدّس** يشير دومًا إلى ما هو أبعد منه، وأنّه يبغي دومًا تنشئة إيماننا بالمسيح وبما يقوله الله للبشريّة بواسطته وفيه. والذين كتبوا **العهد الجديد** كانوا أناسًا حاولوا أن يبلّغوا معنى اختبارهم ليسوع الذي عاش وتألّم ومات وأقامه الله من الأموات. وبالتالي فهٰذه الشهادة البشريّة هي من مقوّمات وأُسُس الكتب المقدّسة المسيحيّة.

وتلك المقولة تقودنا إلى فَرق آخر بين النظرتين المسيحيّة والإسلاميّة إلى الوحي. فالمسيحيّون لا يكتفون بالقول إنّ الله يوحي إلى البشر **رسالته**، بل يقولون أيضًا إنّ الله يوحي **ذاته** في تاريخ البشر، وأسفارُ **الكتاب المقدّس** تعلن هٰذا الوحي الذاتيّ وتفسّره. الله يوحي مَن هو وأيّ إله هو، بصفاته وخواصّه؛ يوحي وصاياه الخُلُقيّة، ويوحي خاصّةً رغبته في الخلاص، لا بل يمكن القول إنّ الكتاب المقدّس بمجمله إنّما هو تاريخ الله الذي يوحي ذاته مخلّصًا.

هٰذا وإنّ الإسلام والمسيحيّة على اتّفاق عندما تعترف كلّ من الديانتين بأنّ جوهر الله خفيّ على البشر. فالله سبحانه هو من التنزّه والعظمة بحيث لا يمكن بَنِي الإنسان فَهْمُ ذاته الداخليّة: إنّها بعيدة كلَّ البعد عن متناول إدراكنا، وجُلُّ ما نعرفه عن الله هو ما يقوله هو لنا ويُرينا إيّاه. وذٰلك الوحيُ المجزوء نفسه، المناسب حدود مداركنا البشريّة، يكتنفه السرُّ ضرورةً. لذا لا يتعجّب المسيحيّون ولا ينزعجون مِن كون أدقّ مقولاتهم اللاهوتيّة صياغةً هي

مقصِّرةٌ أبدًا ولا تستطيع وصف الله على حقيقته. وعندما يقولون بأنّ طبيعة الله سرّ، فهم لا يسعون إلى التخلُّص بأسهل الطُرُق من مجادلة لاهوتيّة، بل يعترفون بعظمة الله وعزّته وعمقه إلى حدّ لا سبيل للإنسان إليه.

وهناك نقاط كثيرة يلتقي فيها المسلمون والمسيحيّون في شأن ما يعلّمنا الله عن ذاته وأعماله. ففي **الكتاب المقدّس** يعلن الله ذاته **إلٰهًا حيًّا**، خلافًا للأصنام التي لا تقوى على الكلام أو العمل. **الله هو سيّد التاريخ مُطْلَقًا**، وهو الخالق الذي برأ البشر وسائر ما في الوجود. الله كان فاعلاً في مستهلّ التاريخ البشريّ وما زال يرافق الإنسان بنعمته وحكمته في جميع أحداث التاريخ. الله هو الهدف الأخير الذي إليه يصبو التاريخ ونحوه يسير. وهكذا يعترف المسيحيّون والمسلمون على السواء بأنّ **الله هو سيّد الحياة المطلق**. كما أنّهم يُقرُّون بأنّه تعالى **ديّانُ العالَمين**، يُرسِلُ أنبياءه ليعلِّموا الناس وصاياه التي بموجبها يُدان كلُّ إنسان في اليوم الأخير.

إنطلاقًا من سائر تلك الحقائق، يعلِّم **الكتابُ المقدّس** أنّ **الله إلٰهٌ مخلِّص**، خلافًا للأصنام التي لا يمكنها أن تخلِّص. الله يدخل في تاريخ البشر دخولاً فعّالاً ليحقِّق تصميمه وقدرته على الخلاص.

في العهد القديم، الحدث المركزيّ هو **الخروج**، به خلَّص الله شعبه لمّا أخرجهم من العبوديّة إلى الحرّيّة وجعل منهم أمّةً تعمل مشيئته. وقدرة الله الخلاصيّة لم تتجلَّ مرّةً واحدةً فقط (لدى خروج اليهود من مصر)، بل كانت وعدًا ثابتًا مدى الزمن، على ما أشار إليه العهدُ الذي **قطَعه** تعالى مع العبرانيّين في جبل سيناء إذ قال: «سأكون لكم إلٰهًا وتكونون لي شعبًا».

أمّا في العهد الجديد، فالذي يعلن قوّة الله الخلاصيّة هو يسوع. والمسيحيّون يؤمنون بأنّ يسوع هو الإنسان الذي فيه يكمُن ملءُ وحي الله، وإنْ هُم أرادوا أن يعرفوا شيئًا عن الله، وأفعاله الخلاصيّة، وكيف يريدنا أن نحيا في هٰذه الدنيا، نظروا إلى ما أوحاه الله في يسوع. إنّنا ندرس حياةَ يسوع لنزداد معرفةً له؛ ندرس تعاليمه وسلوكه لنتعلّم كيف ينبغي لنا أن نعيش؛ نتأمّل في آلامه وموته وقيامته لنجد البرهان على أنّ الله يريد خلاصنا وهو قادر عليه.

لقد آمن مؤلِّفو **العهد الجديد** بأنّ الله خلّص يسوع المسيح وأقامه من الموت إلى حياةٍ جديدة، وبأنّ روح يسوع القائمِ من الأموات بقي معهم وأنّه سيظلّ يَهديهم السراط المستقيم طوال التاريخ. ومن ثمّ فكما أنّ الحدثَ الأساس في تاريخ البشر هو، عند اليهود، الخروج والعهد في جبل سيناء، وعند المسلمين وحيُ **القرآن** من خلال رسالة محمَّد، فإنّه، في نظر المسيحيّين، لمّا جعل اللهُ رسالته الأزليّة تتأنّس في الإنسان يسوع – وهٰذا ما ندعوه «التجسُّد» – ولمّا أقام يسوع من الموت إلى الحياة (وهٰذا ما ندعوه «الفداء»). وسوف أشرح في الفصل الثالث بما فيه المزيد تلك العناصر الأساسيّة من الإيمان المسيحيّ.

وقبل أن ننظر في محتوى **الكتاب المقدّس**، أُوجز في ما يلي، وعلى نحو المقابلة، مفهوم كلا الفريقين، المسلم والمسيحيّ، للوحي والإلهام في الكتب المقدّسة:

الإسلام	**المسيحيّة**
القرآن	**الكتاب المقدّس**
كتاب واحد	مجموعة من الكتب المقدّسة
أُوحي على مدى ٢٢ عامًا	جُمع طوالَ قرون
اللغة: العربيّة	اللغة: العبريّة، الآراميّة، اليونانيّة
المؤلِّف: الله	المؤلِّف: الله ومؤلِّفٌ بشريّ
محمَّدٌ رسول ينقل ما سمعه من الله	المؤلِّف البشريّ ينقل رسالة الله بطريقته الخاصّة وتفكيره الخاصّ
الرسالة: إلٰهيّة، أزليّة، شاملة	الرسالة: إلٰهيّة، أزليّة، شاملة

هـ – العهد القديم

قسم اليهود كتابهم ثلاثة أقسام: الشريعة، الأنبياء، المؤلَّفات.
الشريعة (التوراة) تشمل كتب موسى الخمسة.

الأنبياء تحتوي على :

- الأنبياء الأوائل (أسفار **يشوع**، **القضاة**، **صموئيل الأوّل والثاني**، **الملوك الأوّل والثاني**)
- **أشعيا**، **إرْميا**، **حَزْقِيال**، و١٢ نبيًّا صغيرًا

المؤلَّفات هي : أسفار **الأخبار الأوّل والثاني**، **عَزرا**، **نَحَمْيا**، **أستِير**، **راعُوت**، **المزامير**، **الأمثال**، **أيُّوب**، **المراثي**، **الجامعة**، **نشيد سليمان**، **دانيال**.

١. «التوراة» : كُتُب موسى الخمسة

كُتب موسى، وتُدعى في بعض الأحيان **الكتب الخمسة**، هي، في نظر اليهود، أقدس كتبهم. والسامريُّون، وهم بدعة يهوديّة ما زالت قلّةٌ منهم تعيش في بعض قرى فلسطين، لا يقرُّون بصفة الوحي إلاّ لأسفار موسى دون سواها. ونحن المسيحيّين نجلُّ **التوراة** عظيم الإجلال وهي الجزء الأوّل من كتابنا المقدّس.

في القديم اعتقد الناس أنّ موسى نفسه كتب **التوراة**، ولكنّ الدراسات الكتابيّة الحديثة بيّنت أنّ الجواب عن أصل تلك الأسفار أشدّ صعوبةً ممّا يبدو أوّلَ وهلة. **فالتوراة** تكوَّنت على مرّ الأجيال : بدأت رواياتٍ تَناقلها الشعب اليهوديّ مشافهةً، ثمّ دُوِّنت شيئًا فشيئًا في عدَّة مجاميع، بعضُها للأخبار وبعضها الآخر للشرائع، وانتهى بها الأمر إلى أن صُنِّفت وصيغت صيغتها النهائيّة في أثناء القرن الخامس قبل المسيح. والأشخاص الذين ساهموا في هذه العمليّة الطويلة المعقَّدة كانوا كُثُرًا وأسماءُ سوادهم الأعظم طواها النسيان. ويتَّفق اليهود والمسيحيّون على أنّ إلهامَ الله واكَبَ ودَعَم سائر مراحل التجميع هذا.

يذكر علماءُ الكتاب أربع رواياتٍ أساسيَّة في أسفار الشريعة الخمسة : اليَهْويَّة (ي) والإيلُوهِيَّة (إ) والكهنوتيّة (ك) وواحدةً خاصَّة بتثنية الاشتراع (ت). والفكرة البارزة في التوراة هي أنّ ثمَّة إلهًا واحدًا، وهو إله يبارك

ويقطع عهدًا، إله خلّص الشعب اليهوديّ وأعطاهم شريعة عليهم أن يعيشوا بموجبها.

أوّلُ كتُب **التوراة سِفرُ التكوين**. فيه نطالع كيف خلق الله العالم من العدم، وكيف خُلق آدم ثمّ وقع في الخطيئة. وفيه أيضًا أخبار الآباء الأوائل من نوح والطوفان إلى إبراهيم الخليل وخروجه من أرض أجداده ونزوله أرض فلسطين، إلى إسحٰق وإسماعيل، فيعقوب وعيسو، فيوسف وإخوته وحلول الشعب العبرانيّ في ديار مصر. وعليه فإنّ هٰذا السِفْر يعالج الحقبة التاريخيّة الممتدّة من إبراهيم (حوالى ١٩٠٠ ق. م.) إلى يوسف (نحو ١٥٥٠ ق. م.). أمّا أخبار آدم وبنيه، وكذٰلك أخبار نوح، فهي تمُتُّ إلى حقبةٍ أقدم بكثير، لا سبيل إلى تحديد زمنها، ولذٰلك عُرِفت بفترة «ما قبل تاريخ الشعب اليهوديّ».

السِفر الثاني في **الكتاب المقدّس** هو **الخروج**. ويشمل سيرة موسى الكليم: مولده، نشأته في بلاط فرعون، قَتْله أحدَ المصريّين، هروبه إلى بلاد العرب، ثمّ سماعه الصوتَ يخاطبه في العلّيقة المشتعلة ويقلّده الرسالة والنبوّة. ويروي الكتاب أيضًا مواجهة موسى لفرعون، والضربات التي حلّت بالمصريّين، والفصح، وخروج الشعب اليهوديّ من أرض مصر واجتيازه البحر الأحمر على يد الله القدير. ويبلغ الكتابُ ذروته عندما يروي كيف **قطَع الله** عقدًا للشعب اليهوديّ على جبل سيناء وأعطاهم الشريعة. أمّا الفترة الزمنيّة المعنيّة فتدور في حدود سنة ١٢٥٠ ق. م.

سفر **الأحبار** هو في الأساس كتاب تشريع، يأتي على ذِكر الطقوس والقوانين السائدة في الشريعة الموسويّة. يليه سفر **العدد** حيث دُوِّنت الإحصاءات والسلالات الخاصّة بالأسباط اليهوديّة في الصحراء.

خامس كُتُب **التوراة هو تثنية الاشتراع**، أي «الشريعة الثانية». ذٰلك بأنّ هٰذا السِفر يروي مرّةً ثانيةً الكثير من الأخبار التي جاءَ ذكرها في الأسفار السابقة، كما أنّه يعود فيعرض لشرائع التوراة وشعائرها. ويقول العلماء إنّ هٰذا السفر وُضِع عَقِبَ حركةٍ تصحيح قامت بين اليهود في زمن الملك يُوشِيّا والنبيّ

إرْميا (القرن السابع ق. م.). فالشعب اليهوديّ كان آنذاك، إلى جانب عبادته الإلٰهَ الحقّ، منصرفًا إلى ممارسات مشوبة بالشِرك راجت في الكثير من المعابد المنبثّة عبر البلاد، ممّا يفسِّر تشديد سفر **تثنية الاشتراع** على نبذ عبادة الأوثان بأنواعها، وعلى دعوة الشعب إلى العدول عن غِيّهم والرجوع إلى خدمة الله وحده خدمةً نصوحًا.

٢. تاريخ «تثنية الاشتراع»

يروي كتابُ **تثنية الاشتراع** والأسفارُ الستّة التي تليه ما يدعوه العلماء **تاريخ تثنية الاشتراع**. يبدأ هٰذا التاريخ فيسجِّل أخبار الشعب اليهوديّ في أثناء متاهته لمّا عبر الصحراء، ثمّ يروي فتح أرض كنعان (فلسطين) على أيدي القبائل اليهوديّة، وخضوع تلك القبائل لحكم القضاة لا سيّما صَمُوئيل وشاوُل. وقد جرت تلك الأحداث في حدود السنة الألف قبل المسيح.

ويلي ذٰلك تدوين أخبار مملكتَي داود وسليمان، فأخبار النبيَّين إيليّا وأَليشاع، فما حَدَثَ بعد ذٰلك حتّى جلاء اليهود إلى بابل سنة ٥٨٧ ق. م. والأسفار التي تُعنى بتاريخ تثنية الإشتراع هي **تثنية الاشتراع** عينه، **ويَشُوع**، **والقضاة**، **وصموئيل الأوّل وصموئيل الثّاني**، **والملوك الأوّل والملوك الثاني**.

أمّا خلاصة التعليم المنبثق من تاريخ تثنية الاشتراع فهي أنّ الله يدعو الشعب اليهوديّ إلى طاعته وحبّه والإخلاص له، وأنّ إطاعة الله عاقبتها الفلاح، في حين عاقبةُ المعصية الخراب. وكذٰلك لا بدّ من تطهير الشعائر اليهوديّة من العبادات الوثنيّة وتقديم الذبائح في هيكل أورشليم وحدَه بمعزل عن سائر الهياكل المنتشرة في البلاد. كما أنّ تلك الأسفار تعلن أنّ الشعب اليهوديّ مختار اصطفاه الله ليكون شعبَه الخاصّ.

٣. تاريخ محرِّر الأَخبار

يلي مجموعةَ تاريخ تثنية الإشتراع مجموعةٌ أُخرى تُدعى **تاريخ محرِّر الأَخبار**، وهي موازيةٌ للأُولى. وتضمّ الأسفار التالية: **الأخبار الأوّل والأخبار**

الثاني، **وعَزْرا**، **ونَحَمْيا**، وتروي تاريخ مملكتَي يهُوذا (في جنوب فلسطين) وإسرائيل (في شمالها) حتّى الجلاء إلى بابل وعودة الشعب اليهوديّ إلى دياره على يد قُورُش العظيم. وتعكس تلك الأسفار الاتّجاه الجديد الذي سارت فيه الديانة اليهوديّة بعد الرجوع من بابل: فالطقوس تركّزت حول هيكل أورشليم، والشريعة احتلّت مكان الصدارة، والكتّاب – أمثال عزرا – أضحوا من ذوي الحلّ والربط بسبب تفسيرهم الشريعة؛ كما أنّ الشعب أقرَّ بأنّ ذرّيّة داود الملك هي صاحبة السلطان عليه، وأخذت الآمال تتبلور حول مسيحٍ آتٍ متحدّرٍ من سلالة داود سوف يحرّر الشعب من حكّامه الوثنيّين.

٤. كُتُب الأَنبياء

عُرِف في العهد القديم نوعان من الأنبياء. بعضهم، مثل صَموئيل وناتان وأَليشاع وإيليّا، حملوا رسالةً شفهيّة واجترحوا في بعض الأحيان، وبإذن الله، معجزات، على نحو ما فَعل إيليّا وأليشاع. وبعضهم الآخر خلّف رسالة مكتوبة، إذ كان تلامذةٌ لهم أو مستمعون يحرّرون بالكتابة ما يلقيه الأنبياء بالمشافهة.

في **الكتاب المقدّس** أربعة أسفار لأنبياء «كبار» دُعُوا هٰكذا لأنّ أسفارهم كبيرة الحجم، وهم **أَشَعْيا**، **وإرْميا**، **وحَزْقِيال**، **ودانِيال**. وهناك أيضًا اثنا عشر نبيًّا «صغيرًا»، أسفارهم أصغر حجمًا ولكنّها لا تقلّ أهمّيّةً عن «الكبيرة». وهي كُتُب **هُوشَع**، **ويُوئيل**، **وعامُوس**، **ويُونان**، **وعُوبَدْيا**، **وميخا**، **ونَحُوم**، **وحَبَقُّوق**، **وصَفَنْيا**، **وحَجّاي**، **وزكريّا**، **ومَلاخِي**.

دُعي الأنبياء في بعض الأحيان «ضمير إسرائيل» لأنّهم انتقدوا بشدّة خطايا الشعب ومعاصيه لا سيّما انصرافه إلى الشِرك والنِفاق في الدين. وقد وجّهوا اهتمامًا خاصًّا إلى ما قد نسمّيه اليوم «الخُلُقيّة الاجتماعيّة»، وراحوا يقرّعون بقساوة الأغنياء الممتنعين عن مساعدة الفقراء، والقضاةَ الحاكمين بالزور، المسايرين الأقوياء على حساب حقوق الضعفاء، والموظّفين الفاسدين، والتجّارَ الذين يغشّون زبائنهم، ورجال الدين العابثين بتعاليم الله

في سبيل مصالحهم الخاصّة، والقساةَ الذين يقهرون اليتامى والأراملَ والغرباء.

وندَّد الأنبياء بتحالف إسرائيل على الصعيد العسكريّ مع البلاد الوثنيّة كمصر وأشُور، وأنذروا الشعب بالويلات إنْ هو تمادى في غيّه وأبى أن يتوب إلى الله. وقد اضطُهد بعض الأنبياء، مثل إرميا، لتحدّيهم قادةَ الشعب بشدّة، كما أنّ بعضهم الآخر قُتل لاتّهامه بالخيانة وعدم التحسُّس بالروح الوطنيّة.

وعكَس مضمون النبوءات شخصيّة الأنبياء وتأثّر بها. فعاموس وإرميا عنيفان، وتتّسم تنديداتهما بالقساوة البالغة والتهديد. وهوشع أُخفقَ في زواجه، فراح يتأمّل في حاله وخَلَص إلى أنّ الشعب اليهوديّ أشبه بامرأةٍ خانت زوجها. وأشعيا وحزقيال كانا يُخطَفان بالروح ويَرَيا الرؤى، فينقلانها إلى الشعب رسائلَ أوحى بها الله.

ولمّا حلّت المصيبة بالشعب اليهوديّ وسيق مستعبَدًا إلى بابل وخضع لسلطان الوثنيّين، تبدَّل دور الأنبياء؛ فقد قيل في النبيّ إنّه إنّما دُعيَ «ليُحزِن المتعزّين ويعزّي المحزونين». وعليه أَخذ الأنبياء يبثّون الشعبَ التعزيةَ والرجاءَ في ضيقهم ويأسهم؛ وقالوا للناس إنّ سبب آلامهم يعود إلى خطاياهم، ولٰكنّ الله سوف يخلّصهم إنْ هم عادوا إليه وتابوا. فلا ينبغي لهم أن يقنطوا، بل فليلوذوا بالله وهو كفيل بأن يحرّر الذين يثقون به، ويؤمّن لهم مستقبلاً جديدًا.

ولقد اهتمَّ الأنبياء بالغَ الاهتمام بمن عُرِفوا بـ«العَناويم»، وهم جمهور الأتقياء الفقراء، المحتقَرين، المستضعَفين المظلومين في الأرض. من هؤلاء المؤمنين المتواضعين، يقول الأنبياء، سيكوّن الله شعبًا جديدًا. فهُم، على حدّ قول الأنبياءِ أيضًا، «البقيّة»، الجماعة الصغيرة من الشعب التي بقيت مخلِصةً لله، طائعةً له في السرّاء والضرّاء.

٥. التوق إلى المسيح

لقد كان لتعاليم الأنبياء تأثيرٌ بالغ في إذكاء شوقِ شعب العهد القديم إلى مجيء المسيح : فالله لن يترك قومَه في حاله المزرية التعيسة ، بل سوف يُرسل إليهم مَن قَبِل منه المسحة (وهذا معنى «المسيح») ليخلّصهم. ونتبيّن من خلال الكتب النبويّة أنّ الآمال بمجيء المسيح تَمَحْوَرَتْ حول اتّجاهات أساسيّة ثلاثة ، علمًا أنّ هٰذه الاتّجاهات لم يتميّز بعضُها عن بعضها الآخر على نحوٍ قاطع.

آ) **المسيح ، ابن داود**. أعلن الأنبياء ، كحَزْقِيال ومَلاخي ، أنَّ الله سوف يُرسل مسيحًا من ذرّيّة داود ليُعيد مجد إسرائيل. وهٰذا المَسيح مزمع أن يحرِّر الشعب من حكّامه المشركين ، ويبسط سلطان شريعة الله على البقيّة التي ظلّت أمينةً مطيعةً في زمن محنتها. والملكوت الجديد يسوده العدلُ وحُسن معاملة الفقراء وعبادةُ الله بالصدق والحقّ. وسيَحكم اللهُ شعبه على يد مسيحه. وقد بشَّر بعضُ الأنبياء أن هٰذا الملكوت سوف يكون ، لا لليهود وحدهم ، بل يشمل سائر شعوب الأرض.

ب) **عبدُ الله**. تكلَّم أَشعيا النبيّ على عبدِ الله الآتي ، فقال إنّه سوف يجيء خاليًا من أيّ قدرة عسكريّة أو اقتصاديّة ، ومن أيّ جمالٍ في المظهر ، ومن أيّ نفوذ. وسيَخضع لإرادة الله بإيمان ، نابذًا كلّ عنف ، متحمِّلاً بالصبر الجميل الآلام والاضطهادات ، آخذًا على عاتقه خطايا الشعب ، فيُضْحي بذٰلك أداة خلاصه.

ج) **ابن الإنسان**. جاء ذكرُ هٰذه الشخصيّة الغامضة في أسفار **دانيال ويُوئيل وحبقُّوق**. وتلك الكتب تدخل في باب الأدب الرؤيويّ ، وهو فنّ أدبيّ صعب الفهم ، كثيرًا ما يلجأ إلى صُوَر ورموز معقَّدة غيرِ مألوفة. ويعود الأدب الرؤيويّ إلى حقبة من تاريخ اليهود كان الشعبُ في أثنائها مضطَهدًا ، ممّا دفعه إلى التعبير عن آماله بأساليب سرّيّة رمزيّة. وتتطلّع الأسفار الرؤيويّة إلى «يوم الربّ» ، حيث يأتي الله ليُصلح ما فَسَد ، ويدين الأشرار ، ويُعتق

الذين بقوا على الإيمان. وسيأتي ابن الإنسان، بحسب ما ورد في الأدب الرؤيويّ، نازلاً من السماء، علامةً لاقتراب حلول يوم الربّ، وسيتولّى ملكوت الله.

٦. المؤلَّفات، أو كُتب الحكمة

أَلّف جيران الشعب اليهوديّ الوثنيّون كتبًا حكميّة كثيرة بغيةَ هداية الناسَ إلى مستقيم السَبيل. ولمّا كان اليهود يؤمنون بأنّ «الحياة الفاضلة» هي التي تتوافق مع إرادة الله، فإنّهم ألّفوا هم أيضًا كتبًا حكميّة خاصّة بهم. وهٰذه الكتب هي المجموعة الثالثة والأخيرة من مجموعات العهد القديم.

أشهَرُ تلك الأسفار كتاب **مزامير** داود، وهو يحتوي على ١٥٠ نشيدًا موضوعاتها حمدُ الله وشكرُه، التوبةُ، الثقة بالله، انتظار المسيح، أدعية استغاثةٍ بالله. كان سفر **المزامير** بمثابة «كتاب الصلاة» لليهود على مدى القرون، وبه صلّى يسوع وتلاميذه، وبه ما زال المسيحيّون يصلّون. وكثيرون منهم يقرأُون مجموع المزامير المائة والخمسين مرّةً كلَّ أسبوع، ويلتقي الرهبانُ والراهبات في الأديرة سبعَ مرّات كلَّ يوم لتلاوة المزامير جهارًا.

ومن كُتب الحكمة المهمّة سِفر **أيُّوب**. وهو يروي قصّة شيخ عربيّ ميسور وتقيّ، تحلّ به سلسلة من المصائب الشخصيّة، فيفقد مالَه وأُسرته وصحّته. والكتاب دراسةٌ لمشكلة الخير والشرّ، ويطرحُ سؤالاً طالما راود المؤمنين: «لماذا يتألّم في هٰذه الدنيا الناسُ الصالحون، في حين يبدو أنّ الأشرار يسعدون؟» فيلجأ المؤلِّف، وهو مجهول، إلى قصّة شعبيّة (حُفظت في الفصول ١-٢ و٤٢)، ويُقحم فيها حواره الطويل حيث طَرْحُ المشكلة: كيف يمكن اللهَ الصالحَ القادر على كلّ شيء أن يسمح بدخول الشرّ في خليقته تعالى؟

أمّا سفر **الأمثال**، فهو مجموعة من الأقوال والحِكَم ينسبها التقليد إلى سليمان. وسفر **الجامعة** (أي رجل الجماعة، وقد يكون الخطيب)، فهو مجموعة من الخواطر والتساؤلات حول معنى الحياة: «ما هو الهدف من الحياة؟ ماذا

يجعل الحياة ذات قيمة؟». وسفر **نشيد الأناشيد** مجموعة من الأغاني اليهوديّة الخاصّة بالأعراس، تمتدح الحبّ البشريّ وتعتبره أمرًا رائعًا ساميًا وهِبةً من أجود هبات الله. ويعلّمنا هٰذا السفر أنّ الحبّ البشريّ يمكن اعتباره رمزًا لما يكنّه الله للإنسانيّة من حبّ.

٧. الأسفار القانونيّة الثانية

هٰذه الأسفار تَدخل في **الكتاب المقدّس** المعتمَد لدى الكاثوليك والأرثوذكس، في حين لا يعترف بها اليهود وأغلبيّة البروتستانت (ص ١٧).
والقِسم الأكبر من هٰذه الأسفار يمتّ إلى الأدب الحكميّ.

سِفرا **المكّابيّين** يرويان أعمال اليهود البطوليّة للمحافظة على إيمانهم إبّان الاضطهاد الذي شنّه عليهم اليونانيّون المشرِكون.

سفر **طوبيّا** يُبرز القيم الدينيّة التي تحمِلها الحياة العائليّة العاديّة.

سفر **حكمة سليمان** يعلّمنا أنّ الحكمة الحقّ إنّما تأتي من الله، وأنّ على كلّ مؤمن أن يبتغي الحكمة. ويعبّر هٰذا السفر، بما لا مثيل له من الوضوح في سائر أسفار **العهد القديم**، عن إيمان راسخ بقيامة الأموات وبمكافأة الأعمال الصالحة وبمعاقبة أعمال الشرّ.

سفر **يشوع بن سيراخ** مجموعة ثانية من الحكم شبيهة بما ورد في سفر **الأمثال**.

سفرا **يهوديت** و**أستير** يرويان أخبار اثنتين من بطلات اليهود الشهيرات.

وأخيرًا يحوي سفر **باروخ** أقوال أمين سرّ النبيّ إرميا.

٨. قائمة بأسفار «العهد القديم»

آ) **التوراة** (كُتب موسى، كتب الشريعة الخمسة):

التكوين

الخروج

الأحبار

العدد

تثنية الاشتراع

ب) **تاريخ تثنية الاشتراع** (تثنية الاشتراع ، الكتاب الخامس من كُتب التوراة)

يشوع

القضاة

صموئيل الأوّل وصموئيل الثاني

الملوك الأوّل والملوك الثاني

ج) **تاريخ محرِّر الأخبار**

الأخبار الأوّل والأخبار الثاني

عزرا

نحميا

د) **المؤلَّفات** (كُتب الحكمة)

أيّوب

المزامير

الأمثال

الجامعة

نشيد الأناشيد

هـ) **الأنبياء**

« الأنبياء الكبار » :

أشعيا

إرميا

حزقيال

دانيال

« الأنبياء الصغار » :

هوشع

يوئيل
عاموس
يونان
عوبديا
ميخا
نحوم
حبقّوق
صفنيا
حجّاي
زكريّا
ملاخي

و) الأسفار القانونيّة الثانية
طوبيّا
يهوديت
أستير
سفر المكّابيّين الأوّل والثاني
حكمة سليمان
يشوع بن سيراخ
باروخ

و - العهد الجديد

يتضمّن **العهد الجديد** كتابات هي وقفٌ على المسيحيّين، إذ لا يقبلها اليهود في كتابهم المقدّس. وفي حين يختلف المسيحيّون حول قانون **العهد القديم**، فإنّهم متّفقون في شأن نصّ **العهد الجديد**، وهو واحد عند جميعهم. وتعود نُسَخُ بعض أسفار **العهد الجديد** إلى القرن الأوّل الميلاديّ. كما أنّ قانون

هٰذا العهد ثُبِّت بين السنة ١٥٠ والسنة ٢٠٠ ، وقَبِل به المسيحيّون منذ ذٰلك الحين.

جميع أسفار **العهد الجديد** كُتبت باللغة اليونانيّة. واعتقد بعض الناس في الماضي أنّ إنجيل متّى كُتب أصلاً بالآراميّة ، لغة المسيح ورُسُله ، ولٰكن يبدو أنّ لا أساسَ تاريخيًّا أو لغويًّا لتلك النظريّة. أمّا الترجمات إلى اللغات الحديثة فتمّ عن النصّ اليونانيّ ، وهو النصّ الذي يعتمده علماء **الكتاب المقدّس** في دراساتهم. ويقوم هؤلاء العلماء بدراساتٍ أقرب ما تكون إلى علم **التفسير** لدى المسلمين ، فيفسّرون النصّ متفهّمين معناه الحقيقيّ من خلال التحليل اللغويّ ، ويشرحونه آخذين بالاعتبار أُطُره التاريخيّة والاجتماعيّة والثقافيّة.

مؤلّفو أسفار **العهد الجديد** كانوا جميعًا من تلاميذ يسوع ، بعضهم عرفه معرفةً شخصيَّة (وهم أشبه **بالصحابة**) ، وبعضهم الآخر كان من جيل الأتباع الأُوَل (وهم **كالتابعين**). ولا يقول المسيحيّون بأنّ مؤلّفي **العهد الجديد** كانوا شهود عيان لِما حدث في حياة يسوع ، علمًا أنّ بعضهم ، على ما يبدو ، كان بالحقيقة شاهدًا ، إلاّ أنّ جميع هؤلاء المؤلّفين كانوا من أوائل تابِعي المسيح. ونحن المسيحيّين لا ندعو كتّاب العهد الجديد أنبياء ، بيد أنّنا نعتقد بأنّهم جميعًا نعِموا بإلهام الله في سائر ما كتبوه.

١. الأناجيل

الكُتب الأربعة الأُولى من كُتب **العهد الجديد** تُدعى **الأناجيل** ، وكلمة «إنجيل» مشتقّة من اللفظة اليونانيّة Εὐαγγέλιον وتعني «الخبر السارّ» أو «البشرى». **والأناجيل** فنٌّ من فنون الأدب الملهَم خاصٌّ بالمسيحيّة دون سواها ، فكلٌّ من **الأناجيل** هو ، في الأساس ، **إعلان إيمان** بالمسيح القائم من الأموات. كلٌّ من **الأناجيل** يهدف إلى إظهار ما تعنيه حياة يسوع للمسيحيّين المؤمنين. ويبدو يسوع في **الأناجيل** على أنّه :

١. **تَتميمُ توقِ العهد القديم إلى مجيء المسيح** ،

٢. **وحيُ الله**،
٣. **البرهانُ على أنّ الله يريد خلاص البشريّة وهو قادر على ذلك**،
٤. **مؤسِّسٌ لجماعةٍ من التلاميذ ندعوها الكنيسة**، عليها أن تتابع عمل يسوع على مدى التاريخ.

وقد سبق **الأناجيلَ** المكتوبة **تقليدٌ شفهيّ**. فيسوع مات، بحسب المعتقَد المسيحيّ، حوالى السنة ٣٠. وأتْباعُه الذين عرفوه، وشاهدوا أعماله، وسمعوا أقواله، حفظوا ما تذكَّروه عن يسوع. ولمّا أخذ المسيحيّون الأوائل يجتمعون للصلاة، استعادوا في حلقاتهم روايات تلك الأعمال والأقوال، وراحت هذه الروايات تتبلور وتزداد حجمًا.

أوّل تلميذٍ من تلاميذ يسوع صنَّف تلك الأخبار في شكل إنجيل هو مَرْقُس أحدُ رفاق بطرس، وقد وضع كتابه نحو سنة ٦٠ (ولا بدّ هنا من التنبيه إلى أنّ هذا التاريخ، وسائر تواريخ أسفار **العهد الجديد**، هي تقريبيّة، يقدّرها العلماء انطلاقًا من قرائن يهتدون إليها في **الكتاب المقدّس** نفسه).

العلاقة بين **الأناجيل** الأربعة جديرةٌ بالملاحظة. فكلّ **إنجيل** يحتوي على أقوال ليسوع وأخبار من أعماله وحياته هي نفسها في سائر الأناجيل، كما أنّه يحوي أمورًا، وخاصّةً مفهومًا لمعنى حياة يسوع، يَختصّ بها هذا **الإنجيل** دون سواه. وسبب ذلك أنّ كُلّ مؤلِّف من مؤلِّفي **الأناجيل** (ويُدعى الإنجيليّ) شدَّد على نواحٍ معيَّنةٍ في حياة يسوع وتبشيره، وأوّلها تأويلاً يوافق ظروف واهتماماتِ الشعب الذي من أَجله كَتَب. وعليه فيُعتبَر الإنجيليّون من أوّل «اللاهوتيّين» في الجماعة المسيحيّة. وعلى الرغم من أنّ كلاًّ من **الأناجيل هو نسيج وحده**، مختلفٌ عن الثلاثة الأُخرى، فالمسيحيّون لا يجدون أيّ تناقُض بين النظرات الخاصّة إلى المسيح المتجلِّيةِ في سائر **الأناجيل**؛ كما أنّهم يعتبرون أنّ **للأناجيل** جميعها المكانة نفسها والأهمّيّة نفسها.

آ) إنجيل متّى

أوّل **الأناجيل** في لائحة أسفار **العهد الجديد** هو **إنجيل متّى**، كتَبه

مسيحيٌّ فلسطينيّ بُعَيد السنة ٧٠ الميلاديّة. هٰذا الإنجيل يصف يسوع على أنّه المعلِّم الأعظم وموسى الجديد صاحب شريعة العهد الجديد. والأسلوب الأدبيّ الذي اتّبعه كاتبُه يقوم على جمع أقوال يسوع وتحرّي أفعاله على نحوٍ منتظم بحيث تُعرَض رسالة يسوع انطلاقًا من موضوعاتها الأساسيّة، لا من تسلسل أحداثها الزمنيّ. ومثالاً على ذٰلك، تَختصر العظةُ على الجبل (الفصول ٥ إلى ٧) تعاليمَ يسوع، في حين جُمعت أمثالُه في الفصل ١٣، وأخبارُ معجزاته في الفصلين ٨ و٩، وجُعل تنبُّؤه بيوم الربّ وحلول الساعة في الفصلين ٢٤ و٢٥.

في ما يختصّ **بالأفكار اللاهوتيّة الأساسيّة** في هٰذا الإنجيل، فقد سبق أن أشرنا إلى أنّ متّى يعتبر يسوعَ موسى الجديد؛ وكما أنّ موسى أعلن للشعب اليهوديّ العهد القديم وأعطاهم الشريعة القديمة، فيسوع يبشّر بالعهد الجديد ويعطي الشريعة الجديدة. وهٰذه الشريعة الجديدة موجَّهة أوّلاً إلى «بقيّة» الفقراء الأتقياء (أُطلب متّى ١/٥ ٨)، وهي شريعة لا تقوم على فرائض مكتوبة بل على حبِّ الله المكتوب في قلوب البشر. ومتّى أشدُّ الإنجيليّين اهتمامًا بإظهار يسوع متمِّمًا نبوءات العهد القديم: مِن ذٰلك أنّه استشهد بآيات من النبيّ أشعيا تذكر عبدَ اللهِ الوضيعَ الذي خلَّص الشعب بطاعته وإيمانه، فرأى من خلالها أنّ آلامَ يسوع وموتَه هي تتميمُ سائر ما تنبّأ به أشعيا في شأن العبد المتألِّم.

وممّا يذهب إليه علماء الكتاب المقدّس أنّ إنجيل متّى ينطلق من حوار مع بعض رؤساء اليهود بعد خراب أورشليم سنةَ ٧٠، إذ يبتغي الإنجيليّ إقامة الدليل على أنّ اليهود، برفضِهم يسوع ونبذه، تسبَّبوا بانتقال الملكوت منهم إلى غير اليهود (الأُمَم). ويرى متّى أنّ هٰذا الملكوت إنّما هو الكنيسة؛ كما أنّه يعتبر أنّ ملكوت الله ليس أمرًا سوف يحدث في المستقبل بقدر ما هو حقيقةٌ راهنة **الآن**.

ب) **إنجيل مَرقُس**

يسود الاعتقاد، على ما ذكرنا سالفًا، أنّ هٰذا **الإنجيل** هو **أقدم الأناجيل**، كُتِب حوالى السنة ٦٠. لم يكن مرقس أحد رسل يسوع الاثني عشر، إلاّ أنّ **العهد الجديد** ذَكره في عداد معاوني بولس وبطرس، وفي كتابه تفاصيل صادرة عن شاهد عيان، توحي بأنّ مرقس يروي الكثير ممّا سمعه من بطرس. ويعتقد العلماء بأنّ **إنجيل** مرقس كُتب، أوّل ما كُتب، لمسيحيّين لم يكونوا قبلاً يهودَ.

يوضح مرقس هدفه في السطر الأوّل من إنجيله، فهو يريد إعلان «بشارة يسوع المسيح ابنِ الله». ويختلف مرقس عن متّى في أنّه أشدّ اهتمامًا **بأعمال يسوع** منه بأقواله، فيركّز على مناهضة يسوع للأبالسة وطردِها من الناس، وعلى غفرانه للخطأة واجتراحه المعجزات. كما أنّه يسلِّط الأضواء على ملامح يسوع البشريّة، مشدِّدًا على كونه إنسانًا حقًّا خلافًا للذين قالوا بأنّ يسوع «ظهر» بمظهر البشر وحسب.

يعكس **إنجيل** مرقس بشارة يسوع في شكلها الأساسيّ والأقرب إلى بداياتها، وقوامها ما يلي:

- أَقلِعوا عن الخطيئة وتوبوا إلى الله؛
- أَخضِعوا حياتكم لشريعة الله (ذٰلكم هو الملكوت).

وتجدر الإشارة إلى أنّ آلام يسوع وموته لها مكانة بالغة الأهمّيّة في **إنجيل** مرقس، وهٰذا السِفر، شأنه شأن **إنجيل** متّى، يصف آلام المسيح بالعبارات التي استعملها أشعيا النبيّ لوصف عبد الله الذي أتى على ذكره.

ج) **إنجيل لوقا وأعمال الرسل**

رواية البشرى بحسب لوقا تُقسم إلى قسمين:

- **إنجيل لوقا**
- **أعمال الرسل**.

المعروف عن لوقا أنّه كان رفيقًا غيرَ يهوديّ للقدّيس بولس، ولم يكن

بالتالي أحد الرسل الاثني عشر. ومع أنّه استند كثيرًا إلى إنجيل مرقس، فإنّ في عمله من الفكر اللاهوتيّ ما لا وجود له في الإنجيلَين السابقين؛ بمعنى أنّ ما يرويه من أحداث حياة يسوع وتعاليمه، يُؤوَّل في ضوء موته وقيامته. إلى ذٰلك يقول العلماء إنّ لوقا كان أوفر الإنجيليّين علمًا وأوسعهم ثقافةً لأنّ إنجيله مكتوب بأسلوب يونانيّ متقنٍ أنيق.

• **إنجيل لوقا**

يمكن اختصار أهمّ الأفكار الواردة في **إنجيل** لوقا بما يلي: **شموليّة** رسالة يسوع: فالبشرى موجَّهة لا إلى اليهود وحدهم بل إلى سائر الشعوب. يسوع **صديق الخطأة**، وهو شديد الاهتمام بالذين يتألّمون. ويركّز لوقا، أكثر من الإنجيليّين الآخرين، على **خطر الغنى** وأهمّيّة الفقر الاختياريّ في نظر تلاميذ يسوع. وفكرة **التتلمُذ** هي في صميم مفهوم لوقا لرسالة يسوع، إذ يبدو المسيح عند هذا الإنجيليّ مهتمًّا كلّ الاهتمام بدعوة نفرٍ من الرجال والنساء وتكوينهم جماعةً من التلاميذ تعيش وتعملُ على مثاله. وجدير بالذكر هنا أنّ النساء يقُمن في **إنجيل** متّى بدور أهمّ من الذي يقمن به في **الأناجيل** الأُخرى.

وثمّة فكرة أخيرة أساسيّة في **إنجيل** لوقا: **فهو** يشدِّد على كون يسوع **رجل صلاة**، ويظهره منصرفًا إلى الصلاة في كلّ ظرف دقيق من ظروف حياته. وتلك الصلاة التي يشير إليها لوقا ليست الصلاة اليهوديّة الطقسيّة، بقدر ما هي اتّحادٌ باطنٌ صامت بالله على أنّه أب. وتاريخ الروحانيّة المسيحيّة متأثّر إلى حدٍّ بعيد بنظرة لوقا هٰذه إلى يسوع المتّحد بالله من خلال تأمّلاته وصَلاته.

• **أعمال الرسل**

على الرغم من أنّ القسم الثاني مِن عَرْض لوقا للبُشرى لا يُعدّ إنجيلاً، فيمكننا معالجته مرتبطًا **بإنجيل** لوقا. **وأعمال الرسل** تروي أحداث نموّ الجماعة المسيحيّة بدفعٍ من روح الله، نموٍّ لا يقتصر على الناحية العدديّة، بل يشمل الإدراك الشخصيّ للهويّة والرسالة. وسفر **أعمال الرسل** سمّي في بعض الأحيان

«إنجيل الروح». كما أنّه يروي كيف تحوَّلت الجماعة المسيحيّة من شيعة يهوديّة صغيرة تقول بأنّ يسوع هو المسيح، إلى جماعة كونيّة مختلفة عن اليهوديّة. أضف إلى ذلك أنّ لوقا، في سفر **الأعمال**، يُكثر من استعمال صيغة المتكلِّم، ممّا يشير إلى أنّه حضر شخصيًّا الكثير من الأحداث التي يذكرها.

أمّا أهمّ الأفكار اللاهوتيّة الواردة في سفر **الأعمال**، فهي الآتية: روح الله يكوّن الجماعة المسيحيّة ويَهديها؛ يمكن غيرُ اليهود أن يصيروا أتباعًا ليسوع على نحو ما كان اليهودُ أتباعَه، ولا يترتّب عليهم التقيّد بمراسم الشريعة اليهوديّة؛ بُشرى يسوع هي رسالة موجَّهة إلى البشريّة جمعاء؛ المسيح القائم من بين الأموات ما زال حيًّا في جماعته، جماعة المؤمنين.

د) إنجيل يوحنّا

يقول التقليد بأنّ هٰذا **الإنجيل** من تأليف يوحنّا، «التلميذ الحبيب»، ألّفه في أَفَسُس. إلاّ أنّ العلماء لا يتّفقون في أمر تاريخ هٰذا **الإنجيل**، فتتراوح السنين المقدَّرة بين الزمن الممتدّ من العام ٦٥ إلى العام ٩٠، مع ترجيح التاريخ الأوّل. و**إنجيل** يوحنّا، شأنه شأن **إنجيل** مرقس، مليء بشهادات العِيان، ممّا لا يصدر إلاّ عمّن حضر الأحداث المذكورة.

والجدير بالذكر أنّ ثمّة الكثير من مواطن الشبه بين **إنجيل** يوحنّا وكتابات شيعة قمران اليهوديّة من جهةِ الأسلوب والأفكار. وجماعة قمران هٰذه كانت تعتقد بأنّ المجتمع الدنيويّ شرّيرٌ فاسد، وأنّه ينبغي للشعب أن يهيِّئوا ذواتهم ليوم الربّ؛ وقد تنسَّكت من هٰذا المنطلق في أديارٍ وسط صحراء اليهوديّة. وثمّة دلائل ترجّح انتماء يوحنّا المعمدان (يحيى الحصور) إلى تلك الشيعة.

يُقال عن **إنجيل** يوحنّا إنّه أبعد الأناجيل تحليقًا في الأجواء الصوفيّة. فهو لا يتوقّف عند تفاصيلِ حياة يسوع بقدر ما ينتبه إلى **كلامه**، وتعاليم يسوع رُتِّبت فيه على شكل خُطب طويلة تُبرز الأفكار من خلال استعمالٍ دقيق معقّد **للرموز**. وفي رأي يوحنا تُشير أحداث حياة يسوع إلى تحقُّق حياته وأعماله في الجماعة المسيحيّة. ومن تعاليم يوحنّا أنّ رسالة الله الأزليّة **تجسَّدت**، أو أصبحت

بَشَرًا، في يسوع الإنسان. ويهتمّ يوحنّا بالغَ الاهتمام بأعمال يسوع **السرّيّة**، أو، بعبارة أُخرى، يركّز على الأعمال التي قام بها يسوع لأجل تلاميذه، فيبيّن كيف أنَّها تستمرّ إلى يومنا في سرَّي المعموديّة والإفخارستيّا (أطلب ص ٨١ وص ٨٥).

وهناك فكرة لاهوتيّة أساسيَّة في **إنجيل** يوحنّا، مفادها أنّ الله محبّة وأنّ المحبّة هي ما ينبغي أن تتميّز به جماعة أتباع يسوع. كما أنّ أهمّيّة المحبّة هي من الأفكار الأساسيّة في الرسائل المنسوبة إلى يوحنّا. وأخيرًا يرى **إنجيل** يوحنّا أنّ يسوع هو **النور والحق والحياة**، وأنّه مَن يدلّنا على **الطريق** إلى الله. وسائر هٰذه التعاليم مجموعة في خطاب طويل ألقاه يسوع إبّان العشاء الأخير الذي تناوله مع تلاميذه قُبيل موته (يوحنا ١٣–١٧).

٢. لماذا أربعة أناجيل؟

قبل الانتقال إلى أسفار **العهد الجديد** الأُخرى، يحسن بنا أن نتوقّف عند سؤال غالبًا ما يطرحه المسلمون: ألم ينقل يسوع عن الله إنجيلاً واحدًا فقط؟ فلماذا يعترف المسيحيّون بأربعة أناجيل؟ ولمّا كنّا نعلم ممّا جاء في التاريخ أنّ مسيحيِّين آخرين كتبوا هم أيضًا **أناجيل**، فلماذا يعترف المسيحيّون **بأناجيل** متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا دون سواها؟

تلك أسئلة وجيهة تتلاءم منطقيًّا مع وجهة نظر الإسلام الكلاميَّة. أمّا جوابي، أنا المسيحيّ، فيفترض مفهومًا مسيحيًّا للوحي (ص ١٩) ولا بدَّ له من موافقة هٰذا المفهوم.

وأوّل ما أقوله هو إنّ المسيحيِّين لا يدَّعون البتَّة أنّ يسوع **حَمَل** كتابًا هو **الإنجيل**. فيسوع في رأيهم لم **ينقل** وحيًا على نحو ما نقل محمَّدٌ **القرآنَ** في رأي المسلمين. بل يعتقد المسيحيّون بأنّ يسوع نفسه هو تجسُّد وحي الله للبشريّة، ولا يحمل رسالة، بل إنّه هو الرسالة. ونتيجةً لذٰلك لا نبتغي إنجيلاً خطَّه يسوع بيده أو أملاه على أحد تلاميذه.

ولمّا كان المسيحيّون يؤمنون بأنّ يسوع هو تجسُّد كلمةِ الله أو رسالتِه،

فإنّهم يعتقدون بأنّ **الأناجيل** هي ثمرة جهود تلاميذه الملهمَة لإعلان إيمانهم بالمسيح ، ولبيان ما يعنيه هذا الإيمان لجماعة أتباعه. كلٌّ من **الأناجيل** الأربعة يؤدّي شهادةً خاصَّةً به ، مميَّزةً ، للمسيح ، وفي حين يختلف بعضها عن بعض بوجهة النظر والتفاصيل ، فجميعها متَّفِق جوهريًّا في شأن هويّة يسوع وماهيّة رسالة الله إلى أتباعه بواسطته. وعليه فالمسيحيّون لا يختارون إنجيلاً فيتبعوه بمعزل عن الأناجيل الأخرى ، لأنّ إيمانهم مبنيّ على تعاليم الأربعة معًا ويهتدي بهديها. وهُم يعتقدون بأنّ إيمانهم غير كامل إن هم تخلّوا عن أيٍّ من هذه الأناجيل.

وهذا ما يقودنا إلى أمرٍ ثان يعكس هو أيضًا الفرق بين المفهومَين المسيحيّ والمسلم للوحي. فالمسيحيّون يعترفون بأربعة **أناجيل** ، وبأربعة فقط ، ويقرّون بأنّ هذه الأربعة هي الصحيحة دون سواها لأنّ الجماعة المسيحيّة الأُولى اعتبرتها آتيةً من لدن الله. ومن الثابت أنّ الإيمان المسيحيّ مبنيّ على إيمان الرسل الحواريّين ، والمسيحيّون الأوائل آمنوا – كما ذكرناه سابقًا – بأنّ روح الله وفّر الهداية لجماعتهم ، أي للكنيسة.

من ذلك نفهم أنّ الله كان يهدي الجماعة ويلهمها بواسطة الروح القدس طوال السنين الثلاثين المصيريّة (٣٠ إلى ٦٠م) التي لم يكن فيها أناجيل مكتوبة، بل كانت أقوال يسوع وأفعاله تُنقل مشافهة. والروح عينُه ألهم الإنجيليّين الأربعة فكتبوا **أناجيلهم** وأودعوها ما اختاروا من أقوال يسوع وأفعاله الكثيرة. وممّا حقّقه الروح نفسه بنوعٍ خاصّ أنّه كوّن وهدى نظرة الإنجيليّين اللاهوتيّة في شأن ما يريد الله أن ينقله إلى البشريّة من خلال حياة يسوع وموته وقيامته. وأخيرًا ، وبهديٍ من الروح نفسه ، اعترفت الجماعة المسيحيّة الأُولى ، من بين كتاباتٍ مسيحيّة كثيرة ، بـ٢٧ كتابًا ، بما فيها **الأناجيل** الأربعة ، وقرّرت بأنّها حُرِّرت بإلهام من الله. وسُمِّيت هذه الأسفار كتب العهد الجديد ، وهي المرجع الأساسيّ الجازم للإيمان المسيحيّ على مدى الأزمان.

ومِثلُ هذا المفهوم للعلاقة بين الكتب المقدّسة والوحي يختلف عن مفهوم الإسلام لها. فالمسلمون جماعةٌ « كوّنها **القرآن** » ؛ المسلمون يؤمنون بأنّ الله

أرسل محمّدًا وأوحى إليه **القرآن** ، وأنّ الجماعة الإسلاميّة تكوَّنت بموجب تعاليم **القرآن**. أمّا المسيحيّون فيقولون بأنَّ الجماعة أَنتجت وكوَّنت ، بهديٍ من روح الله ، إقرارَها الخاصّ بإيمانها ، وكُتُبَها التي تشير إلى وحي الله في يسوع . وعلى النحو ذاته ، فإنّ الجماعة هي التي قرَّرت أنّ كُتُبها المقدَّسة هي كتابُ اليهود المقدّس والأسفارُ السبعة والعشرون المذكورة ، دون سواها .

أمّا كيف تمَّ هٰذا التحديد ، فبِنَوع من الإجماع . وقد حصل هٰذا الإجماع باكرًا إذ ظهرت أُولى لوائح الأسفار الكتابيّة بين السنة ١٥٠ والسنة ٢٠٠ . وبعد عدّة قرون حَدّدت الكنائس تحديدًا رسميًّا (كما فعلت الكنيسة الكاثوليكيّة في المجمع التريدنتي عام ١٥٤٦) أيّ الأسفار تُعتبر من أسفار **الكتاب المقدّس** ، إلاّ أنّ تلك القرارات المتأخّرة لم تكن سوى تأكيد لِما بات اعتقاد المسيحيّين التقليديّ .

٣. أسفار العهد الجديد المنحولة

ماذا نقول عن الأناجيل الأُخرى والرسائل وكتب الأعمال والرؤى التي صدرت عن المسيحيّين الأوائل ، وعُرفت بـ«أسفار العهد الجديد المنحولة» ، فلم تقبلها الكنيسة في عداد الأسفار القانونيّة ؟ الكثير من مِثل هٰذه الكتب ما زال موجودًا ، وغيره لا نعرفه إلاّ باسمه .

بعض تلك الأناجيل المنحولة ، **كالإنجيل بحسب العبرانيّين** ، **والإنجيل بحسب المصريّين** ، **وإنجيل بطرس** ، يشبه ، في روحيّته وتعاليمه ، الأناجيل القانونيّة الأربعة ، ولا يُستبعَد أن يحتوي على بعض أقوال يسوع ممّا لم يدوَّن في **الأناجيل** القانونيّة . وبعضها الآخر ، **كأناجيل مَرقيُون وتوما وفيلِبُّس** ، هو من تأليف الغنوصيِّين الأوّلين (ص ١٢١) ويسوق تعاليم غنوصيّة لا تُقرّها الجماعة المسيحيّة المستقيمة الرأي .

وثمّة أناجيل أُخرى ، كمثل **إنجيل الطفولة** ، لتُوما ، **وقصّة يوسف النجّار** ، **وانتقال مريم** ، **وإنجيل الطفولة** العربيّ ، ركّزت اهتمامها على **قصصٍ** تمُتّ إلى طفولة يسوع ممّا كان له رواج واسع لدى المسيحيّين وساهم كثيرًا في

تغذية تقواهم. والأخير من تلك الأناجيل المذكورة يورد قصصًا عن يسوع ومريم شبيهةً بالتي يوردها القرآن الكريم.

وبالإضافة إلى سِفر **أعمال الرسل** القانونيّ، هناك أسفارٌ أخرى **للأعمال**، **كأعمال بُطرس**، **وبُولس**، **ويُوحنّا**، **وأَنْدراوُس**، **وتوما**، وجميعها أُلِّف على الأرجح في أواخر القرن الثاني. وثمّة رسالتان، الأُولى **رسالة إقْلِيمَنْضُس** والثانية **رسالة بَرْنابا**، فضلاً عن رسالتين نُسِبتا إلى بولس الرسول – غير رسائله القانونيّة –، وهما **الرسالة الثالثة إلى أهل قُورِنْتُس**، **والرسالة إلى أهل اللاذقيّة**. كما أنّ هنالك رؤى غير **رؤيا** يوحنّا القانونيّة.

ومع أنّ بعض تلك الكتب قد يحتوي على خواطر في غاية السموّ، وعلى تعاليم هي بالفعل من تعاليم يسوع الأصيلة، فهي بجملتها غير مقبولةٍ لدى المسيحيّين اليوم، ولا يُدرجونها في عداد أسفار **الكتاب المقدّس** لأنّ المسيحيّين الأوّلين لم يعترفوا بها. فعلى سبيل المثال، عُرِف عن القدّيس هِيرُونِيمُس، وهو من أوائل مترجمي **الكتاب المقدّس** ومفسّريه، أنّه نقل الإنجيل بحسب العبرانيّين من الآراميّة إلى اليونانيّة واللاتينيّة، وفي حين سعى إلى تمييز غثِّه عن سمينه، فإنّه لم يَعدّه قطّ من الأناجيل التي تؤخذ تعاليمها قاعدةً للإيمان المسيحيّ.

وهذه الملاحظات تعود بنا إلى ما انتهينا إليه سابقًا، مِن أنّ معيار الصفة القانونيّة في ما يمتّ إلى الكتب المقدَّسة هو إجماع الجماعة المسيحيّة الأولى. فهؤلاء كانوا أقربَ منّا إلى زمن يسوع وزمن كتابة تلك الأسفار، ممّا خوّلهم أن يقرّروا أيًّا من المؤلَّفات هي قاعدةٌ للإيمان المسيحيّ، وأيًّا منها لا يصلح أن يكون. وتعتقد الأجيال المسيحيّة اللاحقة بأنّ الجماعة الأُولى حظيت بهداية الروح القدس في عمليّة التمييز تلك.

والآن يجدر بنا الإتيان على ذكر المؤلَّف المعروف **بإنجيل برنابا**. فمنذ أن نُقل إلى الإنكليزيّة في القسم الأوّل من القرن العشرين على يد عالِمَين بريطانيّين، لُونسدِيل (Londsdale) ولُورا راك (Laura Ragg)، بات هذا الكتاب موضع جدل شديد ودراسات مستفيضة. وقد حدّد العلماء تاريخ تأليفه

في أواخر القرن السادس عشر، مستندين في قولهم إلى أُسسٍ لغويّة وإشاراتٍ محلّيّة لها علاقة بذٰلك الزمن. وارتأى علماء آخرون أنّه من الممكن أن يكون المؤلِّف قد استعان بوثائق قديمة لا سيّما بمصادر ترقى إلى جماعات اليهود المتنصّرين.

وثمّة اختلافٌ في هويَّة المؤلِّف، إلاّ أنّ قرائن كثيرةً تشير إلى أنّ الكاتب هو الأخ مارِينُو، أحد الإسبانيّين المنتقلين من المسيحيّة إلى الإسلام في القرن السادس عشر، وقد ابتغى تأليف إنجيل يلائم تعاليم دينه الجديد. ومهما يكن من أمر المؤلِّف، فيبدو أنّه كان حديثَ الإسلام، إذ إنّ مضمون كتابه لا يوافق كلَّ الموافقة أيًّا من تعليم الإسلام أو المسيحيَّة.

وقبل طيّ هٰذه الصفحة، لا بدّ من إثارة موضوع أخير. تُرى، هل يناقِض المسيحيّون قول **القرآن** بإنجيل واحد حينما يقولون بأربعة أناجيل؟ لا أظنّ أنّه من الضرورة الوصول إلى هٰذا الاستنتاج. فقد أشرنا سابقًا إلى أنّ مقاطع كثيرة من **الأناجيل** الأربعة تروي الأخبار نفسها، وغالبًا باختلافاتٍ طفيفة بين **إنجيل** وآخر. وجديرٌ بالذكر أنّه منذ القرن الثاني شرع بعض المسيحيّين ينسّقون مقاطع **الأناجيل** الأربعة ضمن روايةٍ واحدة مسهبة كانوا يستعملونها للأغراض الطقسيّة خاصّةً. ومِن أشهر تلك المجاميع التي نَسَّقت بين **الأناجيل**، الكتابُ المعروف **بالدِياطَسَّرون** Diatessaron، أو الرُباعيّ[1]، جمعه طَطْيانُس بينَ عامي ١٥٠ و١٦٠[2]. راجَ الدياطسّرون بينَ المسيحيّين السريان رواجًا عظيمًا، وظلّ، طوال بضعة قرون، النصّ الوحيد الذي عُرفت الأناجيل مِن خلاله ودُرست في مناطق سورية الكبرى. وارتأى بعضهم أنّ **القرآن**، إذ يشير إلى الإنجيل، إنّما يعني ذٰلك النصّ الموحَّد للأناجيل. بيد أن البتّ في هٰذه المسألة ما زال معلّقًا متروكًا لذوي الاختصاص.

---

١. أو بحسب الترجمة الحرفيّة للكلمة اليونانيّة، «من خِلال أربعة» (الناقل).

٢. كان ططيانس أشوريًّا من شمال العراق الحاليّ. وَضَع مصنَّفه باليونانيّة ثمّ نقله إلى السريانيّة؛ وأقدمُ ترجماته التي بين أيدينا اليوم هي الترجمة العربيّة وتُنسب إلى أبي الفرج عبدالله ابن الطيّب من القرن الحادي عشر الميلاديّ (الناقل).

٤. رسائل بُولُس

من جملة كُتب **العهد الجديد** ثلاث عشرة رسالةً تُنسب إلى بولس. وهٰذه الرسائل، من وجهة النظر الزمنيّة، هي أوّل كتابات العهد الجديد. وقد وجّه بولسُ معظمها إلى عددٍ من الكنائس المحلّيّة التي أنشأ معها بعض العلاقات: روما، قُورِنتُس، غَلاطِية، أَفَسُس، فِيلِبّي، قُولُوسّي، تِسّالُونيقي؛ وأَرسل بعضها الآخر إلى أشخاصٍ معيَّنين: طيمُوتاوُس، طِيطُس، فِيلِمُون.

ولمّا كان لبولس أهمّيّة بالغة في تطوّر المسيحيّة حين نشوئها، فمن المفيد ذكر بعض المعلومات عن سيرته. وُلد بولس في طَرسُوس (آسيا الصغرى) في الزمن الممتدّ بين العامين ٥ و ١٥ ب. م.، ممّا يعني أنّه كان أصغر من يسوع بقليل. وكان يهوديّ الملّة، رومانيّ التابعيّة؛ وذهب إلى أورشليم نحو السنة ٣٠ ليدرس الشريعة اليهوديّة.

وممّا أثبته بولس في مقاطع رسائله التي جاء فيها على ذكر سيرته (أطلب خاصّةً **الرسالة إلى أهل غلاطية**، ١١/١ إلى ١٤/٢)، أنّه، لمّا حضر إلى فلسطين، لم يكن من أتباع يسوع، لا بل كان عدوًّا لدودًا للمسيحيّين. وحوالى السنة ٣٤ توجّه إلى دمشق سعيًا إلى إبادة المسيحيّين فيها، وإذ كان على مقربةٍ من المدينة، جرت له خبرةٌ دينيّة مصيريّة (دُوِّن خبرها في سفر **أعمال الرسل**، ١/٩–٣٠ و٢٢/١–٢٢) فأضحى من أتباع المسيح.

وما إن انتمى بولس إلى المسيح حتّى طغت على حياته أزمةٌ شديدة: فلم يعُد إلى أورشليم بل إلى بلاد العرب حيث أمضى سنواتٍ ثلاثًا في العزلة والصلاة، وانتهى إلى أنّ رسالة المسيح ليست موجّهةً إلى اليهود وحدهم بل إلى جميع الناس. فانطلق إذ ذاك مسافرًا يحمل البشارة، وصار أعظم المرسلين بين المسيحيّين الأوائل. وعددُ أسفار بولس أربعة، اتّسمت بطول مدّتها وشمولها، إذ توجّه الرسول في أثنائها إلى مناطق كثيرة من الأمبراطوريّة الرومانيّة. وكان من دأبه أن يؤسِّس، في كلّ مدينةٍ يزورها، جماعاتٍ صغيرةً من المسيحيّين،

ثمّ ينتقل إلى منطقة أُخرى.

واعتادت الجماعات أن تُرسِل إلى بولس مستفسِرةً في شؤون الإيمان، أو ناقلةً إليه التجاوزات الأدبيّة الحاصلة، أو مستوضحةً إيّاه في قضايا تتعلّق بتنظيمها الداخليّ. والرسائل التي أجاب بها بولسُ هي أُولى كتابات العهد الجديد. وكان المسيحيّون، إذا ما اجتمعوا للصلاة، يقرأونها، معتبرينها حجّةً ومرجعًا. وغالبًا ما نسخوا تلك الرسائل وبعثوا بها إلى كنائس محلّيّةٍ أُخرى.

الرسالة الأُولى التي كتبها بولس، ووجّهها إلى المسيحيّين في تِسّالُونيقي، كُتبت حوالى السنة ٥١.

وهناك ١٢ رسالةً أُخرى كتبها بولس إلى جماعاتٍ مسيحيّة أو أفراد في مناطق تُركيا الحديثة واليونان وروما. وبحسب التقليد المسيحيّ، استُشهد بولس في عاصمة الإمبراطوريّة الرومانيّة حوالى سنة ٦٧.

بولس اللاهوتيّ: يَرى المسيحيّون أنّ بولس هو أعظم اللاهوتيّين في العهد الجديد. وقد نستغرب أنّه، على الرغم من عدم ملاقاته المسيحَ طوال حياته، أصبح أهمَّ مفسّرٍ لمعنى حياةِ يسوع وأعماله. ولكنّ استغرابنا يزول إن عرفنا خلفيّات حياة بولس: فإنّه كان رجلاً عالِمًا، درس كُتب اليهود المقدّسة وتضلّع من شريعتهم، في حين كان الحواريّون الاثنا عشر والتلاميذُ الأوائل صيّادين بسطاء. وكان بولس أيضًا من أبناء المدينة، ممّا يعني أنّه كانت له المقدرة على نقل رسالة يسوع بكلام يفهمه سكّان المدن الكبرى في الإمبراطوريّة الرومانيّة. إلاّ أنّ المسيحيّين يعتقدون، شأنهم شأن بولس نفسه، أنّ سعةَ علمِ بولس وعمقَه مردُّهما إلى نعمةٍ خاصّة من لدنه تعالى. فالله سبحانه أعطى الرسل الاثني عشر موهبة الإيمان البسيط الراسخ معًا بشخص يسوع، كما أنّه أعطى بولس موهبة التعليم والتفكير اللاهوتيّ في معنى حياة يسوع.

ولمّا كان نتاجُ بولس كثيرًا، وفكرُه متشعّبًا، فمن الصعب اختصار أهمّ تعاليمه اللاهوتيّة. إلاّ أنّ مقولة أساسيّة من مقولاته هي أنّ المسيحيّين يَخلصون **بنعمة** الله، لا باتّباعهم فروض الشريعة اليهوديّة. فالخلاص هِبَةٌ مجّانيّة من الله يمنحها بملء حرّيّته، ولا يكتسبها البشرُ بأيّ وسيلة. **الإيمان** بالله الذي أقام

يسوع من بين الأموات، هو الشرط الذي لا بدّ منه لنيل النعمة المخلِّصة. وعليه فالمسيحيّون، سواءٌ كانوا من أصل يهوديّ أو غير يهوديّ، غير مقيَّدين بالشريعة الموسويَّة.

ومن تعاليم بولس الأساسيّة أنّ الإنسانيّة، منذ مطلع التاريخ، ابتعدت عن الله بسبب خطايا البشر؛ ومن خلال خضوعِ يسوع التامّ لله وإطاعته الكاملة له تعالى، على ما ظهرا في حياته وآلامه وموته، **تصالحت** البشريّة جمعاء مع الله. هذا ما يدعوه المسيحيّون عقيدة الخلاص أو الفداء؛ ولسوف نعالج الموضوع لاحقًا في الفصل الثالث. والإيمان، بحسب بولس، يفترض الطاعة: فلا نجد قطّ في تعاليمه أنّ أحدًا يمكنه الإيمانُ بيسوع وفي الوقت نفسه العيش على هواه، بل إنّ الحياة المسيحيّة المرتكزة على الأعمال الصالحة هي العلامة التي تعكس الإيمان. إلاّ أنّ بولس يشدّد على أنّ الخلاص لا يكون بصالح الأعمال، بل بنعمةٍ يهبها الله مجّانًا وبكامل حرّيّته.

٥. الرسائل الأُخرى

يتضمّن **العهد الجديد ثلاث رسائل** قصيرة بقلم يوحنّا الرسول، تُبرز، بأجلى ما ورد في الكتاب المقدّس المسيحيّ، طبيعة الله المُحِبَّة. فممّا قاله يوحنّا: «الله محبَّة، ومَن أقام في المحبّة أقام في الله وأقام اللهُ فيه». المحبَّة، محبّة الله ومحبّة القريب، هي ما ينبغي أن تتميّز به حياة المسيحيّ. كتب يوحنّا: «فليحبَّ بعضُنا بعضًا لأنّ المحبَّة من الله، وكلُّ محبٍّ هو مولودٌ لله وعارف بالله. مَن لا يحبّ لم يعرفِ الله، لأنّ الله محبّة».

في شأن **رسالة يعقوب**، يرى بعض العلماء أنّها أقدم أسفار **العهد الجديد**، كتبَها مسيحيٌّ فلسطينيٌّ بين سنة ٣٥ وسنة ٥٠. إلاّ أنّ بعضهم الآخر يظنّ أنّ رسالة يعقوب هذه كُتبت لاحقًا. والواقع أنّه لا يمكن تأريخها بدقّة لأنّها لا تشير إلى أحداثٍ خارجيّة. ومهما يكن فالتقليد ينسبها إلى يعقوب، رئيسِ جماعة اليهود المتنصّرين في أورشليم.

أمّا موضوع رسالة يعقوب فقوامه أمورٌ خُلُقيّة. ويركّز الكاتب، أكثر ما

يركّز، على أنّ الإيمان بدون الأعمال باطل، فلا يستطيع الإنسان أن يكون له إيمانٌ حيّ ما لم يَقُم بأعمالٍ صالحة. ويقول يعقوب للمسيحيّين إنّه لا ينبغي لهم أن يُحابوا الأغنياء، بل عليهم أن يعامِلوا الجميع معاملةً لا تمييز فيها لأحدٍ على سواه. ويشدّد على أنّ القيام «بالواجبات الدينيّة» والعبادات بمعزلٍ عن الاهتمام بالفقراء هو خبثٌ ورياء. ورسالة يعقوب تشبه، في كثيرٍ من الوجوه، كتابات اليهود الخُلُقيّة، ولا يَذكر المؤلِّفُ يسوعَ بشكلٍ صريح إلاّ مرّتين.

كاتب **الرسالة إلى العبرانيّين** غير معروف، ويرى الخبراء أنّه حرَّر كتابه بين عامَي ٨٠ و ٩٠. ولعلّه، بحسب ما يُستشَفّ مِن رسالته، كاهنٌ يهوديّ اعتنق الدين المسيحيّ؛ وهو يركّز على إنسانيَّة يسوع: فيسوع إنسانٌ مثلنا في كلّ شيء، سوى أنّه لم يقترف الخطيئة.

ويسوع، في نظر **الرسالة إلى العبرانيّين**، كاهن «العهد الجديد»، أي التفاهمِ الجديد بين الله والبشريّة، وقد حلّ محلّ التفاهم القديم الذي تمّ على جبل سيناء. **يسوع** يقدِّم إلى الله الذبيحة المثلى، يقدِّمها مرّةً واحدةً نهائيّة. إنّه الوسيط بين الله والبشر، والشفيع لهم أمامه تعالى. وتؤكّد هذه الرسالة من جهةٍ أُخرى على أنّ جميع ركائز الديانة اليهوديّة وطقوسها (الهيكل، الكهنوت، الذبيحة، العهد) قد تمَّت في يسوع.

وهناك ثلاث رسائل صغيرةٍ أُخرى في **العهد الجديد**: اثنتان لبطرس، وواحدة ليهوذا. أمّا **رسالة بطرس الأولى**، فهي ذات شأن لأنّ الكنيسة استعملتها منذ غابر الأيّام لتنشئة أعضائها الجدد على قِيَم الحياة المسيحيّة ومُثُلها. وقد حُرِّرت في زمنٍ خَضَع فيه المسيحيّون للاضطهاد، فأسدت إليهم الكثير من النصائح والتوجيهات ليُحْسنوا التصرّف إبّان الشدائد.

٦. رؤيا يوحنّا (كتاب الكَشْف)

إنّه آخر أسفار **الكتاب المقدّس** وأصعبها فهمًا. كُتِب، شأنه شأن **سفر دانيال** في **العهد القديم**، في شكل **رؤيا** أو **كشف**، متضمِّنًا رموزًا غامضةً صعبةً تعمَّد بها الكاتب صدَّ باب الولوج إلى سرّها في وجه غير المطّلعين.

جرى التقليد المسيحيّ على الاعتقاد بأنّ هٰذا السِفر هو بقلم يوحنّا، تلميذ يسوع، ويعود إلى سنة ٩٤ أو ٩٥. **والرؤيا** شبيهة برسالة بطرس الأولى من حيث إنّها كُتبت في زمن أزمةٍ واضطهاد عانت منها الجماعة المسيحيّة. ويرى الكتابُ أنّ التاريخَ صراعٌ مستمرٌ بين شعب الله مِن جهة، وقوى الشرّ في العالم من جهة ثانية؛ وأنّ شعب الله مزمعٌ أن يتألّم ويشقى، ولكن عليه ألاّ يقطع الأمل لأنّ الله سينتصر في النهاية على الشرّ. وتُختتم **الرؤيا** بمشهد السماء، من خلال صورة المدينة المقدَّسة، أورشليم الجديدة، حيث يتمّ انتصارُ الله الأخيرُ في نهاية الزمان، ويشمل جميعَ بني البشر.

٧. أسفار «العهد الجديد»

آ. **الأناجيل:**
متّى
مرقس
لوقا
يوحنّا

ب. **أعمال الرسل** (بقلم لوقا)

ج. **رسائل بولس**
إلى أهل روما
الأُولى والثانية إلى أهل قُورنتس
إلى أهل غلاطية
إلى أهل أفسس
إلى أهل فيلبّي
إلى أهل قولسّي
الأُولى والثانية إلى أهل تسّالونيقي
الأُولى والثانية إلى طيموتاوس

إلى طيطس

إلى فيلمون

د. **الرسائل الأُخرى**

الرسالة إلى العبرانيّين

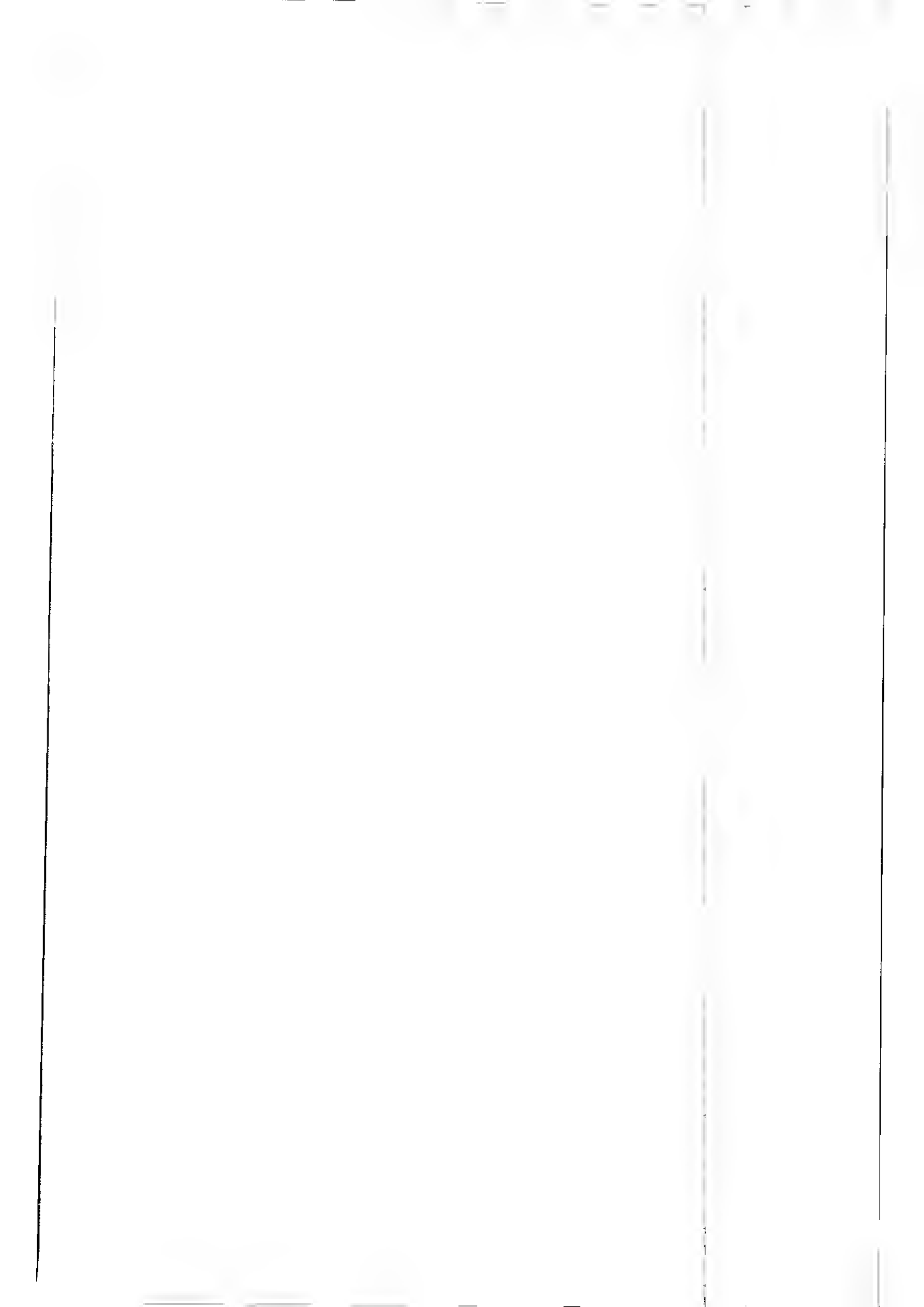
رسالة يعقوب

رسالتا بطرس الأُولى والثانية

رسائل يوحنّا الأُولى والثانية والثالثة

رسالة يهوذا

هـ. **الرؤيا** (الكشف)



العقائد الأساسيّة في الإيمان المسيحيّ

آ – أُسُس الإيمان المسيحيّ

استعرضنا في ما سبق ، وعلى وجه الاختصار ، مضمونَ الكتب المقدّسة المسيحيّة والمفهومَ المسيحيّ للوحي والإلهام في تلك الكتب . وتبيّن لنا من خلال هٰذا العرض بعضُ الفوارق الجوهريّة بين أسس الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة ؛ وتلك الفوارق لا تقوم فقط على اختلاف نظرة كلٍّ من الديانتين إلى النبوّة والوحي والكتاب ، بل تعود في العمق إلى مفاهيمنا المختلفة عندما نتصوّر كيف يتكلّم الله في التاريخ وكيف يعمل فيه.

ففي نظر الإسلام ، أوحى الله رسالته ، رسالةَ الدين الواحد ، من خلال سلسلةٍ من الأنبياء جاؤوا جميعًا برسالةٍ هي في جوهرها واحدة ، فبنى كلٌّ منهم على أساسِ مَن سَبَقه ، إلى أن أرسل الله ، بواسطة محمّد ، الرسالة الأخيرة ، الكاملة ، التامّة : القرآن ؛ وكَوّن شعبًا – أو أمَّةً – يستجيب لتلك الرسالة ويعيش بموجبها . وعليه ، فوحي الله المتجلّي عبر تسلسُل الأنبياء والمتمَّم في تعليم محمّد ورسالته ، يمكن أن يُعتبر أساس الإيمان الإسلاميّ.

والآن سأُحاول فأبيِّن كيف يَفهم المسيحيّون أُسس إيمانهم . وقد سبق أن قلتُ إنّ الديانة المسيحيّة « مؤسَّسةٌ على إيمان الرسل » ، وأعني بالرسل مجموعة تلاميذ يسوع وخاصّةً النواة التي قوامها الرجال الاثنا عشر الذين دعاهم يسوع ليتبعوه ويشاركوه في رسالته . هؤلاء التلاميذ عاشوا مع يسوع ما بين سنةٍ وثلاث سنوات ، وعاينوا أعماله واستمعوا إلى تعليمه ، كما أنّهم كانوا معه لمّا أسلمه

الخائن ، ورُوي أنّ واحدًا منهم على الأقلّ ، هو يوحنّا ، كان عند صليبه لمّا فارق الحياة.

هؤلاء الحواريّون الاثنا عشر وغيرهم من التلاميذ الأُوَل كانوا مقتنعين بأنّ يسوع هو المسيح الذي ينتظره اليهود ، وقد أرسله الله ليخلّصهم. إلاّ أنّ موت يسوع تسبَّب لهم بأزمة ، وخُيِّل إليهم أنّ معلِّمهم لم ينجح في رسالته ؛ فتجمّعوا خوفًا من اليهود وراحوا يتضرّعون إلى الله ملتمسين منه الهداية. وبعد ثلاثة أيّام آمنوا الواحد تلوَ الآخر بأنّ يسوع قام من الأموات ، واختبروا هم أنفسهم هذه القيامة ، فكان أوّلَ المؤمنين جماعاتٌ صغيرة : بعض النسوة ، ثمّ مريم المجدليّة ، فبطرس ويوحنّا ، فاثنان من التلاميذ في طريقهما إلى قريةٍ قريبة من أورشليم ؛ ثمّ توسَّع النطاق ، فآمن عشرةٌ من الرسل ، فأحد عشر منهم ، فجماعةٌ كبيرة بلغ عددها الخمسمائة. وراحت تلك الاختبارات لقيامة المسيح تتكرّر متقطّعةً على مدى أربعين يومًا إلى أن غاب يسوع عن الأنظار غيابًا نهائيًّا.

وانتاب الرسل عند ذاك أزمةٌ أُخرى. وعاد الحواريّون الاثنا عشر ، ومعهم مريم أمّ يسوع ، فاجتمعوا في أورشليم وأخذوا يصلّون بانتظار أن يعرفوا ما يتوجّب عليهم القيامُ به. واستمرّت مدّة الخلوة والصلاة هذه عشرةَ أيّام ، حتّى إذا حلّ عيد اليهود المعروف بالعنصرة ، اختبروا بشدّةٍ على نحوٍ جماعيّ ، عمل روح الله فيهم ، وأحسّوا بأنّ قدرة روح الله حلّت عليهم وملأتهم. وخرجوا إذ ذاك من صمتهم ، وقام بطرس ، زعيم الجماعة ، وشرع يبشّر. ولمّا كانت عظة بطرس في ذلك اليوم توجز الإيمان المسيحيّ في صورته الأُولى ، فإنّي أودّ الاستشهاد بجزءٍ منها ، ممّا ورد في سفر **أعمال الرسل** (٢/١٤ - ٣٦) :

بدأ بطرس فاستشهد بالنبيّ اليهوديّ يوئيل :

« قال الله : سيكُون في الأيّام الأخيرة فيضٌ مِن روحي أُفيضه على الناس أجمعين ، فيتنبّأ بنوهم وبناتهم ويَرى الشبّان رؤًى ويحلم الشيوخ أحلامًا ، وعلى عبيدي وإمائي أُفيض من روحي (...) فمَن ذكر اسم الربّ حينئذٍ يخلص ».

ثمّ دخل بطرس في صُلب موضوعه فأردف قال :

« يا بني إسرائيل ، اسمعوا هٰذا الكلام : إنّ يسوع الناصريّ ، ذاك الرجل الذي أيّده الله لديكم بما أجرى على يده بينكم من المعجزات والأعاجيب والآيات ، كما أنتم تعلمون ، ذاك الرجل الذي أُسلِم بقضاء الله وعلمه السابق فأخذتموه وصلبتموه وقتلتموه بأيدي الكافرين ، قد أقامه الله وأنقذه من أهوال الجحيم ، فما كان ليبقى رهينَها ».

وتابع بطرس واستشهد بقول المزمور حيث جاء أنّ الله لن يسمح بأن ينال فسادُ القبر من عبده القدُّوس. ثمّ قال :

« فيسوع هٰذا قد أقامه الله ، ونحن بأجمعنا شهود على ذٰلك. فلمّا رفعه الله بيمينه إلى السماء ، نال من الآب الروحَ القدس الموعود به فأفاضَه ، وهٰذا هو الذي ترونه وتسمعونه. (...) فليعلَم يقينًا آل إسرائيل أجمع أنّ الله قد جعل يسوع هٰذا الذي صلبتموه سيّدًا ومسيحًا ».

وعليه ، فيمكننا اختصار إيمان الرسل ، كما تكوّن لديهم بعد خبرة العنصرة ، على النحو التالي :

١. لقد جُعلوا جماعةً ،

٢. أُغدِق عليها روحُ الله (روح التنبّؤ) ،

٣. وأُرسِلت لتبشِّر بالإنسان يسوع ،

٤. الذي أقامه الله من بين الأموات وجعله سيّدًا ومسيحًا.

هٰذا هو إيمان الرسل ، شاركَهم فيه مَن راحوا يسيرون في ما دُعي « الطريق ». وفي السنوات التي تلت ذٰلك الحدث ، اعتاد المسيحيّون أن يجتمعوا في بيوت كلٍّ منهم – إذ لم يكن حتّى ذاك الحينَ مِن أبنيةٍ أُفرِدت للكنائس – وثمّة كانوا يصلّون فيتلون المزامير ، ويستعيدون أقوال يسوع وأفعاله ، ويُعيدون إقامة عشاء يسوع الأخير (ويدْعونه « عشاء الربّ » و « الإفْخارِستيّا » – أي الشكران – و « الأغابي » – أي احتفال المحبّة). وكانوا ينتظرون مجيء يسوع ثانيةً ، بمجيئه الأخير للدينونة ، وهي ما سوف يتّسم به اليوم الآخِر.

وأخذوا يَقبلون شيئًا فشيئًا في جماعتهم أعضاءً جددًا ، سائرين بهم ، عبرَ

مراحل التعليم والتنشئة ، إلى الاحتفال بطقس العماد . وكان المسيحيّون الأوائل يعتقدون بأنّ العماد ، حيث يُغطَّس المهتدون في الماء ثمّ يَصعدون منه ، هو السبيل الذي يقود المسيحُ فيه المسيحيَّ الجديد ليختبر موتَه وقيامته ومن ثمَّ ينطلق في حياةٍ جديدة ضمنَ شعب المسيح الخاصّ .

وفي السنوات الأُولى لم يكن للمسيحيّين كتبٌ مقدَّسة سوى كتاب اليهود . ثمّ شرع بولس ، والإنجيليّون الأربعة ، وبطرس ، ويهوذا ، وغيرهم ، يكتبون ، بالتدرّج ، صِيَغ إيمانهم بما حقَّقه الله في المسيح . واعتَبرت الجماعةُ أنّ تلك الكتابات هي قانون إيمانها ومِن وحي الله . ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ خبرة العنصرة تضمَّنت الاعتقاد بأنّ الجماعة نفسها نالت روح النبوَّة – على ما جاء في كلام بطرس لمّا استَشهد بنبوءة يوئيل – ، ومن ثمَّ اعتقد المسيحيّون أنّهم يستطيعون ، بمؤازرة الروح القدس ، أن ينشئوا كتبهم المقدَّسة الخاصّة .

من هٰذا الاستعراض السريع لأُسس الإيمان المسيحيّ نرى أنّ « إيمان الرسل » هو ما يعتبره المسيحيّون اليومَ نواةَ دينهم الثابتةَ وغيرَ القابلة للتبدّل . وذٰلك الإيمان سبق الكتب المقدّسة في الزمن ، لا بل هو الذي أنتج الكتب المسيحيّة المقدّسة وحدَّدها . ولئن حصل ، على مرّ العصور ، الكثيرُ من التغيّرات والتطوّرات في الطرق التي عبّر بها المسيحيّون عن معتقداتهم ، فالجماعة المسيحيّة ، بكنائسها وأفرادها ، « تُحاكِم » نفسها من منطلق إيمان الرسل المدوَّن تدويناً نهائيًّا ولجميع الأزمان في العهد الجديد . ولهٰذا السبب يظلّ الكتاب المقدّس ، في نظر المسيحيّين ، المرجع الأساسيّ في كلِّ نقاش يدور حول شؤون إيمانهم . وإنّي ، في الصفحات المقبلة ، سوف أسعى إلى استعراض أهمّ العقائد التي يجدها المسيحيّون في الكتاب المقدّس ، وكيف طوّرها تقليد الكنيسة .

ب – الله

عقيدةٌ أساسيّةٌ تشاركُ المسيحيّةُ فيها اليهوديّةَ والإسلامَ ، هي عقيدة الإلٰه

الواحد. فالمسيحيّون يؤمنون بأنّه الإله الذي أعلنه إبراهيم الخليل، وإله موسى واليهود، وإله الإسلام. وبعبارة أُخرى، يَعدّ المسيحيّون أنفسهم إحدى الجماعات الثلاث المنتمية إلى إبراهيم والتي تؤمن بإلهٍ واحد أحد، وهذه الجماعات هي اليهود والمسيحيّون والمسلمون.

ويؤمن المسيحيّون بأنّ الله هو **الأزليّ**، **القدير**، **العليم**، **الخالقُ** الكونَ وسائر ما فيه، **المُحيي**، **الرحيم**، **الغفور**، **المتعالي العطوفُ** معًا، **السيّد المطلق**، **ديّان** البشريّة العادل في اليوم الآخِر، القاضي **بالثواب** أو **العقاب** للأبد.

لله **رسالةٌ أزليّة** هي **كلمته** أو **حكمته**، نُطقه أو تعبيره الخاصّ، وهذه الكلمة **غير مخلوقة وغير مختلفة** عنه.

ويدعو المسيحيّون اللهَ «الآب»، وهي عبارة ورثوها عن اليهود، الذين يدعون الله أباهم ويدعون شعبهم ابن الله؛ فقد ورد في أحد مزامير داود على لسان الله مخاطبًا شعبه: «أنت ابني، أنا اليومَ ولدتُك»؛ كما أنّ الله قال في نبوءة هوشع: «دعوتُ ابني (الشعبَ اليهوديّ) من مصر». وقد أَضفى يسوع على الكلمة معنىً حميمًا وصبغةً عائليّةً فعلَّم تلاميذه أن يقولوا: «أَبًا»، وهي عبارةُ تودّدٍ ودالّة كالتي يستعملها الأولاد في العائلة ليناد‌وا والدِيهم البشريّين (وهي أشبه بعبارة Daddy في الإنكليزيّة، أو Papa في الفرنسيّة، أو «بابا» في العربيّة).

ج – التجسُّد

عقيدةٌ أساسيّة ثانية مِن عقائد المسيحيّين هي ما يُقال له **التجسّد**. نؤمن بأنّ رسالة الله الأزليّة وغير المخلوقة **تجسَّدتْ وسكنتْ بيننا** في شخص الإنسان يسوع؛ أو، بعبارةٍ أُخرى، إنّ رسالة الله – أي كلمته – أُوحيَت في يسوع الإنسان. وعليه فإنّ يسوع لا يَنقل كتابًا مُوحًى، بل يجسِّد وحي الله؛ إنّه وحي الله. وفي ذلك اختلافٌ أساسيّ بين المسيحيّة والإسلام.

يؤمن المسيحيّون بأنّ يسوع وُلد، بقوّة الله، من امرأةٍ قدّيسة بتول، هي مريم. ولا يؤمن المسيحيّون قطعًا أنّ الله وَلَدَ يسوع ولادةً جسديّة، أو أنّ الله له ولدٌ على نحو ما للبشر من أولاد، أو على نحو ما اعتقد به قدماءُ اليونان والرومان وعربُ الجاهليّة في شأن آلهتهم. ولا يؤمن المسيحيّون بأنّ مريم كانت زوجة الله أو أنّها تقبّلت أيَّ «زَرْعٍ» إلٰهي. بل يقول المسيحيّون: «إنّما حُبِل بيسوع بقوّة الله (الروح القدس)، ووُلد من مريم العذراء».

والمسيحيّون يُدركون أنّهم إذ يَدْعون الله «أبانا» و«أبا يسوع»، فهم يتكلّمون مَجازًا، منطلقين من خبرة البشر. كتب يوحنّا الإنجيليّ في رسالته الأولى (٧/٤): «كلّ محبٍّ هو مولودٌ لله»؛ فلا يخطر في بال أحدٍ من المسيحيّين أنّ هٰذا النوع من المجاز يشير إلى أيّ إنجابٍ جسديّ، بل الهدف منه الإشارة إلى القُربى والدالّة والاتّحاد والحياة.

وقد علّمتِ المجامعُ الكنسيّة الأُولى أنّ كلمة الله لم تكن حاضرةً في يسوع تعيش فيه كأنّها شيءٌ خارجيّ، بل إنّ يسوع كان شخصًا كاملَ الإنسانيّة من جميع الوجوه – سوى أنّه لم يرتكب خطيئةً واحدة – وفي الوقت نفسه متّحدًا كلّ الاتّحاد بكلام الله. وكان يسوع، شأنه شأن سائر بني البشر، ينمو في المعرفة وإدراك الذات من خلال اختباره الحياة وعلاقاته بالآخرين.

د – يسوع

سأورد هنا مختصرًا وجيزًا لما تُعلِّمه **الأناجيل** عن حياة يسوع ورسالته.

وُلد يسوع في بيتَ لحم، البلدة التي وُلد فيها داود الملك وترعرع قَبْلَه بنحو ألف سنة. كانت سنة الولادة السنة الصِفر على نحو التقريب، أي بداية التقويم المسيحيّ، علمًا أنّه يصعب ضبط السنة الحقيقيّة ضبطًا جازمًا. كانت أمّه مريم بتولاً مخطوبة لرجل نجّار من الناصرةِ اسمه يوسف. ورواية ولادة يسوع مدوَّنةٌ في الفصلَين الأوّلين من كلٍّ مِن إنجيلَيْ لوقا ومتّى.

وفي **الأناجيل** ذِكر «لإخوة يسوع وأخواته». بيد أنّ الكاثوليك

والأرثوذكس يؤمنون بأنّ مريم ظلّت بتولاً طوالَ حياتها ، وبالتالي استحال أن يكون ليسوع إخوةٌ بالمعنى الجسديّ ؛ وإنّهم يفهمون كلام الأناجيل على أنّه يعني «الأنسباء» ، أي أبناء العمّ والخال أو أعضاء عائلَتَي يوسف ومريم بالمفهوم الواسع . أمّا البروتستانت فيميلون إلى تفسير العبارة تفسيرًا حرفيًّا ويقولون بأنّه لئن وُلد يسوع من مريم البتول ، فمن الممكن أنّه ، بعد ولادته ، قد أَنجب يوسف ومريم أولادًا آخرين.

ذَكَر **القرآنُ** الكريم بعض ما أجراه يسوع الطفل من معجزات كإحياء عصافير صَنعها من الطين ، أو التكلّم في المهد. أمّا المسيحيّون فلا يؤكّدون معجزات يسوع الطفل هذه ولا ينفونها ، لأنّها لم ترِد في كتابهم المقدّس. إلاّ أنّ بعض الكتب التقويّة المسيحيّة التي ترقى إلى الأجيال المسيحيّة الأُولى ، تتضمّن أخبارًا شبيهةً لما ورد في القرآن.

ولمّا ناهز يسوع الثلاثين ، ترك بلدته الناصرة وشرَع يبشّر ، وسبقه إلى ذلك نسيبُه يُوحنّا (يحيى) المعمدان . أمّا تعليم يسوع الأساسيّ فذُو شقَّين :

آ) **توبوا** ، أي تُوبوا عن الخطيئة وثوبوا إلى الله.

ب) **إقبلوا ولاية الله على حياتكم** (أي ملكوت الله) . وبالإضافة إلى الوعظ والتعليم أخذ يسوع :

١. يجري **المعجزات ويشفي** المرضى بقوّة الله ،
٢. **يحارب الشياطين** ويطردهم ،
٣. **يغفر الخطايا** باسم الله ،
٤. **يعزّي** المرضى ، والمحزونين ، والفقراء ،
٥. **يعاشر الخطأة** ،
٦. **ينتقد** بقساوةٍ رُؤساءَ اليهود وعلماءَ الشريعة ،
٧. ينبئ **بأزمةٍ عالميّة** عظيمة يكون النصر فيها لله ،
٨. ينشئ **جماعةً من التلاميذ** يعيشون مثله وينقلون تعاليمه إلى الآخرين.

وكانت تلك الجماعة مكوَّنةً من فريق الخاصَّة ، وهم اثنا عشر رجلاً (الرُسُل ، الحواريّون) ، وفريقٍ أوسع هم التلاميذ. وشعَر رؤساءُ الدين اليهوديّ

بأنّ تعليم يسوع يهدّدهم ، فتآمروا عليه ليقتلوه . وخانه يهوذا أحد الرسل فأُسلم إلى السلطات الرومانيّة بتهمة التآمر عليها لإطاحة حُكمها الاستعماريّ. وفي آخر ليلةٍ من حياته ، تناول العشاء مع رسله وناولهم الخبز ليأكلوه على أنّه جسده ، والخمر ليشربوه على أنّه دمه « الذي يهراق من أجلهم ومن أجل جميع الناس » . وبعد العشاء الأخير قَبضت السلطة الرومانيّة على يسوع وأحالته على القضاء وحكمت عليه بالإعدام . وتعلِّمنا **الأناجيل** أنّ يسوع صُلب ومات على الصليب وقُبر .

وبعد ثلاثة أيّام أقامه الله من الموت . وظهر يسوع لتلاميذه عدَّة مرّات ثمّ رُفع إلى السماء . وفي زمن العَنْصَرَة (أطلب ص ٥٢) حلّ الروح القدس على التلاميذ فكوَّن منهم جماعةً تحمل رسالة يسوع وتعمل عمله على مرّ العصور .

هـ - ألقاب يسوع

ثمّة في العهد الجديد ألقابٌ عديدةٌ لُقّب بها يسوع ، يصف كلٌّ منها وجهًا من أوجُه رسالته .

١. ابن الله

يدعو المسيحيُّون يسوعَ « ابنَ الله » . بهٰذه التسمية نُشير إلى إيماننا بأنّ الله أدخل يسوع في علاقةٍ معه حميمةٍ فريدة ، وأنّ رسالة الله الأزليّة وغير المخلوقة سكنت في يسوع . ولقبُ « ابن الله » يُشير إلى معرفةٍ متبادلة جميمة (يسوع يَعرف الآب) ، وإلى وحدةٍ في الإرادة (يسوع لا يعمل إلاّ مشيئة الآب) .

وكذٰلك يشير لقب « ابن الله » إلى أنّ المسيحيّين الأوائل رأوا في يسوع « إسرائيل الجديد » ، أي تحقيق سائر الآمال المشِيحيَّة التي راودت الشعب اليهوديّ . وكما أنّ الشعب اليهوديّ دُعي « ابن الله » ، أي شعبَ الله المختارَ المحبوب ، فيسوع أيضًا ، « إسرائيلُ الجديد » ، يدعوه الذين يؤمنون به « ابنَ

الله». وقد سبق أن قلنا إنّ هٰذا اللقب لا يعني، في عرف المسيحيّين، أنّ الله وَلَدَ يسوع وِلادةً جسديّة.

٢. ابن الإنسان

هٰذا اللقب هو أكثر الألقاب التي يستعملها يسوع في الأناجيل للدلالة على نفسه. رأينا سابقًا (ص ٢٩) أنّ سِفر دانيال يذكر ابن الإنسان فيبرزه شخصيّةً تأتي من السماء قبل أزمة اليوم الآخِر ويوليه الله القضاءَ والمُلك. هٰكذا عبّر التيّار الرؤيوي عن آمال اليهود المشيحيّة، والمسيحيّون يؤمنون بأنّ يسوع حقّق تلك الآمال.

٣. الربّ

يدعى يسوع «الربّ» أو السيّد. وهٰذا اللقب منوطٌ بمن أُعطيَ القدرةَ والسلطان، على نحو ما يَعتقد المسيحيّون بأنّ يسوع نالها من الله لمّا أقامه تعالى من بين الأموات. ويشير هٰذا اللقب أيضًا إلى اعتقاد المسيحيِّين بأنّ يسوع هو الوسيط الوحيد بين الله والبشر؛ كما أنّه يدلّ على اعتقادهم بأنّ يسوع سوف يعود في اليوم الآخِر عندما يجلس عن يمين الله ليدين البشريّة. وإحدى الدعوات التي غالبًا ما تلفَّظ بها المسيحيّون الأوائل المنتظرون عودة المسيح، كانت: «مَرانا تا!» ومعناها: «تعالَ أيّها الربّ» يسوع.

٤. المسيح

كاد هٰذا اللقب أن يصبح اسم يسوع الثاني. و«المسيح» يعني «الممسوح بالزيت» وهو المخلِّص الذي وَعَد به الأنبياءُ الشعبَ اليهوديّ. ولقد آمن هٰذا الشعب بأنّ المسيح سيأتي من ذرّيّة داود، ولذا بدأ متّى ولوقا **إنجيليهما** بعرض نَسَب يسوع، حيث يَظهر أنّه متحدِّر من داود الملك. وولادته في بيت لحم، مدينة داود، كانت للمسيحيّين الأوّلين علامةً أُخرى تبيّنوا منها أنّ يسوع هو المسيح المنتظَر.

إلاّ أنّ هٰذا اللقب كان مدعاةً للالتباس، وروت **الأناجيل** أنّ يسوع كان يمانع في أن يطلَق عليه. ذٰلك بأن المسيح كان، في اعتقاد الكثير من اليهود، زعيمًا عسكريًّا يحرّرهم من ربقة الحكّام المشركين (وكانوا في زمن يسوع الرومان) ويقيم مملكةً أرضيَّة. ولم يكن ذٰلك مفهوم يسوع لرسالته، فإنّه، إبّان محاكمته، قال لبيلاطُس الحاكم الرومانيّ: «أجل، أنا ملك، لٰكنّ مملكتي ليست من هٰذا العالم».

ومع أنّ يسوع لم يُطلِق على نفسه، في أثناء حياته، لقب «المسيح» – للسبب الذي ذكرناه –، إلاّ أنّه بعد القيامة كان المسيحيّون الأوائل مقتنعين بأنّه هو المسيح الموعود به، بحيث راحوا يدعونه في كثيرٍ من الأحيان «مسيحًا» (دون أداة التعريف)، جاعلين من اللقب مرادفًا للاسم المعطى عند الولادة، يسوع.

٥. كلمة الله

يؤمن المسيحيّون، استنادًا إلى **إنجيل** يوحنّا خاصّةً، بأنّ يسوع إنسانٌ تحيا فيه كلمة الله: هٰذه الرسالة الأزليّة التي بها خَلق اللهُ الحكيمُ كلَّ شيء، «نَصبت خيمتها» بين البشر، متجسِّدةً في يسوع الإنسان. بيسوع عاشت الرسالةُ الأزليّة في إنسانٍ يعمل لتحصيل لقمة العيش، ويأكل ويشرب، له الأصدقاء والأقارب، يتألّم ويموت على نحو ما يفعل بنو آدم، سوى أنّ يسوع لم يرتكب أيّ خطيئة.

٦. عبدُ الله

اعتبرَ يسوع أنّ رسالته جعلت منه عبد الله الأمينَ الذي تكلّم عليه أشعيا النبيّ (أهمّ «أناشيد عبدِ الله» في سفر **أشعيا** وردت في المقاطع الآتية: أشعيا ٤٢/١ – ٩؛ ٤٩/١ – ١٧؛ ٥٠/٤ – ١١؛ ٥٢/١٣ – ١٥؛ و٥٣/١ – ١٢). وعبدُ الله الوضيعُ هٰذا لا يسير في طريق العنف والانتصارات العسكريّة بل يحيا حياة الطاعة الأمينة فيأخذ على عاتقه، هو البريء، ثقل

خطايا الشعب ويخلّصهم بفضل ما يتكبّده من آلآم. وهو إلى ذٰلك ينشر العدل في الأرض ويحمل البشرى إلى الفقراء. لسانه «حادّ قاطع» للتنديد بالمعاصي، إلاّ أنّه لا يقاوم شاتميه والمسيئين إليه. **والأناجيل** جميعًا رأت في آلام يسوع وموته تحقيقًا لما ذكرته نبوءة أشعيا عن آلام عبد الله.

٧. ألقابٌ أخرى

ثمّة ألقابٌ أخرى ليسوع وردت في أسفار **العهد الجديد**. فهو يُدعى **المخلِّص**، أي الذي يؤتي اللهُ خلاصَ البشر على يده. ويُدعى في الأناجيل **النبيّ**، أي ذاك الذي حمل إلى الإنسانيّة رسالة الله، مندّدًا بالرؤساء الدينيّين إذا ما زاغوا، وبجميع الذين يعسِّفون المساكين. وفي **الرسالة إلى العبرانيّين** يُعتبر يسوع **كاهنَ** العهد الجديد بين الله والبشر، الذي يقدِّم إلى الله الذبيحة الكاملة مرَّةً واحدةً نهائيّة. ويُدعى أيضًا **الراعي الصالح**، مرشد الخراف وحاميها. كما يُدعى في إنجيل يوحنّا **الطريق والحقّ والحياة**، أي إنّه الطريق الذي يؤدّي إلى الله ويأتي بالحقيقة ويجسّدها فيقود الناس إلى الحياة الحقّ، الحياة الأبديّة. وفي رسالتَي بولس إلى أهل قولوسّي وأفَسُس، يُعتبَر يسوع **صورة الإلٰه غير المنظور**: فطبيعتنا البشريّة المحدودة لا تسمح لأحدٍ منّا بأن يرى الله سبحانه وتعالى، إلاّ أنّنا نستطيع الوصول إلى معرفة بعض صفاته وكمالاته من خلال ما يتجلّى منها، تجلّيًا بشريًّا، في يسوع.

و – الثالوث (الوحدانيّة المسيحيّة)

ذكرنا في أعلاه أنّ عقيدةً أساسيّةً من عقائد المسيحيّة هي أنّنا «نؤمن بإلٰهٍ واحد». وإنّه لمن الأهمّيّة البالغة أن ندرك مكانة وحدانيّة الله عزّ وجلّ في المسيحيّة، إذ إنّ كلّ تفسير لطبيعة الله المثلَّثة يُنكِر وحدانيَّتها، لا يمكن اعتباره تفسيرًا صحيحًا للإيمان المسيحيّ. قال بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس: «قد يكون في السماء أو في الأرض كثيرٌ من «الآلهة» وكثير من

الأرباب، **وأمّا عندنا نحن فليس إلاّ إلهٌ واحدٌ** وهو الآب» (٨/٥-٦).
وبعبارةٍ أُخرى، عندما يتكلّم المسيحيّون على الثالوث، فإنّما هم يحاولون التعبير عن وحدانيّة الله.

١. تثليث الآلهة

وُجد في تاريخ المسيحيّة بعض الأفراد والجماعات من أصحاب النظريّات التي تنكر الوحدانيّة في الله وتقول بثلاثة آلهة. فجميع تلك النظريّات حرّمتها الكنائس المسيحيّة وعدّتها منافيةً للتعليم المسيحيّ الصحيح. من ذٰلك أنّه قام في القرن السادس المدعوّ يوحنّا فِيلُوبُونُس وبعض أنصارٍ له قالوا إنّ في الله طبائعَ ثلاثًا مختلفةً في الجوهر؛ فحرمتهم الكنيسة. وفي العصر الوسيط أُدين أيضًا الفيلسوفان رُوسْكِلِينُس وجِيلْبِير ده لا پُورِّيه لاعتقادهما بأنّ هناك ثلاثة آلهة، وكان جواب الكنيسة عليهما ما جاء في المجمع اللاتِرانيّ الرابع، المنعقد سنة ١٢١٥، من أنّ الوحدانيّة في الله هي عقيدةٌ لا جدال فيها من عقائد الإيمان المسيحيّ.

ومع ذٰلك فقد يبدو، على المستوى الشعبيّ، من خلال بعض تعابير المسيحيّين وممارساتهم، أنّ ثمّة مَيلاً إلى تثليث الآلهة عمليًّا. إلاّ أنّ تلك التعابير والممارسات لم تنل قطّ رضى الرؤساء والعلماء في الدين المسيحيّ، لا بل إنّهم شجبوها قطعًا وأعلنوا ضلالها وبطلانها.

٢. العهد الجديد والثالوث

لم يَرِدْ قطّ في **الكتاب المقدّس** كلمة «ثالوث». وأوّل استعمال معروف لها في تاريخ المسيحيّة هو على لسان ثاوفِيلُس الأنطاكيّ، عامَ ١٨٠. بيد أنّ أُسُس مفهوم الثالوث ملموسةٌ في **العهد الجديد** وقد أفصحت عنها صيغةُ منح العماد الواردة في **إنجيل متّى**: «عمِّدوهم باسم الآب، والابن، والروح القدس».

وفي الرسائل، غالبًا ما يكون السلام الذي يتبادله المسيحيّون سلامًا

«ثالوثيًّا». وهنا مثال على ذٰلك: «من بطرس، رسول يسوع المسيح، إلى المختارين بسابق علم الله الآب وتقديس الروح، ليطيعوا يسوع المسيح ويُنضَحوا بدمه، عليكم أوفر النعمة والسلام» (١ بطرس، ١/١-٢).

وإذا ما أشار **العهد الجديد** إلى الله، فإنّه يستعمل الكلمة اليونانيّة «هو ثِيُوس» (ومعناها الحرفيّ: الله). وهٰذه الكلمة تدلّ على الله الأزليّ، الخالق، المحيي، السيّد القدير. و«هو ثِيُوس» تشير دومًا إلى إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إلٰه موسى والأنبياء. وفي **الكتاب المقدّس** لا يُدعى يسوع ولا الروح القدس «هُو ثيوس».

ولقد دأب مؤلّفو الكُتب المقدَّسة على تسمية الله: «الآبَ»، وهي عبارة ورثوها عن اليهوديّة. وسبق أن أشرنا إلى أنّ يسوع علَّم تلاميذه أن يصلّوا قائلين «أبانا الذي في السماوات» وأضفى على هٰذه العبارة طابع الدالّة العائليّة، دالّة الابن الذي يدعو والده «بابا». وقال يسوع أيضًا إنّه يرجع إلى «أبي وأبيكم وإلٰهي وإلٰهكم».

إلاّ أنّ أسفار **العهد الجديد** تؤكّد العلاقة الخاصّة القائمة بين يسوع والله الآب. فيوحنّا، على ما رأينا، يقول إنّ كلمة الله الأزليّة اتّخذت جسدًا وسكنت بيننا في شخص يسوع. ويلجأ بولس إلى كلام مماثل: «الله كان في المسيح»، و«لقد **ظهر** لطفُ الله مخلّصنا ومحبَّته للبشر في يسوع» (طِيطُس ٤/٣). وفي إنجيل يوحنّا يقول يسوع: «أنا والآب واحد»؛ ومعنى ذٰلك أنّ الوحدة بينهما هي **وحدةٌ فريدة** لا مثيل لها، **وحدة حبٍّ وثيق**، **وإرادة**، **وعمل**: يسوع يعمل، على أكمل وجه، مشيئة الآب، وكلّ ما يعرفه أو يعلّمه «قد أعطانيه الآب». ويضيف يسوع: «إنّ الآب أعظم منّي».

وإنّنا لنجد ما يساعدنا على إدراك مضمون العلاقة بين يسوع والله، في الرجوع إلى مفهومَي **الحلول والاتّحاد** المذكورين في كتابات الصوفيّين. ومع أنّ أغلبيّة المسلمين لا تقبل هٰذين المفهومين بين العناصر الأساسيّة التي يتكوّن منها التقليد الإسلاميّ، فإنّ المؤلّفين العرب المسيحيّين قد ركنوا إلى تَيْنك العبارتين لوصف العلاقة بين يسوع والآب. وبسبب هٰذه العلاقة الخاصة، دُعي يسوع

«ابن الله» ، ولا يُفهم البتّةَ من ذلك أنّه وُلد ولادةً جسديّة ، لا بل إنّ مجرَّد التفكير بأنّ الله سبحانه أنجب ولدًا ، لمِمَّا تكرهه المسيحيّة على نحو ما يكرهه الإسلام. قال ج. ماك كِنْزِي ، أحد كبار مفسِّري **الكتاب المقدّس** : «إنّما لَقَبُ «ابن الله» تعبير أَعلنت به الكنيسة الأُولى إيمانَها بأنّ يسوع له شخصيّة فريدة مميَّزة لا مثيل لها على الإطلاق». ويؤمن المسيحيّون أنّه ، بسبب تلك العلاقة الخاصّة ، يتمّ الاتّصال بين الله تعالى والبشريّة من خلال يسوع. فيسوع هو عبد الله ورسوله ، وقد أعطاه الله المعرفة والسلطان ليدين البشر ويعطي الحياة. إنّه الوسيط الوحيد بين الله تعالى والناس ، وأعماله ذات مفعولٍ خلاصيّ خاصّ.

وغالبًا ما يشير **العهد الجديد** إلى الروح القدس على أنّه «روح الله». ومفهومُ المسيحيّة للروح القدس يختلف عنه في الإسلام : فالتقليد المسيحيّ والكتب المقدّسة المسيحيّة لا تقول بأنّ الروح القُدس هو الملاك جبرائيل ، ولا تقول إنّ الروح هو خليقةٌ من خلائق الله تختلف عنه ، بل تُقرّ بأنّه الله نفسه ، وبأنّه يحيا في قلوب البشر والعالم المخلوق ويعمل فيها ، أي أنّه وجود الله القادر الفعّال في العالم ، ويسوع حُبل به بقوّة الروح القدس ، وقادة الروح إلى البرِّيّة قُبيل انطلاقه للتبشير ؛ كما أنّ **الأناجيل** تُظهر الروح حالًّا على يسوع في صورة حمامةٍ ساعةَ اعتمد في نهر الأردنّ. والروح يُرشد الجماعة المسيحيّة ويعلّمها ، كما أنّه يكشف عن أسرار الله ويُلهم محرِّري الكتب المقدّسة. ويُدعى في أسفار **العهد الجديد** : المعزّي ، روح الحكمة والإيمان ، روح الشجاعة والمحبّة والفرح.

٣. الإله الثالوث الواحد في تاريخ المسيحيّة

لئن لا يأتي **العهد الجديد** على استعمال كلمة «الثالوث» ، إلاّ أنّه يتكلّم على الله فيدعوه «الآب» ، وعلى رسالة الله المتجسّدة في يسوع ، وعلى حضور الله القادر الفعّال فيدعوه «الروح». وتعاقبت أجيال المسيحيّين تتأمّل في تعاليم الكتاب ، فلجأت إلى تعابيرَ ومقولاتٍ خاصّة لتزداد فهمًا لما ورد في الأسفار المقدّسة.

وعلى مرّ العصور وطوال تاريخ الكنيسة، رأى المسيحيّون أنّ طبيعة الله الثالوثيّة هي سرّ، وعليه لا يمكن التكلّم عليها بأيّ تعبير بشريّ. ومع أنّ الكتّاب والمتصوّفين والمتكلّمين المسيحيّين حاولوا الاستعانة بمعطيات **العهد الجديد** للوصول إلى إدراك بعض ما يمتّ إلى طبيعة الله، إلاّ أنّهم اعترفوا جميعًا بأنّ جهودهم، مهما عَظُمت، ستظلّ مقصّرة.

ولقد لجأ المفكّرون المسيحيّون، على مرّ الأجيال، إلى المفاهيم والنُظم الفلسفيّة السائدة في أيّامهم، للتعبير عن سرّ الله الثالوث... وأَقرَّ الباباوات والمجامع الكنسيّة أنّ بعض صِيَغ التعبير مغلوطة، ولكنّهم لم يَقْصُروا صِيَغ التعبير الأخرى على ما حدَّدوه.

ولمّا كان المسيحيّون يؤمنون بأنّ الروح القدس لا ينفكّ يُرشد الكنيسة، فإنّنا نقول مؤمنين بأنّ تفهُّمنا سرَّ الثالوث سيظلّ ينمو ويتطوّر بفضل مساهمة الباباوات والمجامع والمفكّرين والمتصوّفين. وقد أقرّت المجامع الكنسيّة الأُولى، التي انعقدت في نِيقِيا وأَفسس وخَلْقِيدُونِيَة والقسطنطينيّة، أنّ الله واحد في ثلاثة أَقانيم. و«أقانيم» جمع كلمة «أقنوم»، وهي يونانية الأصل ويمكن تعريبها بعبارة «طريقة للوجود». وعليه فالأقانيم الثلاثة في الله هي ثلاث طرق أو ثلاث حالات لوجود الله وعمله.

وقد عبّر الكتّاب العرب المسيحيّون عن الأصل اليونانيّ بكلمة **أقنوم** كما رأينا وبكلمة **صفة** (ميزة، مظهر). أمّا ترجمة الكلمة إلى اللاتينيّة فكانت بعبارة *persona* ومعناها «القناع» أو «طريقة الوجود». أمّا اليوم فكلمة persona لم تعد تعني طريقةً للوجود والعمل، بل تشير إلى الشخص أي الفرد المتميّز الذي له عقله وإرادته ومسؤوليّته الخاصّة. وهكذا فعندما يتكلّم المسيحيّون اليوم على إله واحد في ثلاثة persona يُخشى أن يُفهم خطأً أنّ المسيحيّين يؤمنون بإله واحد مكوّن من ثلاثة أفراد، أو ثلاثة «أشخاص»، أي ممّا يشبه مجموعة ثلاثة. وهذا ليس بالتعليم المسيحيّ الصحيح ولم تُرِدْه المجامع الكنسيّة الأُولى بوجهٍ من الوجوه. ولم يتكلّم الكتّاب المسيحيّون الأوائل قطعًا عن الثالوث كأنّه «إله واحد في ثلاثة **أشخاص**».

٤. التعبير الفلسفيّ عن الثالوث

نعبّر عن مفهومنا للطبيعة الواحدة في الله الثالوث على النحو الآتي: نؤمن بإله واحد تقوم طبيعته على ثلاث **صفات**. والإله الواحد يوحي بنفسه على أنّه الخالق القدير وسيّد الحياة، ويدعوه المسيحيّون «الآب» أو «أبانا»؛ وهو الذي أوحى إلينا برسالته – أو بكلمته – الأزليّة في الإنسان يسوع؛ كما أنّه الوجود الفعّال المحيي في الخليقة (وهذا الوجود هو، في اعتقاد المسيحيّين، «الروح القدس»).

ويؤمن المسيحيّون – كما يؤمن المسلمون – بأنّ أسماء الله وصفاته متعدّدة. بيد أنّ المسيحيّين يَعتقدون بأنّ، مِن بين صفات الله هذه التي لا حصر لها، ثمّة ثلاث هي **أزليّةٌ** مثله تعالى، **وملازمةٌ** لطبيعته، **وضروريّة**. وهذه الصفات هي الآتية:

- طبيعة الله الذاتيّة المتعالية (الآب)؛
- كلمة الله التي تجسّدت في الإنسان يسوع؛
- وجود الله الفعّال المحيي في الخليقة.

هذه الصفات أزليّة لأنّه لا تبدُّلٌ جوهريّ في الله، وطبيعته هي هي دائمًا أبدًا. وهذه الصفات ملازمةٌ لطبيعته تعالى، لا صفاتٌ خارجيّة مضافة إليه ولا ظواهرُ نعتبر نحن البشر أنّها في الله. وهي ضروريّة لأنّ ما من واحدةٍ من تلك الصفات الثلاث يمكن إنكارُها أو نزعُها عن الله لأنّها جميعًا من جوهر طبيعته، وهذا ما أوحاه الله عن نفسه في **الكتاب المقدّس**.

٥. تصميم الله الخلاصيّ

لله تعالى تصميمٌ يسعى من خلاله إلى خلاص الإنسان، وهو يحقّقه فعلاً في تاريخ البشريّة. إلاّ أنّ التاريخ مليء بالأحداث المادّيّة المتقلّبة والأناس الخطأة. فكيف يَدخل الإلهُ الأزليّ، المنزّه المتعالي، الإلهُ القدّوس («الآخَر»

بكلّيّته)، هٰذا العالَم الملموس المتبدِّل ليخلِّص الناس؟ هل يبقى الله بعيدًا عن شؤون البشر ويُدلي برسالته من بعيد، أم يلتزم التزامًا شخصيًّا في الوضع البشريّ؟

الجواب المسيحيّ هو أنّ لله طريقتين يحقّق بهما الخلاص في إطار تاريخ البشريّة. الطريقة الأُولى هي تَجسُّد رسالته تجسّدًا شاملاً كاملاً في إنسانٍ يوحي بالله في سائر ما يقول ويفعل. ومن خلال انتصار يسوع على الألم والموت بفعل قدرة الله الخلاصيَّة، تشاهد الإنسانيّةُ تحقيقَ وعودِ الله في ما يعمله وسوف يعمله لصالح كلٍّ منّا. وبواسطة يسوع ينشئُ الله جماعةً تستمرّ في تأدية الشهادة لخلاص الله هٰذا.

أمّا الطريقة الثانية التي يلجأ إليها سبحانَه وتعالى، فهي وجوده القادر الفعّال في الكون وفي كل رجلٍ وامرأة. هٰذه الفعّاليّة لا تقتصر على المسيحيّين، بل تشمل جميع البشر فردًا فردًا من جميع الملل، فتعلّمهم وتهديهم وتخلّصهم. وهٰذا ما يدعوه المسيحيّون الفعل الشامل لروح الله. لذا لا يعتقدون بأنّ الخلاص يقتصر عليهم دون سواهم، بل هو متوفّر لجميع الذين يستجيبون لدعوة الله وهو يخاطب كلَّ إنسان ويعمل في قلب كلّ امرئٍ وامرأة.

٦. لقاء المسيحيّ والإلٰه الواحد الثالوث

الثالوث في نظر المسيحيّين ليس معادلةً حسابيّة أو مفهومًا فلسفيًّا، بل هو أساس خبرتنا الدينيّة الشخصيّة. فعندما نلتقي الله، جلَّ جلالُه، في الصلاة والعبادة، في مطالعة **الكتاب المقدّس** والتأمّل فيه، أو في متطلّبات الحياة المسيحيّة اليوميّة، إنّما نختبر الله فاعلاً في حالات وجوده الثلاث. ذٰلك بأنّ الله، في معتقد المسيحيّين،

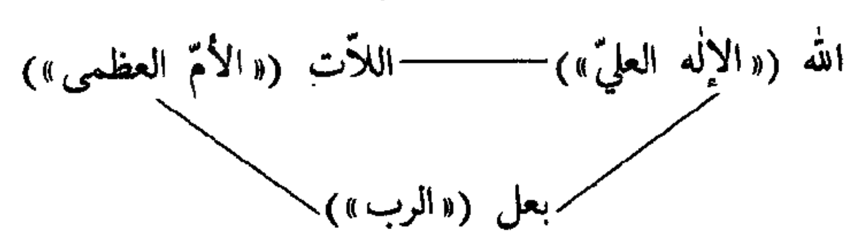
هو الآب المتعالي (الذي برأنا، والذي إليه نتوجّه في عبادتنا وصلواتنا، والذي نجتهد في أن نحيا بحسب إرادته)؛

هو من يكلّمنا فيعلن عن نفسه بواسطة يسوع (يسوع الذي نريد أن نتشبّه به، وبه نتصالح مع الآب)؛
هو الحيّ والفاعل فينا روحًا قُدُسًا حالًّا في أعماقنا.

٧. الاعتقاد بالثالوث عند مسيحيّي الجزيرة العربيّة

كان المسيحيّون قبل ظهور الإسلام منتشرين بكثرة في أطراف الجزيرة العربيّة (البادية السوريّة، سيناء، اليمن، ما بين النهرين)، إلاّ أنّهم كانوا قلّةً في الحجاز. ولمّا كانت مكّة معقل الوثنيّة في أيّام الجاهليّة، فقد وقفت عقبةً دون انتشار المسيحيّة هناك، والمسيحيّون القلائل الذين عُرفوا في الحجاز لم يكونوا متجذّرين في دينهم أو متبحّرين في تعاليمه. ولا غرو، إذ لم يكن ثمّة معاهد يتلقّى فيها المسيحيّون مبادئ دينهم، كما أنّ الأسفار المقدّسة لم تكن قد تُرجمت إلى العربيّة.

ذكر العلاّمة تريمينْكهام Trimingham في كتابه: **المسيحيّة في الجزيرة العربيّة قبل زمن محمّد*** ، «الثالوث الساميّ التقليديّ». ومع أنّ القبائل العربيّة لم تطلق على تلك الآلهة الوثنيّة الأسماء نفسها، إلاّ أنّ الهيكليّة الأساسيّة لعلاقة بعضها ببعضها الآخر كانت على النحو التالي:



ويبدو أنّ ذلك المفهوم الوثنيّ للثالوث راقَ بعضَ العرب الحديثي الاهتداء إلى المسيحيّة، الجاهلين مبادئ ديانتهم. فخلطوا بين الله الإله العليّ والآب، وبين مريم والأمّ العظمى، وبين المسيح والربّ المولود في الجسد من الله ومريم. وهذا لعمري تحريفٌ لمعتقد المسيحيّين الحقيقيّ، وقد شجبه رؤساؤهم وكبار

* *Christianity in Arabia before the time of Muhammad*

متكلّميهم. والقرآن الكريم أيضًا يستنكر هٰذا المعتقد لحطّه من طبيعة الله عزّ وجلّ، فيوافق في ذٰلك ما طالما أنكره المسيحيّون من أنّ الله أنجب ولدًا، أو أنّ مريم ويسوع إلٰهان إلى جانب إلٰه ثالث هو الله، أو أنّ الله ليس سوى واحدٍ من بين ثلاثة آلهة.

وهنا أُشير إلى أمر يلفت انتباهي أنا المسيحيّ عندما أطالع **القرآن** الكريم: فإنّي لا أجد فيه أيّ ذكرٍ لما تعلّمه الكنائسُ المستقيمة الرأي عن طبيعة الله المثلّث الأقانيم. وهٰذا ما لا نستغربه، إذ إنّ **القرآن** شجب معتقدًا بدائيًّا لأناس مشركين عاشوا في الحجاز آنذاك واعتنقوا بعضًا من الديانة المسيحيّة فشوّهوه. وهٰذا المعتقد ترفضه الكنائس المسيحيّة على نحو ما يرفضه **القرآن** الكريم. وإنّي، بإثارتي هٰذا الموضوع، لا أبتغي الجدال، بل التشديد على أن المسيحيّين اليوم، وجميع المسيحيّين الواقفين على حقيقة دينهم بالأمس، لا يعتقدون بما يستنكره **القرآن**. ولا بدّ من الحوار المتواصل الدؤوب بين المسلمين والمسيحيّين ليتجاوزوا أمورًا غالبًا ما وقفتْ في الماضي عقبةً دون تفاهمهم على الوجه المرتجى. ولست أدّعي بذٰلك أنّ المسيحيّين والمسلمين ينظرون إلى الله النظرة نفسها، ولا أنّ كلا الفريقين يعبّر عن الأمور نفسها بكلمات مختلفة. فممّا لا شكّ فيه أنّ بين الديانتين اختلافات أكيدة، والحوار الصادق وحدَه قمينٌ بأن يساعدنا على التمييز بين الاختلافات الحقيقيّة وتلك التي هي ظاهرةٌ وحسب.

ز - مريم

لم يدُرْ في خلد أيّ من المسيحيّين وفي أيّ زمنٍ من الأزمان أنّ مريم هي زوجة الله! إنّما نحن نعدّها خليقةً بشريّة، امرأةً بتولاً مقدّسة. ولأنّها أمّ يسوع، نعتبرها أمًّا. ونؤمن بأنّها لم تقترف خطيئة قطّ، وذٰلك بنعمةٍ خاصّة منه تعالى. والكثير من المسيحيّين، لا سيّما المنتمين إلى الكنائس الأُرثوذكسيّة والكاثوليكيّة، يؤمّون مزاراتها ويرفعون صورها في كنائسهم، لا لعبادتها - إذ

المسيحيّون لا يعبدون إلاّ الله سبحانه – بل بسبب محبّتهم لها ورغبةً في تكريمها. والمسيحيّون يتوسّلون إلى مريم أن تضرع إلى الله معهم ومن أجلهم.

ونؤمن أنّ مريم حبلت بيسوع وهي عذراء، وذلك بقدرة الله القدير، كما نؤمن أنّه، ساعةَ الحبَل، «تجسَّدت» فيها كلمة الله الأزليّة. لذا يدعوها الكثير من المسيحيّين «أمَّ الله»، ولا يفعلون ذلك إلاّ تكريمًا لها، لأنّهم يعلمون جميعًا يقينَ العلم أنّ الله سبحانه وتعالى لا أمَّ له ولم يَلدِ قَطّ ولادةً جسديّة.

ح – الفداء

عقيدة الفداء عند المسيحيّين تفترض قضيّةً أساسيّة أُخرى، أوسعَ قاعدةً، يعبَّر عنها بالسؤال التالي: هل يشعر الإنسان بضرورة الخلاص؟ وفي حال الإيجاب، كيف يتمّ هذا الخلاص وعلى يد مَن؟ فجميع الناس، المتديّنين منهم وغير المتديّنين، عندما ينظرون إلى حياتهم الشخصيّة وإلى مجتمعاتهم، يجدونها نسيجًا من التناقضات والآلام، لا تحقيق فيها للذات ولا اكتمال. ويكون الموقف من هذه المعاناة البشريّة مختلفًا باختلاف المعتقدات:

الفلسفات الوجوديّة الحديثة متشائمة، تقول بأنّ وجود الإنسان لا معنى له إطلاقًا وسيظلّ بلا معنى لا مَحال، وحقيقة الإنسان التي لا زغل فيها هي الاعتراف الصريح بهذا الواقع. وعليه فلا خلاص ممكنًا.

أمّا الإيديولوجيّات الماركسيّة، فجوابها يختلف كلّ الاختلاف. وهي تقرّ بأنّ آلام الإنسان وعدم تحقيق ذاته هي نتيجة البُنى والنظم الاجتماعيّة القاهرة، فيمكن الإنسان أن يخلّص ذاته بتبديل النظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ وجعلِه أكثر عدالةً وإنسانيّة.

وفي نظر الإنسانيّين العلمانيّين، لا حاجة لطرح مسألة الخلاص: حَسْبُ كلِّ واحدٍ أن يعيش بموجب القيم الإنسانيّة وأن يحاول إذ ذاك تحسين العالم. وعليه فما كان الخلاص حلًّا.

تجاه تلك النظرات والايديولوجيّات ، يقف كلٌّ من الإسلام والمسيحيّة موقفًا شبيهًا بموقف الآخَر. فكلتا الديانتين تقرّ بأنّ الإنسان يحتاج إلى الخلاص ، وبأنّه لا يستطيع تحقيق خلاصه ، بل الله وحدَه هو القادر على ذٰلك.

يقول الإسلام بأنّ الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء يَهدون إلى الخلاص ، وهو ، جلَّت عظمته ، يؤيِّد المؤمنين بفيضٍ من نعمته ورحمته ، وهو شفوق يغفر للخاطئين التائبين. ومن ثمّ ، فغالبًا ما يطرح المسلمون السؤال الآتي : ما دام الله قديرًا رحيمًا معًا ، لِـمَ يؤمن المسيحيّون بأنّ الله لجأ إلى موت يسوع على الصليب لتحقيق خلاص البشر؟ يبدو أنّ تلك الوسيلة لا داعي لها ما دام الله يستطيع ، لا بل يريد ، مسامحةَ أيِّ خاطئٍ يتوب إليه توبةً نصوحًا. وبعبارةٍ أُخرى ، لِـمَ لا يَحلّ غفرانُ الله للبشريّة في كلّ زمان وكلّ مكان «مِن علُ»؟ لِـمَ يعتقد المسيحيّون بأنّ الله حقّق تحرير الإنسان من الخطيئة بوساطة حدَثٍ تاريخيّ معيَّن هو موت يسوع؟

وبعض أجوبة المسيحيِّين التقليديّة عن هٰذه الأسئلة غيرُ مقنع. نظريّةٌ أُولى ، ترقى إلى أوريجانيس (أُطلب الصفحة ١٢٢) في القرن الثالث الميلاديّ ، تقول بأنّ الشيطان كان مسيطرًا بعض السيطرة على الإنسان بسبب خطيئة آدم الأصليّة ، وقد هُزم عندما حاول أن يمدّ سلطان الموت على البريء من كلّ خطيئة ، المسيح. إلاّ أنّ المسيحيّين اليومَ لا يقبلون بتلك النظريّة اللاهوتيّة.

وفي العصر الوسيط أطلق القدّيس أَنْسِلم نظريّـةً عُرفت بنظريّة «التعويض». وقوامها أنّ خطورة الإهانات تُقاس بمقام الشخص المُهان : في ما يخصّ خطيئة البشر ، لا بدّ لهٰذه الإهانة ، التي تمسّ الله اللامتناهي في العظمة ، من أن يُعوَّض عنها التعويض المناسب : ولا يكفي لهٰذا التعويض سوى موت ابن الله نفسه.

إلاّ أنّ المتكلّمين المسيحيّين المعاصرين يرفضون نظريّة «التعويض» تلك ، لأنّها تشوِّه مفهوم صلاح الله وعدله إذ تفرض أنّه تعالى يتطلّب دمَ

المسيح ، البريء من كلّ خطيئة ، للتعويض عن ذنوب سواه بطريقةٍ بشعة قوامها التعذيب والموت الأحمر. ما من إنسان يقبل بهذا الأسلوب الظالم المتوحّش ، فكيف بنا نقبل بأن يُنسَب إلى الله؟

الجواب السليم هو التالي :

أوّلاً ، يمكن القول إنّ يسوع لم يبتغِ الموت ، والله لم يُرد أن يموت يسوع على الصليب. ما أراده يسوع للبشر هو أن يقبلوا رسالته ، ويتوبوا عن خطاياهم ، ويتمّموا مشيئة الله. أضف إلى ذلك أنّ الله جلّ قدسه لا يريد الخطيئة إطلاقًا ، فلا يمكنه بالتالي أن يبتغي جمّ الخطايا التي واكبت خيانة يهوذا ليسوع ، ونبْذَ رؤساء اليهود للمسيح ، وخداعهم إيّاه واضطهادَه وتسليمه إلى السلطات الرومانيّة ، وحُكم تلك السلطات عليه حكمًا جائرًا.

ثانيًا ، لم يكن من الأمور الضروريّة المحتّمة أن يجسّد الله رسالتَه في الإنسان يسوع ، ولا أن ينتج عن موت يسوع على الصليب خلاصُ البشريّة. فالله مطلَقُ الحرّيّة لا تلزِمه أحداث التاريخ ولا التاريخ نفسه ، وكان باستطاعته أن يتصرَّف على غير ما فَعل. لذا يؤمن المسيحيّون أنّ الله اختار بملء حرّيّته أن يحقِّق خلاصَ البشر بوساطة يسوع.

فهل أظهر الله بذلك أنّه يتمّم قدرته الخلاصيّة من خلال وسطاء من البَشر؟ يقيني أنّ كلاًّ من المسيحيّة والإسلام يتمسّك بهذا الاعتقاد. فالله يستعمل الأنبياء رسلاً يحملون كلمته. إلاّ أنّ الأنبياء ليسوا أناسًا يحملون رسالةً وحسْب : فمِن خلال إبراهيم أنشأ الله شعبًا يؤمن به تعالى ويعمل بمشيئته. ومن خلال موسى أخرج الله شعبه من أرض مصر. ويعتقد المسلمون بأنّ الله أعطى في شخص رسوله محمّد مثالاً للمسلم الحقّ ، فلم يكتفِ بأنْ يحمل القرآن الكريم إلى البشر ، بل عاش بموجب تعاليم الرسالة التي حملها بحيث أصبحت أقواله وأعماله «سنّةً» لجماعة المسلمين.

والمسيحيّون كذلك يؤمنون بأنّ الله سبحانه لم يكتفِ بأن جسَّد كلمته في يسوع ، بل أراد أن تكون لأفعال يسوع قدرةٌ خلاصيّة خاصّة. فقد بدأ المسيح مبشّرًا عاديًّا يحثّ الناس على التوبة عن خطاياهم والرضوخ لسلطان الله. ثمّ

صنع المعجزات بقوّة الله، وقارع الأبالسة وطردهم، ودافع عن الذين أرهقتْهم تعقيدات القوانين التي فرضها رؤساء الدين، وندَّد بالذين أفسدوا الدين وحوّلوه إلى تجارة رابحة، فطرد الصيارفة من الهيكل بعد أن جلدهم بسوطٍ اصطنعه من الحبال، وراح يجادل ربابنة اليهود وعلماءهم مُرَّ الجدال.

وفي أثناء قيامه برسالته، أيقن أنّ الطريق الذي سلكه قادَه إلى موقف صِدامٍ بينه وبين ما في البشريَّة من «أنانيّة» وأثَرة وشهوة للتملّك وتوق إلى السلطة. وقد سجّلت **الأناجيل** عدّة محاولات للقضاء على يسوع، إحداها دبّرها أهل بلدته الناصرة، وأُخرى حاكها في أوقات مختلفة رؤساءُ اليهود في أورشليم. وبات واضحًا ليسوع، لا سيّما في أثناء زيارته الأخيرة لعاصمة اليهوديّة، أنّه لن ينجو بحياته من قبضة مبغضيه، وراح جميعُ رسله يحذّرونه من مغبّة الذهاب إلى أورشليم بسبب ما شاع من خبر المؤامرات عليه. وقد عرف يسوع أنّ تلك الأخبار لم تكن أقاويل فحسب، وأكّد على ذٰلك ساعةَ العشاء الأخير إذ قال لتلاميذه: «لن أشربَ بعد اليوم من عصير الكرمة هٰذا حتّى ذٰلك اليوم الذي فيه أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي».

لا يؤمن المسيحيّون بأنّ يسوع كان عنده «عقدة الاستشهاد»، فهو لم يُرد أن يتألّم ويموت. وإثباتًا لذٰلك ورد في **الرسالة إلى العبرانيّين**: «في أيّام حياته البشريّة رفع الدعاء والابتهال بصراخٍ شديد ودموعٍ ذَوارِف إلى الذي بوسعه أن يخلِّصَه من الموت، فاستُجيب لتقواه» (٥/٧). وبعد العشاء الأخير خرج يسوع إلى بستانٍ ليصلّي فابتهل إلى الله قال: «يا أبتاه، إنّك على كلّ شيءٍ قدير، فاصرِف عنّي هٰذه الكأس (كأس الآلام). ولٰكن لا ما أنا أشاء، بل ما أنت تشاء».

ومع أنّ يسوع لم يبتغِ الآلام والموت، فإنّه تقبّلها بملء حرّيّته نتيجةً للرسالة التي التزمها فأخذ على عاتقه أن يُعلن كلمة الله دون مصانعة أو تمييع أو تهرُّب. وكان لا يزال في البستان يصلّي عندما ألقى الجندُ الرومان القبضَ عليه ثم أحالوه على القضاء وحكموا عليه بالموت وصلبوه. وذكرت **الأناجيل** أنّ الوالي الرومانيّ، بيلاطس، عرض عليه «مَخرجًا»، مؤكِّدًا له أنّه إن هو تراجع أو

ليّن موقفه وتعاليمه، فلسوف يُطلق سراحه. ولكنّ يسوع رفض، لا لأنه أراد الموت، بل لأنّه كان ملتزمًا رسالتَه كلّ الالتزام، مقتنعًا بأنّها واجبٌ تلقّاه من الله. فالسؤال الذي يطرحه المسيحيّون إذًا ليس: لماذا **كان** على المسيح أن يموت، أو لماذا **أراده** الله أن يموت، بل - وعلمًا أنّ الواقع كان نهايةَ مهمّةِ يسوع النبويّة نهايةً مأساويّة - ماذا حقّق الله لنا بموت يسوع، وماذا يعلّمنا من خلاله. وثمّة ثلاثة أوجه ينطلق منها المسيحيّون لفهم موت يسوع، وجميعها يعبّر عن كيفيّة شعورهم بالحاجة إلى الخلاص.

١. التحرير من الخطيئة والموت

يَشعر الناس بقوى تطغى عليهم من الخارج وتأسرهم وتمنعهم من الوصول إلى السعادة الحقّ. ويقول بولس الرسول إنّنا حُرِّرنا من سلطان الخطيئة والموت، ومن قوى الشياطين. ولست أُشير بذلك إلى الخطيئة الشخصيّة بقدر ما أعني تلك المواقف والنُظم المدمِّرة التي تفوق الأفراد وتدفعنا إلى القيام بأعمال تخالف مشيئة الله تعالى. وقوى الشرّ تلك تختلف باختلاف الثقافات واختلاف العصور، ولكنّها حاضرةٌ أبدًا على وجهٍ من الوجوه. فيمكن في بعض الأحيان أن تكون الخوفُ من قوى الطبيعة التي تضرب مَن ينتهك المحرَّمات. وفي المجتمعات المعلمَنة المصنَّعة يمكن أن تكون المادّيّة المفرطة والاستهلاك المتكالب، وكلاهما يدَّعي أنّ البشر سوف يسعدون إن هم حصلوا على الرفاهية وعاشوا في وسط الملذّات. وفي أماكن أُخرى يمكن أن تكون مفهوم الشرف العائليّ أو العصبيّة العرقيّة، ممّا يُعمي بصائر الناس فيدفعهم إلى القيام بأمورٍ مريعة لا يقومون بها في ظروفٍ أُخرى لعلمهم أنّها منكرَة. وبعض المجتمعات تنوّه بالشباب، والجمال، والغنى، والقوّة أو النجاح، وتقول بأنّها عوامل تحمل السعادةَ الحقّ، وبئس القول لأغلبيّة الناس إذ هم في الواقع بعيدون عن الشباب والجمال والغنى والقوّة.

لا شكّ أنّ مثل هذه الأمور تطغى على الناس وتُرهقهم وتتسبّب لهم بالتعاسة. ويقول **الكتاب المقدّس** إنّ هذه المواقف المجتمعيّة هي «خطيئة

العالَم» ، خطيئةٌ لا أحد مسؤول عنها بمفرده ولكنّها تؤثّر في حياة الجميع ، ويدعوها علماء اللاهوت المسيحيّون الخطيئةَ «الأصليّة» ، فيعنون بذلك أنّ البيئة الخاطئة أثّرت في الحياة البشريّة منذ بدايات الإنسان.

ولكن هنالك ما هو أعظم ، فالموت بانتظارنا جميعًا . وهل سينتهي كلّ شيء بالتلاشي والعدم؟ وكلّ مَن عانى وتألّم من فقدان حبيبٍ له ، يواجه ما يبدو أنّه الخسارة واللامعقول . فما الذي يعطي كلَّ ذلك معناه؟

مفهوم المسيحيّين لموت يسوع هو أنّه **تحريرُهم** من قوى الخطيئة والموت . فقد عاش المسيح بيننا عيشة الأبرياء البرَرة ، يبشّر بالمحبّة ويؤيّد بشارته بخدمته الفقراء والمرضى ، ويدعو الناس إلى الحقيقة وطاعة الله تعالى . ولمّا أعرض الناس عن تعاليمه ورفضوها ، لم يتهرَّب من الموت ولم يقاوم أعداءه بمثل ما واجهوه به من سلاح العنف والخبث ، بل هتف وهو على خشبة الصليب : «يا أبتاه ، إغفر لهم لأنّهم لا يعلَمون ما يفعلون» .

وموته على الصليب كان مؤلمًا على أشدّ ما يكون الألم ، رهيبًا لا يُطاق ، موتًا شائنًا يعاقَب به العبيد والمجرمون . وتخلّى عنه أغلبيّة أتباعه ، بما فيهم أقرب تلاميذه إليه . مات في ريعان الشباب وله من العمر نحو ثلاثين سنة ، سخروا منه ، وقف مستضعَفًا أمام أعدائه ، شُوِّهَت ملامح وجهه وأُثخِنَ جِراحًا ، ممّا يُوحي ظاهِرًا أنّه أخفق في المهمَّة التي أخذها على عاتقه وأنّه اختصر في شخصه كلَّ ما لا تَقبل به حكمةُ هذا العالم.

ومع ذلك فالمسيحيّون يؤمنون بأنّ الله أقام هذا الإنسان يسوع من الأموات ، وبالقيامة هذه **ثبَّت** رسالة يسوع ، ثبّت كلَّ ما علَّمه والطريقةَ التي عاش بها . يَرى المسيحيّون في قيامة يسوع من الموت وعبورِه إلى حياةٍ جديدة ، **انتصارًا** على الخطيئة والموت . وقد انتصر يسوع على الخطيئة لا بمقاتلة أعدائه واستعمال ما استعملوه من أساليب بشريّة ، بل باتّكاله على الله وخضوعه وطاعته له حتّى الموت على الصليب . أمّا أعداؤه فقد ظنّوا أنّهم حلُّوا مشكلتَه بالقضاء عليه صلبًا ، ولكنّهم كانوا مخطئين متوهِّمين ، إذ إنّ الله أقامه منتصرًا على قوى الخطيئة .

كذٰلك فإنّ يسوع انتصر على الموت بقيامته. وفي نظر المسيحيّين، قيامةُ يسوع هي الدليل على أنّ الله جلّت قدرتُه يستطيع أن يُخرج الحياة من أشنع أنواع الموت، وأن يُحدث النجاحَ من الإخفاق مهما بدا ذريعًا، وأن يحوِّل أفظع ضروب الألم إلى فرح وسعادة. بقيامة يسوع من الأموات، يُظهر اللهُ عزَّ وجلَّ أنّ الموت، وإنْ يكن عدوَّنا حتّى النهاية، فلا سلطان له علينا في النهاية. ومن هٰذا المنطلق قال بولس الرسول في رسالته الأُولى إلى أهل قورنتس: «يا موت، أين غلَبَتُك؟ أين شوكتُك؟» (١٥/٥٤).

كلّ من يدخل إلى كنيسة أو مدرسة مسيحيّة أو بيت مسيحيّ، يرى فيها دومًا على أحد الجدران صليبًا عُلِّق عليه جسد يسوع. فالصليب أصبح لدى المسيحيّين رمزًا أساسيًّا لإيمانهم. وغالبًا ما ذَكر لي بعضُ أصدقائي المسلمين أنّ ذٰلك أشبه بانجذابٍ مَرَضيّ نحو الموت. أمّا الواقع فخلاف ذٰلك، وما الصليب إلاّ تذكير مستمرّ بأنّ الله انتصر على الخطيئة وتغلّب على الموت وسائر قوى الشرّ التي تقيّد الإنسانيّة وتقهرها.

ورُبّ معترضٍ يقول إنّ هٰذا الاعتقاد غير واقعيّ. فلا يخفى على أحد أنّنا نعيش في عالم يكثر فيه الموت والخطيئة على نحوٍ مؤسف، والظلم والعنف والبغض والشراسة جميعها متأصّلة، والناس ما زالوا يموتون. ولكنّ كُتب العهد الجديد تعلّمنا أنّ الله تغلّب على تلك القوى بفعل موت يسوع وبيّن لنا كيف نَحُول دون سيطرة الخطيئة والموت على حياتنا. إلاّ أنّ النصر النهائيّ لم يأتِ بعد، وعليه فالمسيحيّون يعيشون ويعملون في الدنيا وهم واثقون بقدرة الله، منتظرون ساعةَ يكتمل انتصارُ الله ويسطع في الخليقة جمعاء.

٢. التكفير عن الخطيئة

عواقب الخطيئة لا تبقى خارج طبيعة الإنسان. لقد ورد في زبور داود النبيّ أدعيةٌ متكرّرة إلى الله تقول: «إغسلني من إثمي»، والناس يشعرون أنّهم ملوَّثون ملطَّخون بفعل انغماسهم في بشريّةٍ خاطئة. وفي أغلبيّة الديانات يرمز غسل الجسد إلى اعترافنا بوصمة الخطيئة وعَدْواها، وبحاجتنا إلى قوّة الله

المطهِّرة ونعمته. ففي اليهوديّة والإسلام هناك التوضّؤ قبل الصلاة، وفي المسيحيّة أوّلُ «الأسرار» التي تَمنح قوّة الله هو العماد (أطلب الصفحة ٨١) وهو يتمّ عن طريق الغسل بالماء. جميعنا ندرك أنّنا وُصمنا بالخطيئة وأنّنا بحاجة إلى أن تُمحى ذنوبنا.

الوجه الثاني الذي عليه يَفهم المسيحيّون موتَ يسوع، هو «التكفير» عن الخطيئة. فعلى صعيد الشخص الفرد يتّفق المسيحيّون والمسلمون على أنّه إذا استسلم أحد الأشخاص إلى الخطيئة، تنقطع علاقته بالله، وإذا تاب يسامحه الله ويمحي ذنبَه الشخصيّ أو «الذاتيّ».

إلاّ أنّه يبقى بعد ذلك فظاعةُ الإساءة الموضوعيّة التي تُلحقها الخطيئة بصلاح الله عزّ وجلّ، وبخليقته، وبالنظام الخُلُقيّ. فهذا الأمر يتعدّى الخاطئَ بمفرده ويَنقل عدواه إلى العنصر البشريّ بأجمعه، وهو أساس شعورنا بعدم الطهارة وبحاجتنا إلى أن تُعاد إلينا تلك الطهارة. وتجاهُلُ الضرر الذي يصيب النظام الخُلُقي مِن جرّاء الخطيئة للتركيز على الذنب الشخصيّ فقط، هو في نظر المسيحيّين «استرخاص» ما يمنحه الله من غفران ويكاد يكون استخفافًا بالشرّ.

وكما أنّ جميع الناس يشاركون في الخلل «الموضوعيّ» الناتج عن الخطيئة، فممثّلٌ واحدٌ للبشريّة يمكنه أن يكفِّر عن هذا الخطأ. والمسيحيّون يؤمنون بأنّ يسوع حقّق التكفير عن ذلك الخلل مرّةً واحدةً لجميع الأزمان، وأنّه، باستسلامه الكامل وطاعته التامّة، هَدَم الحاجز الذي رفعته الخطيئة بين الله اللامتناهي في الصلاح والإنسان المتمرِّد. وعَمَلُ الهدم والتكفير هذا لا أحد يستطيع القيام به سوى واحد هو نفسه بلا خطيئة ومتّحدٌ كاملَ الاتّحاد بالحكمة الإلهيّة.

حَدَث في بعض الأحيان أنّ عددًا من الوعّاظ المسيحيّين رأوا في عمل التكفير الذي قام به يسوع شفاءً لغليل إلهٍ غاضبٍ أراد موتَ مختاره. هذه النظريّة تشويهٌ للمفهوم المسيحيّ للتكفير ولا أساس لها في تعليم **العهد الجديد**، وهي تجعل من الله سبحانه وحشًا يتصرّف بروح الانتقام والشراسة. أمّا ما تعلّمه

المسيحيّة فهو أنّ يسوع قَبِل آلامه وموته بملء حرّيّته ليمثّل الجنس البشريّ فيكفّر عن سائر الخطايا التي اقتُرِفت فأهانت الله عزّ وجلّ.

يقول المسيحيّون في بعض الأحيان إنّ موت يسوع هو ذبيحة. فماذا كانت ذبائح اليهود في العهد القديم؟ لم يكن الهدف منها إرضاءَ إلهٍ غَضوب أو رشوةَ الله لدفعه إلى القيام بما لم يكن ليقوم به لولا ذلك التدخّل. فهذا المفهوم للذبيحة هو مفهوم وثنيّ. أمّا في **الكتاب المقدّس** فالمبادرة هي من عند الله لا من عند الإنسان، والله هو الذي يحدِّد الشعائر التي تُمكّن الإنسانَ من أن يتّحد به تعالى، والتي توفّر للناس فُرصًا تسهّل العيشَ والموت في طاعته.

كان كهنة اليهود، لدى قيامهم بالذبائح، يَرشُّون دم الذبيحة على المذبح – وهو يرمز إلى الله – وعلى الشعب. وفي ذلك إشارة إلى أنّ الذبيحة وحدةُ حياةٍ بين الله تعالى وشعبه، وهي سواءٌ **والعهد**، إذ بها وبه يُصبح اللهُ إلهَهم ويُصبحون هم شعبَه.

ويَرى المسيحيّون في موت يسوع إقامةَ **العهد الجديد** بين الله والبشريّة جمعاء، لا بينه تعالى وبين الشعب اليهوديّ وحده. ففي أثناء «العشاء الأخير»، قال يسوع: «خذوا واشربوا، هذا هو دمي، دم العهد الجديد، الذي يُهراق عنكم وعن الجميع لمغفرة الخطايا». والحياة الجديدة الناتجة عن ذلك هي حياة لم يعُد فيها مجال لتكون الخطيئةُ الموضوعيّة عائقًا، فالجنس البشريّ بأجمعه تصالح، بواسطة ممثِّله، مع الله عزّ وجلّ.

٣. الحبّ المحوِّل

وبذلك نصل إلى المنطلق الثالث الذي يَفهم المسيحيّون من خلاله موتَ يسوع. إنّه منطلق قوّة الحبّ الذي يستطيع أن يؤثّر في قلوب البشر ويبدِّلها ويحوِّل حياة الإنسان. قال يسوع في **إنجيل يوحنّا**: «ما من حبّ أعظمَ مِن حبّ مَن يبذل حياته في سبيل أصدقائه» (١٥/١٣). فِعلُ محبّة يسوع له القدرة على تغييرنا لأنّ صاحبه بريء بارّ لهُ علاقة بالله فريدة مميَّزة.

ذكرنا سابقًا أنّ الإنسان يشعر بضرورة الفداء لا لمجرَّد التخلّص من قوى

خارجةٍ عنه تضغط عليه، ولا لمجرَّد التحرّر من الشعور بالعدوى التي تصيبه من جرّاء انتمائه إلى البشريّة الخاطئة، بل لأنّ نزواته الكامنة فيه تقوده إلى التمرّد على الله، وإلى إيذاء نفسه والآخرين. إنّها الناحية الذاتيّة في الخطيئة. فإذا تُركنا دون مُعين، استسلمنا إلى ما فينا من جشع وكبرياء وغضب وشهوة وحسد وكسل، فقوّضنا أسس حياتنا وحياة سوانا.

وعندما نتوب بعد خطيئتنا، يسامحنا الله الرحيم، إلاّ أنّنا نظلّ بحاجة إلى قدرة الله لتحوّلنا إلى ما يَعرف اللهُ أنّه بالإمكان أن نكون، وإلى ما يريد اللهُ أن نكون. والمسيحيّون يجدون في المسيح المثالَ والإلهام والنعمة للاقتداء به والتحوّل على يده. ويمكن القول إنّ مثال الحبّ المجرَّد عن الذات الذي أظهره يسوع، هو خير مثال تركه يسوع لتلاميذه. فقد أَلهم أُلوفًا مؤلَّفةً من الرجال والنساء ليرقَوا إلى أسمى درجات السخاء والمسامحة، وجمٌّ غفير من المسيحيّين استناروا بكلام يسوع ليلة «العشاء الأخير» وساروا بموجبه: «إذا كنتُ أنا الربَّ والمعلِّم قد غسلتُ أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضًا أن يغسِل بعضُكم أقدام بعض. فقد جعلتُ لكم من نفسي قدوة» (يوحنا ١٣/١٥).

ولٰكن غالبًا ما يشير المسلمون إلى أنّ الملاحظات السابقة هي من جميل الأقوال، غير أنّه من الصعب وجودُ تطبيقٍ عمليّ لها في حياة المسيحيّين. فلا يبدو أنّ هٰؤلاء أشدّ سخاءً أو محبّةً من سواهم، أو أميل إلى الخدمة والمسامحة. وتاريخ المسيحيّين عينه شريطٌ من الحروب والانتقامات والطموحات، والجشع، وعدم التسامح، والسيطرة والاستعمار. المسيحيّون اخترعوا محاكم التفتيش وقاموا بمذابح الحملات الصليبيّة. ولقد تمّ في أوروبّا المسيحيّة القضاءُ على الملايين من اليهود والنَوَر وسواهم.

كلّ ذٰلك صحيح والاتّهامات الموجَّهة إلى الجماعة المسيحيّة خطيرة، ولا مبرّر لتلك الأعمال. إلاّ أنّها أعمال مسيحيّين لم يعرفوا تعاليم يسوع أو رفضوا اتّباعها والاقتداء بصاحبها. ومَن أراد أن يرى بوضوح تأثير فعل محبّة يسوع، عليه أن ينظر إلى المسيحيّين الذين أتاحوا لنعمة يسوع وحبّه المحوِّل أن يُرشدا سلوكهم ويَهديا تصرّفاتهم. ولقد سجّل التاريخ إلى جانب حروب المسيحيّين

ومواقفهم غير المرضية ، أعمال أفرادٍ وجماعات كان دافِعَهم ودافِعَها إلى الحبّ والخدمة والغفران مثالُ يسوع. ويَتبادر هنا إلى الذاكرة المسيحيّون الأوائل الذين آثروا الموت على اللحاق بالجيوش الرومانيّة ، والوالدون المسيحيّون الذين يعلّمون أبناءهم أنّ اتّباع يسوع يعني الحبّ ومسامحة الآخرين ، والراهباتُ اللواتي يكرِّسن حياتهنّ لتعليم الناشئة والعناية بالمرضى ، والأفرادُ مِن أمثال فرنسيس الأسّيزيّ (أطلب الصفحة ١٣٨) الذي انطلق ، في خضمّ الحروب الصليبيّة ، رسولَ سلام إلى سلطان مصر. من خلال أمثال هؤلاء المسيحيّين ، وهم أيضًا جزء من واقع المسيحيّة ، يمكن ملاحظة مفاعيل الحبّ المحوِّل في عمليّة الفداء.

ط - الكنيسة والأسرار

أستعملُ هنا كلمة «الكنيسة» بمعناها الأوّل والأساسيّ ، وهو **جماعة** المسيحيّين ، لا بالمعنيَين الآخرَين المشتقّين لاحقًا ، وهما **البناء** حيث تُقام شعائر العبادة ، **والأُطُر التنظيميّة** التي تطوّرت على مرّ الأيّام. وعليه فكلمة «كنيسة» هنا توازي كلمة «الأمّة» عند المسلمين ، لا كلمة «المسجد».

أمّا **السرّ** فيعني حدثًا منظورًا حسّيًّا يَهَبُه الله في نعمته وخلاصه. وبعبارة أُخرى السرّ علامة منظورة لعمل غير منظور يقوم به الله تعالى.

يعتقد المسيحيّون بأنّ الكنيسةَ ، جماعةَ المسيحيّين ، هي في العالم علامةٌ لِما حقّقه الله وما زال يحقّقه في سبيل الإنسانيّة بواسطة الإنسان يسوع. وعَمَلُ الله لتحقيق **المصالحة** (مصالحة الإنسان مع الله ومع ذاته ومع الآخرين) ، ولتحقيق **التقديس** (تقديس الإنسان ، ممّا يعني أن يعيش في طاعة الله سبحانه ومحبّته) ، يسري مفعوله في الكنيسة المسيحيّة وخارجها أيضًا (وهذا يعني أنّ الله عزّ وجلّ يعمل في جماعة المسلمين). والكنيسة وُجِدت لتشهد لما يفعله الله في تاريخ البشر من حيث المصالحة والتقديس ، وللطريقة التي حقّق بها سبحانه وتعالى خلاص الإنسانيّة.

يؤمن المسيحيّون بأنّ المسيح القائم من الأموات يحيا في جماعته ومعها، وأنّه ما زال يفعل الأمور التي كان يفعلها مدَّة حياته في بلاد فلسطين مِن تعليم، وصلاة، وخدمات، وشفاء المرضى، وإطعام الجياع، ومسامحة الخطأة، وتكبُّد الآلام والموت. تلك الأعمال غير المنظورة التي قام بها المسيح تصبح منظورة في الحياة التي تحياها الكنيسة بالأسرار، أو بعبارة أُخرى، عندما يشترك المسيحيّ في أحد الأسرار، فإنّه يؤمن إذ ذاك بأنّه يلتقي المسيح الذي قام من الموت ومنحه نعمة الله المخلّص.

جميع المسيحيّين تقريبًا يتّفقون على أنّ السرَّين الأساسيَّين هما **العماد والإفخارستيّا**. وبالإضافة إلى هٰذين السرّين الأساسيَّين، يعتقد المسيحيّون الأرثوذُكس والكاثوليك بخمسة أسرار أُخرى، فيكون مجموع الأسرار **سبعة**. أمّا البروتستانت فهم على اختلاف في شأن عدد الأسرار، على الرغم من أنّ السواد الأعظم منهم يقبل السرَّين الأوّلَين، العماد والافخارستيّا. وثمّة كنائس بروتستانتيّة قليلة، من أمثال «الكويكرز» و«جيش الخلاص»، لا أسرار عندها.

١. العِماد

أوّلُ الأسرار وأساسُها الذي لا بدَّ منه، هو سرّ العماد. إنّه **الدخول** في الجماعة المسيحيّة، وبه يأخذ الفردُ على عاتقه رسالةَ الكنيسة عبر الأجيال، أَلا وهي الشهادة لأعمال الله الخلاصيّة في يسوع. ويؤمن المسيحيّ بأنّ العماد هو الوسيلة التي بها يمنحه الله سائر المفاعيل الناتجة عن حياة يسوع وموته. والمسيحيّ لا يُعمَّد إلاّ مرَّةً واحدة، عندما يدخل في الجماعة المسيحيّة.

أمّا كيفيّة منح العماد فهي مرتبطة دومًا بنوعٍ من الغَطْس في الماء. فمن عادة بعض الكنائس سَكْبُ الماء على رأس من يَطلب العماد، ومن عادة بعضها الآخر أن يغطِّس المعتمِدُ في حوض من الماء ثمّ يُخرج منه. وفي عددٍ من الكنائس يتمّ العماد باللجوء إلى المياه في وسط الطبيعة، أي إلى الأنهار أو البحيرات. والكلام المستعمل آنذاك مقتبس من إنجيل متّى: «إنّي أعمّدك

باسم الآب والابن والروح القدس». وبعض الكنائس البروتستانتيّة تعمِّد باسم يسوع فقط.

وقد درجت العادة منذ غابر الأزمان أن يُعمَّد أعضاء الجماعة الجدد في أثناء أعظم أعياد المسيحيّين، يومَ **الفصح** المجيد. هٰذا العيد يمتدّ على ثلاثة أيّام ويحلّ في الربيع، غيرَ بعيدٍ من عيد فصح اليهود. وقوام العيد أعمالُ عبادةٍ ثلاثةٌ مختلفة، يركِّز كلٌّ منها على حدث من الأحداث التي جرت في حياة يسوع والتي يستند إليها الإيمان المسيحيّ:

آ) في مساء يوم الخميس يُقام تذكار **عشاء يسوع الأخير**.

ب) يوم الجمعة، حوالى الظهر، يتذكّر المسيحيّون موتَ يسوع على الصليب.

ج) بين مساء السبت وصباح الأحد يتمّ **الاحتفال الفصحيّ** بقيامة يسوع إلى حياة جديدة.

أهمّ تلك الأعياد هو الاحتفال الفصحيّ، وكان في الأساس يبدأ مساء السبت ويدوم طوال الليل حتّى صباح أحد الفصح عند الفجر – وهو وقت قيامة المسيح بحسب رواية الأناجيل. أمّا اليوم فالاحتفال مختصَرٌ يتراوح بين ساعتين وأربع ساعات، وفي أثنائه يُعلِن المنتمون الجدد إلى الجماعة المسيحيّة إيمانَهم ويعمَّدون، في حين يقوم الأعضاء القدماء بتجديد إعلان إيمانهم والالتزام بحياةٍ مسيحيَّةٍ حقّ.

٢. التثبيت

السرّ الثاني، التثبيت، هو القِسم الثاني من طقس التدرُّج في المسيحيّة. في العماد يكون التركيز على الخلاص من الخطيئة، إذ يصالِح اللهُ الخاطئَ معه تعالى ويدعوه إلى حياة الإيمان والطاعة. أمّا في التثبيت فيكون التشديد على الناحية الإيجابيّة في تأدية الشهادة لِما حقّقه الله من أجل البشريّة في يسوع، وعلى استمداد القوّة من الروح القدس للقيام بهٰذا الواجب. ولمّا كان الخلاصُ غير مقتصرٍ على غفران الخطايا، بل هو دعوة لمتابعة رسالة

يسوع بتبديل العالم على نحو ما يريده اللهُ سبحانه وتعالى، فإنّ التثبيت يقوّي مَن يتقبّله ليتحمَّل أعباءَ مسؤوليّاته في المجتمع على ما يليق بالمسيحيّ الراشد.

التثبيتُ يمنحه الأسقف أو مَن ينوب عنه، وقوامه أن يُمسَح طالِبُه بالزيت في حين يُقال له: «تقبَّل الروح القدس لتستطيع تأدية الشهادة للمسيح». وقد تختلف تلك العبارة الأساسيَّة اختلافًا بسيطًا باختلاف الكنائس مع المحافظة على جوهرها.

وإذا كان الداخلون في الكنيسة من البالغين، فإنّهم يتقبّلون سرَّي العماد والتثبيت معًا على أنّهما قِسمان من طقسٍ واحد. أمّا إذا كان المعمَّدون أطفالاً، فيتمّ تثبيتهم في وقت لاحق وهُم على عتبة البلوغ، بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة. وبعض الكنائس البروتستانتيّة لا تعمِّد الأطفال لقولها بأنّ العماد يجب أن يسبقه قرارٌ واعٍ باتّباع المسيح.

٣. الزواج المسيحيّ

يرى المسيحيّون أنّ الزواج ليس من الأمور الدنيويّة، فهو يرمز إلى حبّ الله للبشريّة. ولمّا كان الزواج وحدةَ حبٍّ بين شخصين يلتزمان العيش معًا في الأمانة المتبادلة والتعاون، ويسعيان لخلق جوٍّ يساعد على إنجاب الأولاد وتربيتهم بحيث يعيشون في الإيمان وحبّ الله، فإنّ المسيحيّين يعتبرونه رمزًا بشريًّا للطريقة التي يُعامِل اللهُ بها الإنسانيّة. ذلك بأنّ الله سبحانه يحبّ الناسَ ويهتمّ بهم ويظلّ أمينًا لوعوده لهم. وفي الزواج يعِد المسيحيّون بأن يجعلوا من اتّحاد الرجل بامرأته علامةً حيّة لحبّ الله للبشر ولحبّ المسيح لجماعة تلاميذه. ولهذا السبب يرون أنّ الزواجَ التزامٌ مدى الحياة، ولا يوافقون على الطلاق وإعادة الزواج ما دام القرين حيًّا.

٤. الدرجات المقدّسة

بهذا السرّ يكرِّس المرءُ حياته لخدمة الجماعة المسيحيّة، ومن خلالها جميعِ بني البشر. وهناك ثلاث درجات أساسيّة:

آ) **المطران** يمثّل المسيح في منطقةٍ معيَّنة تُدعى الإبرشيَّة، **فينوب** عنه معلِّمًا، وإمامًا لمراسم العبادة، وخادمًا.

ب) **الكاهن** (أو القسِّيس) يعاون المطران، في مهامِّه الثلاث المذكورة، على صعيد جماعة واحدة.

ج) **الشمّاس** يكرز بكلمة الله ويساعد الفقراءَ والمسنّين والمرضى والمنازعين.

أمّا سائر الأَلقاب الكنسيّة الأُخرى من مثل البابا، والبطرِيَرْك، ورئيس الأساقفة، والكردِينال، والأَرشِمندريت، والمونْسِنْيور، وسواها، **فهي** تشير إلى وظائف معيَّنة في الجماعة ولا مدلول لها على صعيد الأسرار.

٥. المصالحة

في سرّ **التوبة** أو **المصالحة** يتقبّل المسيحيّون غفران الله، وهم يؤمنون بأنَّه إذا ما تابوا غَفَر لهم تعالى، كما أنّه يغفر للمسلمين واليهود وغيرهم عندما يتوبون عن خطاياهم. ويأتي المسيحيّون إلى سرّ المصالحة **ليسمعوا** كلام الغفران الإلٰهيّ، وليتذكّروا كيف أنّ الله حقَّق مغفرته هٰذه، الحاضرةَ أبدًا، بواسطة أفعال الخلاص التي أجراها يسوع في أثناء حياته. وحيث إنّ الخطيئة إهانة لا تمسّ الله وحدَه، بل لها مضاعفات ونتائج على الصعيد الاجتماعيّ، فالمسيحيّون يتقبّلون علامة غفران الله في إطار جماعة الكنيسة.

وقد اتّخذ سرُّ التوبة وجوهًا مختلفة على مرّ القرون. ففي العصور الأُولى من تاريخ الكنيسة كانت التوبة تتمّ على نحوٍ علنيّ. ثمّ في العصور المتأخّرة درجت عادة الاعتراف الفرديّ بالخطايا. واليوم يتمّ التشديد في سرّ التوبة على الناحية الجماعيّة.

٦. مسحة المرضى

إن كانت الخطيئة، وهي مَرَض النفس، تهدّد علاقة المرء بالله، فمرض الجسد هو أزمة بشريّة تهدّد بوضع حدّ للحياة الأرضيّة نفسها، وفي كلتا

الحالتين يأتي المسيحيّ لسماع رسالة الله الخلاصيّة، وهو يؤمن بأنّ الله أرسَل المسيح ليكون إلى جانب المرضى فيعزّيهم ويشفيهم ويهيّئهم لساعة الموت. وسرّ مسحة المرضى علامةٌ تشير إلى وجود الله وحبّه، وتذكّر أنّ الله لم يتخلَّ عن الممتحَنين بالأمراض. وبعبارة أُخرى، إنَّ الغايةَ من هٰذا السرّ مواجهةُ العزلة الأليمة التي غالبًا ما يشعر بها المرضى، لا سيّما إذا ما راح الجسد يذوب شيئًا فشيئًا في سبيله إلى الموت. مسحة المرضى بالزيت المقدَّس تؤكّد للمريض أنّه ليس وحده، بل إنّ المسيح معه يقوده إلى الله تعالى، وإنّ ثمّة جماعةً من إخوانه المؤمنين تدعو له ومعه.

٧. الإفخارستيّا

ليست الإفخارستيّا، في نظر المسيحيّ، «واحدًا من الأسرار السبعة» وحسب، بل هي العمل الأساسيّ في الإيمان المسيحيّ وشعائر العبادة المسيحيّة. وإنّها في الوقت نفسه الذكرى والتأوين لعشاء يسوع الأخير مع تلاميذه في الليلة التي سبقت موته. ففي أثناء ذٰلك العشاء أعطى يسوع تلاميذه الخبزَ والخمرَ على أنّهما جسدُه ودمُه. ويؤمن المسيحيّون أنّه، لمّا يشتركون في هٰذا العشاء، يكون المسيح موجودًا معهم وجودًا جسديًّا، ويؤمنون أيضًا أنّه كما أُبرِمَ العهد بين الله والشعب اليهوديّ بدم الذبائح على جبل سيناء، فكذٰلك يُبرَم العهد الجديد بين الله والبشر بدم يسوع المسيح.

لقد ابتكرت كلٌّ من الكنائس المسيحيّة طقوسها أو شعائرها الخاصّة للاحتفال بالإفخارستيّا. إلاّ أنّ هناك عنصرين أساسيّين ثابتين في سائر تلك الطقوس:

آ) القراءات في **الكتاب المقدّس** (إثنتان أو ثلاث).

ب) **تناول** القربان المقدّس.

في أثناء مباركة الخبز والخمر يتلو المترئّس كلمات يسوع في العشاء الأخير، وفي الكنائس الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة لا يترأّس الاحتفال إلاّ الأسقف أو من ينوب عنه، أي الكاهن. وبالإضافة إلى القراءات والتناول،

ثمّة تراتيل وصلوات للتوسّل والشكران، وعِظة (قوامها شرح مقاطع الكتاب المقدّس التي تُلِيَت، وتطبيقها على حياة المسيحيّين اليوميّة)، وتبادل السلام.

يشعر الكثير من البروتستانت بأنّ الإفخارستيّا بالغة الخطورة بحيث ينبغي التهيّؤ لها على أتمّ وجه فلا يُحتفل بها إلاّ في بعض المناسبات، وعليه يقيم الكثيرون منهم عشاءَ الربّ أربع مرّات في السنة أو مرّةً واحدة في الشهر. أمّا الأرثوذكس فيحتفلون بالإفخارستيّا في أيّام الأحد والأعياد، في حين يرى الكاثوليك أنّ الإفخارستيّا قلبُ عبادة الله **اليوميّة**، ممّا يحدوهم على الاحتفال بها كلّ يوم.

الجماعة المسيحيّة وتطوّرها عبر التاريخ

آ – الكنيسة في عهد الرسل

عُرفت الجماعة المسيحيّة، التي جاء وصفُها في أسفار العهد الجديد، بـ«الكنيسة الرسوليّة»، أي كنيسةِ الرسل وأجيالِ المسيحيّين الأوائل. وتمتدّ الحقبة المعنيّة، على وجه التقدير بين سنة ٣٠ وسنة ١٠٠، أعني بين العنصرة وتدوين آخر سِفر من أسفار **الكتاب المقدّس**.

لقد وصف سفرُ **أعمال الرسل** حياةَ الجماعةِ المسيحيّة الأُولى على الوجه الآتي (٢/٤٢–٤٧):

«كانوا يواظبون على تعليم الرسل والمشاركة وكسر الخبز والصلوات. واستولى الخوفَ على جميع النفوس لما كان يجري عن أيدي الرسل من الأعاجيب والآيات. وكان جميع الذين آمنوا جماعةً واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلّ منهم، يلازمون الهيكل كلَّ يوم بقلب واحد، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، يسبّحون الله وينالون حظوةً عند الشعب كلّه».

ولكنّ هٰذه «الحظوة» تحوّلت مع الأيّام إلى عداوة، أوّلاً من جهة اليهود، ثمّ من قِبَل الإمبراطوريّة الرومانيّة.

وانطلقت في أورشليم، وبقيادة **يعقوب** الرسول، جماعةٌ مسيحيّة من أصل يهوديّ، فكثر عديدها في المدينة ثمَّ في نواحي فلسطين. كما انطلق

مرسلون، من أمثال **بولس وبرنابا**، فحملوا البشارة إلى غير اليهود. ولقد قامت، في أعقاب ذلك، أولى الأزمات التي واجهت الكنيسة، إذ طُرح السؤال: هل ينبغي للوثنيّين المهتدين أن يصبحوا أوّلاً يهودَ ويخضعوا للشريعة اليهوديّة قبل أن يُسمح لهم باعتناق المسيحيّة؟ وكان موقف بولس –وقد تبنّاه بطرس ويعقوب– أنّ الله أقام يسوع من الأموات فأفسح في المجال أمام زمن جديد للخلاص، وعليه فلم يعد المسيحيّون مضطرّين إلى اتّباع الشريعة اليهوديّة.

ثمّ أخذ المهتدون من الوثنيّة يزدادون عددًا بفضل تبشير الرسل في سائر أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة، فغلب في الكنيسة المسيحيّة العنصر الآتي من غير اليهوديّة. وتكوّنت جماعات صغيرة من المؤمنين توزّعت في مدن الإمبراطوريّة من سورية إلى مصر فالأناضول فاليونان فإيطاليا. ويشير التقليد إلى أنّ بطرس اعتُبر رئيسًا لجماعة الرسل، في أورشليم أوّلاً، ثمّ في أنطاكية، وأخيرًا في روما حيث أُعدم في أيّام نيرون.

ب – عصر الاضطهاد

كانت الجماعة المسيحيّة في البدايات تؤمن أنّ يسوع لن يلبث أن يعود في المجد، فراحت تنتظر بفارغ الصبر «اليوم الأخير». وعكست ذلك الانتظارَ وذلك التشوّقَ الأسفارُ الأولى من أسفار **العهد الجديد كالرسالتين إلى أهل تسالونيقي**، في حين انصبَّ اهتمامُ الأسفار اللاحقة، **كالرسالتين إلى طيموتاوس والرسالة إلى طيطس ورسالتي القدّيس بطرس**، على تنظيم الجماعة وتوجيهها بحيث تسير سيرةً مسيحيَّة في هذه الدنيا.

والواقع أنّ الكنيسة تنظّمت. فقام الأساقفة على رأس كلٍّ من الكنائس المحلّيّة، يعاونهم الكهنة ويهتمّ الشمامِسة بالشيوخ والفقراء ويشرفون على مختلف أعمال البرّ والإحسان. أضف إلى ذلك أنّه كان في الجماعة أفراد عُرفوا بما مُنحوا من مواهبَ خاصّة لخدمة الكنيسة وبنيانها، فكان ثمّة رُسُلٌ، وأنبياءُ يتكلّمون

بإلهامٍ من روح الله، ومبشّرون، ورعاة، ومعلّمون. وكانت لغيرهم مواهب اجتراح المعجزات، وشفاء المرضى، والتكلّم بلغات مختلفة.

أمّا موقف السلطات الرومانيّة من الكنيسة فكان في بعض الأحيان متسامحًا، ولكن غالبًا ما لجأ الولاة إلى اضطهاد المؤمنين، فقُتل الكثيرون استشهادًا، بمن فيهم بطرس وبولس.

ومع مرور الزمن بدأت بعض المراكز تكتسب أهمّيّةً خاصّةً وسلطةً خاصّة، **كروما**، **وأورشليم**، **والإسكندريّة**، **وأنطاكية**. وكان لهذه المدن الأربع **بطاركة** يرعون شؤونها، وأُنشِئَت في مناطقهم مقاطعات، دُعيت **الإبرشيّات**، يتولّى أمورَها **الأساقفة** (وأصل الكلمة يونانيّ ومعناها «النُظّار»). وفي القرن الرابع، لمّا بنى قسطنطين عاصمته الجديدة القسطنطينيّة – وهي اليوم إسطنبول – صارت مدينته في عداد الأماكن الهامّة التي يرعى كنيستَها أحدُ البطاركة.

ولئن أدرك السوادُ الأعظم من المسيحيّين، مع مرور الزمن، أنّ عودة المسيح ليست بوشيكة. فقد ظلّت قِلّة منهم تعتقد بأنّ يسوع سيعود عمّا قليل. ذلك بأنّهم فسّروا ما ورد في سفر **الرؤيا** عن القتال بين الخير والشرّ تفسيرًا حرفيًّا، فراحوا ينتظرون عودة يسوع الوشيكة ليؤسِّس مُلكًا يدوم ألف سنة يليها يومُ الدينونة. ولَطالما قامت في تاريخ المسيحيّة شيعٌ صغيرة، عُرِفَت «بالأخيريّة» أو «الألفيّة»، دأبت على الاستعداد لمجيء يسوع في آخر الزمان.

ج – الجدالات حول طبيعة المسيح، والمجامع الأُولى

إنتشرت المسيحيّة في سائر أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة، وراح مفكّروها ينقلون إلى محيطهم إيمانهم ومعتقداتهم، فاستعملوا المصطلحات الفلسفيّة والمفاهيم السائدة في أيّامهم للتعبير عن العلاقة القائمة بين يسوع والله. وهكذا أضحى علمُ اللاهوت المسيحيّ جزءًا من حياة الكنيسة.

بعض المسيحيّين الأوائل تأثّروا بالأفكار **الغُنوصيّة** فأنكروا إنسانيّة يسوع،

وكان الغنوصيّون يعدّونه ملاكًا حمل معه معرفةً سرّيّة لله. وإلى جانب هؤلاء قام الظاهريّون فقالوا بأنّ يسوع «ظهر» فقط بمظهر البشر ولم يكن له جسم بشريّ ولم يمت على الصليب. أمّا الكنائس المسيحيّة فقد شجبت في القرن الثاني تعاليم الغنوصيّين والظاهريّين وأكّدت على حقيقة الإنسانيّة في يسوع.

١. مجمع نيقيا – سنة ٣٢٥ –

قام جدال بين اثنين من اللاهوتيّين الإسكندرانيّين، **أثناسيوس وآريوس**، فتأثّرت به جميع الكنائس ممّا حدا المسؤولين على دعوة أوّل مجمع مسكونيّ في مدينة نيقيا («إزْنِك» الحاليّة في تركيا). وفيما اتّفق أثناسيوس (المتوفّى عامَ ٣٧٣) وآريوس (المتوفّى عام ٣٣٦) على أنّ كلمة الله تجسَّدت واستقرّت في الإنسان يسوع، فإنّهما اختلفا في أمر طبيعة الكلمة. فقد اعتبر أثناسيوس أنّ الكلمة التي تجسَّدت في يسوع هي **أزليّة**، **وغير مخلوقة**، وكائنة مع الله منذ البدء.

أمّا آريوس فقد أعلن أنّ كلمة الله **ليست أزليّة بل مخلوقة في الزمن**، خلَقها الله قبل خلق العالم. وقال بأنّ المتجسِّد في يسوع ليس الكلمة الأزليّة غير المخلوقة، بل مخلوق من المخلوقات. ولا شكّ أنّ المسلمين العارفين بعلم الكلام يرون في ذلك الجدال شبهًا بالجدل الذي احتدم لاحقًا بين المتكلّمين المسلمين، فموقف الأشعريّة شبيه بموقف أثناسيوس، في حين رأي المعتزلة أقرب إلى رأي آريوس.

ولمّا بات الجدال يتسبَّب بالانشقاق في صفوف المسيحيّين، دعا الأمبراطور قسطنطين إلى عقد مجمع نيقيا للبتّ في الأمر والوقوف على الحقيقة. وشارك في اللقاء بين ٢٢٠ و٢٥٠ من ساسة المسيحيّين وأقرّ المجمع موقف أثناسيوس وشجب رأي آريوس، وأصدر **قانونًا** للإيمان، أي مختصَرًا له، جاء فيه أنّ الكلمة الإلهيّة هي من **صميم طبيعة الله** وليست مخلوقًا. وخضع آريوس ومحازبوه لهذا القرار ولم يعد للآريوسيّين وجود منظَّم في الكنيسة.

٢. مجمع أَفَسُس – سنة ٤٣١ –

كان نَسْطُور (المتوفّى عام ٤٥١) أسقفًا سوريًّا قال بأنّ يسوع كان في الواقع شخصين، شخصًا بشريًّا وشخصًا إلٰهيًّا. أمّا الشخص الإنسانيّ فولدته مريم، وأمّا الشخص الإلٰهي فهو كلمة الله الأزليّة. ولكنّ المجمع المسكونيّ المنعقد في أفسس شجب تعاليم نسطور وأعلن أنّ يسوع هو شخص واحد، ولدته مريم العذراء، فيه استقرّت كلمة الله الأزليّة وبه اتّحدت اتّحادًا وثيقًا.

لقد ظلّ نسطور يعلن أنّ تعليمه هو عين تعليم الأساقفة المجتمعين في أفسس وأنّ الاختلاف بين الاثنين هو في التعبير فقط. والواقع أنّ الكثيرين من المؤرّخين المحدَثين يوافقون على أنّ تعليم نسطور لم يختلف في جوهره عن تعليم مجمع أفسس سوى أنّه استعمل تعابير مختلفة للإقرار بالمعتقد نفسه. وعلى الرغم من ذٰلك لم يقبل عددٌ من المسيحيّين تعليم مجمع أفَسس، وتبنّوا صيغة تعبير نسطور. وكانوا في أغلبيّتهم يقطنون العراق وبلاد فارس، ومن هناك نقلوا المعتقد المسيحيّ إلى الهند، والسواد الأعظم من نساطرة اليوم يعيشون في جنوب الهند. وفي القرن التاسع عشر اتّحد عدد كبير من أتباع نسطور بالكنيسة الكاثوليكيّة، ويُدْعَون الكاثوليك الكلدان، ويعيش معظمهم في العراق وإيران وتركيا.

٣. مجمع خَلْقِيدُونيا – سنة ٤٥١ –

هٰذا المجمع، المنعقد في خلقيدونيا – وهي «قاضي كوي» الحاليّة في تركيا – نبذ تعاليم **أوطيخا** القائل بأنّ يسوع أُقنومٌ (شخص) واحد ولكن ليس له طبيعة بشريّة بل طبيعة إلٰهيّة فقط. وعُرِف محازبوه بـ«المُونُوفِيزِيّين» أي القائلين بالطبيعة الواحدة. وإذ رفض مجمعُ خلقيدونيا تعليم المونوفيزيّين، أعاد إقراره بتعاليم مجمعَي نيقيا وأفسس في شأن حقيقة طبيعة يسوع البشريّة وتجسُّد كلمة الله الأزليّة فيه. وحرص مجمع خلقيدونيا على ألاّ يَحْصر بتعليمه وحده تحديد علاقة يسوع بالله، بل ترك الباب مفتوحًا لتطوير المفاهيم اللاهوتيّة في المستقبل.

وفيما قبلتْ كنيستا روما والقسطنطينيّة تعليم مجمع خلقيدونيا، رفضَتْه كنيستا مصر (الكنيسة القبطيّة) وسورية (الكنيسة التي عُرفت عند البعض باليعقوبيّة). ومنذ تلك الأيّام انقطعت الوحدةُ بين هاتين الكنيستين وكنيستَي روما والقسطنطينيّة. إلاّ أنّه في السبعينيّات من هٰذا القرن وقّع الفاتيكان، ممثِّلاً الكنيسة الكاثوليكيّة، ورئيسُ الكنيسة القبطيّة، إعلانًا مشتركًا ينهي الخلافات اللاهوتيّة في هٰذا الشأن بين الكنيستين[1]. أمّا الكنيسة الأرمنيّة (المعروفة بالغريغوريّة) فلم تمثَّل في خلقيدونيا ولم تعترف بقرار هٰذا المجمع.

إلاّ أنّ هناك الكثير من المؤرّخين يرون أنّ الاختلافات اللاهوتيّة التي ظهرت في المجامع الأُولى كانت في غالبيّتها ثمرة اختلافات شخصيّة أو سياسيّة أكثر منها عقائديّة. ومهما يكن فقد هبّ الكثير من المسيحيّين لمعالجة أمر هٰذه الخلافات وما نتج عنها من شقاق، فراحوا يسعون لإعادة الوحدة المسيحيّة من خلال الحركة المسكونيّة (أطلب الصفحة ١٠١).

د – الجدل حول تحطيم الأيقونات

قام هٰذا الجدل في الأمبراطوريّة البيزنطيّة بين سنة ٧٢٥ وسنة ٨٤٢، وتركّز حول استعمال الأيقونات أو الصور في الكنائس. فالكنيسة البيزنطيّة درجت على تزيين معابدها بالتصاوير ولوحات الفسيفساء التي تمثّل يسوع ومريم والقدّيسين، وكانت تلك التصاوير موضوع إجلال عظيم. وفي زمن الإمبراطور لاون الثالث (المتوفّى عام ٧٤١) شعر بعض المسيحيّين بأنّه من غير اللائق إكرامُ الأيقونات. وسمّي هٰؤلاء المعارضون **محطّمي الأيقونات**.

---

١. وُقِّع هٰذا البيان يوم ١٠ أيّار ١٩٧٣، وقّعه البابا بولس السادس عن الكاثوليك، والبابا شنوده الثالث عن الأقباط. والجدير بالذكر أنّ بيانًا مماثلاً وُقِّع سنة ١٩٧١ بين بولس السادس وبطريرك السريان الأرثوذكس إغناطيوس يعقوب الثالث، كما وُقِّع في ٣ حزيران ١٩٨٤ بيان مشترك بين البطريرك زكّا عيواص، خليفة إغناطيوس يعقوب، والبابا يوحنّا بولس الثاني عن الكاثوليك (الناقل).

ويذكر المؤرّخون ثلاثة أسباب لمعارضة استعمال الأيقونات :

١. نشأت عند بعض المسيحيّين تيّارات تقلّل من شأن إنسانيّة يسوع ، في حين تُشدّد الأيقونات على طبيعته الجسديّة.

٢. قامت في شرق الأناضول هرطقة مسيحيّة تأثّرت بالديانة المانويّة فقالت بأنّ كلّ ما هو ماديّ شرّ ، وبالتالي إنّ تصاوير الأجسام البشريّة لا تليق بأماكن عبادة الله.

٣. شعر الإمبراطور بأنّ استعمال الأيقونات يحول دون اهتداء المسلمين واليهود إلى المسيحيّة.

إحتدم هذا الجدال في طول الإمبراطوريّة البيزنطيّة وعرضها مدّة نحو قرنٍ ونصف القرن ، فأُتلِفَت آلاف الأيقونات وقُتل الكثير من الرهبان لأنّهم كانوا من أشدّ المدافعين عن إكرام الصور ، وهرب سواهم إلى أماكن منعزلة نائية ، من أمثال كُورِمِه Göreme في برّ الأناضول ، حيث رَسموا أيقوناتهم في كنائس أُقيمت داخل الكهوف.

وعُقد مجمعٌ ثانٍ في نيقيا عامَ ٧٨٧ فقرّر أنّ إكرام الصور جائز ما دام المؤمن يعي أنّه لا يكرّم الصورة في ذاتها بل الشخص المرسوم فيها ، وأنّ العبادة الحقيقيّة لا تكون إلاّ لله عزّ وجلّ. وانتهت المجادلات سنة ٨٤٢ عندما أُعلنت الإمبراطورة ثيودورا ضرورة إكرام الأيقونات الإكرام اللائق في جميع أرجاء الإمبراطوريّة البيزنطيّة. أمّا في الغرب ، فلم تَقم مثل تلك الأزمة ولم يكن من معارضة لإكرام الصور حتّى حلولِ « الإصلاح » البرُوتِستانتيّ.

هـ – الانشقاق بين الشرق والغرب

تدلّ كلمة « انشقاق » على انقسام ، لا علاقة له بالعقيدة ، بين جسمَين أو جماعتين من المسيحيّين. وأهمّ الانشقاقات في تاريخ المسيحيّة هو الذي حصل بين كنيستَي القسطنطينيّة وروما ، وقد عُرف في بعض الأحيان بـ« الانشقاق بين الشرق والغرب ». فلقد قالت **الكنيسة الرومانيّة** بأنّ الذين يرعون الكنائس

ويسُوسُونها هم **أساقفة** العالَم عاملين معًا في جسم واحد يُشرف عليه أسقف روما. أمّا نظرة كنيسة **القسطنطينيّة فهي** أنّ ثمّة **خمسة** مراكز للمسيحيّة تتساوى في السلطة وهي : أورشليم ، وأنطاكية ، وروما ، والإسكندريّة ، والقسطنطينيّة .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في مفهوم السلطة ، ظلّ المسيحيّون التابعون لروما والقسطنطينيّة متّحدين حتّى القرن التاسع عندما حصل أوّل انقسام مؤقّت في زمن فُوتيُوس بطريرك القسطنطينيّة. وفي القرون اللاحقة تصالحت الكنيستان لفتراتٍ معيّنة كانت تعقبها الانقسامات ، إلى أن تمّ الانشقاق الأخير بين روما والقسطنطينيّة سنة ١٠٤٥ .

وممّا لا شكّ فيه أنّ أغلب الانشقاقات كانت تنشأ لأسباب سياسيّة ، إلاّ أنّ عنصرًا عقائديًّا دخل في الانشقاق الأخير ، وقوامُه استعمالُ عبارة **والابن** في قانون الإيمان. فالكاثوليك – وكذلك البروتستانت – يستعملون هذه العبارة للدلالة على إيمانهم بأنّ الروح القدس منبثق من الله الآب **ومن** يسوع **الابن** العاملَين معًا . أمّا الأرثوذكس فإنّهم يتمسّكون بالصيغة الأصليّة ولا يستعملون عبارة «والابن» ، فيقولون بأنّ الروح القدس منبثق من الله الآب وحسب . وعلى الرغم من أنّ تلك المسألة كانت موضوع نقاش محتدم بين المسيحيّين الشرقيّين والغربيّين في العصور المتقدّمة ، فإنّها في الحقيقة ليست سببًا هامًّا للخلاف ، والمسيحيّون الغربيّون يقبلون بالصيغة التقليديّة التي يتمسّك بها الشرقيّون. والمشكلة لا تعني في الواقع إلاّ علماء اللاهوت ، أمّا عامّة المسيحيّين فهُم في غالبيّتهم لا يذكرون هذا الجدال إلاّ ذكرهم لأمر هو على هامش التاريخ .

وفي العقود الأخيرة نشط السعي إلى الوحدة بين كنيستَي القسطنطينيّة وروما . فزار الباباوات يوحنّا الثالث والعشرون وبولس السادس ويوحنّا بولس الثاني البطريركين المسكونيَّين أثيناغُوراس ودِيمِترْيُوس في إسطنبول ، وردّ هذان الزيارة فذهبا إلى روما . وأنشأت الكنيستان لجانًا أُنيط بها حلّ المشاكل بحيث يمكن إعادة الوحدة .

و – الكنيسة في العصر الوسيط

في أيّام قسطنطين (المتوفّى عام ٣٣٧) تحوَّلت الجماعةُ المسيحيّة من «شيعة» تضطهدها سلطات الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى كنيسةِ دولة، تَعترف بها الحكومةُ اعترافًا رسميًّا، ونتج عن ذٰلك تبدّلات عظيمة في حياتها. ففي الإمبراطوريّتين البيزنطيّة والرومانيّة كان أغلبيّة الناس باستثناء اليهود، يصبحون مسيحيّين، أقلّه بالاسم. ولمّا تمّ الانشقاق بين الشرق والغرب، تطوّرت المنطقتان كلٌّ على حدة بخصائصها الطقسيّة والفلسفيّة واللاهوتيّة والتقليديّة. وكذٰلك طوّر الأقباطُ في مصر، والسريان في سورية، والنساطرة في العراق وإيران، تقاليدهم القديمة الخاصّة.

ولمّا ظهر الإسلام في الجزيرة العربيّة في أوائل القرن السابع الميلاديّ، وراح الولاة المسلمون يديرون شؤون المناطق التي سبق أن كانت مسيحيّةً في مصر وبلاد الشام وما بين النهرين وشمال إفريقيا، اضطُرَّ المسيحيّون إلى أن يأخذوا بعين الاعتبار الإسلامَ دينًا، والمسلمين رفاقًا في الإيمان والمواطنيّة، لا بل حكّامًا في أغلب الأحيان. وفي العصر الأمويّ ألَّف يوحنّا الدمشقيّ أوّل كتابٍ مسيحيّ يعالج الإيمان الإسلاميّ.

وفي القرن الحادي عشر وحتّى الثالث عشر، شنّت الدول الأوروبيّة **الحملات الصليبيّة** وقد خلَّفت حتّى اليوم الحذر والمرارة لا بين المسلمين والمسيحيّين فقط، بل بين مسيحيّي غرب أوروبّا ومسيحيّي الديار البيزنطيّة أيضًا. وكان لأعمال التدمير والتنكيل والتقتيل التي قام بها الصليبيّون لدى نهبهم القدس (١٠٩٩) والقسطنطينيّة (١٢٠٤) أسوأ الأثر سواء عند المسلمين أو المسيحيّين الشرقيّين.

وقد أَفسد حياةَ الكنيسة الكاثوليكيّة في العصر الوسيط الكثيرُ من الآفات، لعلّ أبشعها وأخبثها **السيمونيّة**، وهي بَيع الوظائف الدينيّة والامتيازات الكنسيّة. إلى ذٰلك كان البابوات والأساقفة والكهنة يستأثرون، أو يكادون، بالأدوار الأساسيّة في حياة الكنيسة، في حين لا دورَ يُذكَر

للعلمانيّين، فيتسكّعون في جهلهم شؤونَ الإيمان والدين.

إلاّ أنّ كنيسة العصور الوسطى لم تُعدَم الحركاتِ الإصلاحيّة. بعضُها قَبِل بسلطة البابا وحاول استئصال الفساد الذي شوَّه وجه الكنيسة، وبعضها الآخر نَبَذَ الكنيسةَ الكاثوليكيّة وحاول أن يحيا حياةً مسيحيّةً أفضل وأنقى، فبرز عنده في بعض الأحيان عناصر لا توافق الإيمان التقليديّ في الكنائس فاتُّهم بالهرطقة. وقد تعقَّبت الكنيسةُ والدولةُ معًا تلك البدع وحاربتها بكثير من القساوة في أغلب الأحيان.

وأشهر تلك الانتفاضات كانت حركات **البُوكُوميل** (في البلقان، من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر)، **والألْبِيجيّين** (في جنوب فرنسا، بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر)، **والفَلْدِيّين** (في شمال إيطاليا، منذ القرن الثاني عشر وحتّى أيّامنا هٰذه)، **وويكْلِف** (في إنكلترا – القرن الرابع عشر)، **وهُوس** (القرن الخامس عشر، في بُوهِيميا). وأُنشئت محاكم التفتيش سنة ١٢٣٢ للتحقيق في شؤون البدع، فكلُّ مَن وُجد على ضلالٍ في إيمانه كانت عاقبته الموت ما لم يَعُد إلى مستقيم الصراط.

ز – الإصلاح

١. الإصلاح البروتستانتيّ

في حين كان الكثيرون في الكنيسة يَدْعون إلى الإصلاح، تفجّرت قضيّة «صكوك الغفرانات» وراحت تدقّ إسفين الانقسام في كنيسة أوروبّا الغربيّة. ذٰلك بأنّ عددًا من الوعّاظ المتحمّسين أخذوا يجوبون الأقطار الأوروبّيّة مدّعين أنّ كلّ مؤمن يستطيع النجاة من عقاب الخطيئة في حال تبرُّعه للكنيسة بقدر من المال. فهبّ مارتِن لُوثر (توفّي سنة ١٥٤٦) ونشر عام ١٥١٧ لائحةً أدرج فيها ٩٥ أطروحةً، ممّا يطرحه الإيمان الكاثوليكيّ، ورفض الاعتقاد بها. أمّا ما قال به لوثر، فهو كثير، منه:

– الخلاص يتمّ بالإيمان وحده ،
– الكتاب المقدّس هو المرجع الوحيد للإيمان المسيحيّ ،
– رَفْض الاعتقاد بأنّ الإفخارستيّا ذبيحة ،
– رفض الرهبانيّات والنذور الرهبانيّة ،
– إيلاء العلمانيّين دورًا أهمّ في طقوس العبادة وشؤون الرعاية ،
– إستقلال الكنيسة المحلّيّة عن روما ،
– رفض بعض ممارسات الكاثوليك ، كالحجّ والصوم والاعتراف بالخطايا ،
– معارضة التجاوزات ، كبيع الغفرانات والسيمونيّة .

وكان لوثر يبتغي إصلاحَ الكنيسة بحسب تعاليم الكتاب المقدّس الأصيلة (لذا سُمِّيت حركته «الإصلاح الإنجيليّ») وكذلك العودةَ إلى إيمان الجماعة المسيحيّة الأوّل . وقد حثّ لوثر الأمراء الألمان على نبذ سلطة البابا وفرض إصلاحه الإنجيليّ . والكنيسة الإنجيليّة المصلَحة منتشرة اليومَ في بلاد أوروبّا الشماليّة (ألمانيا ، نروج ، أسوج ، الدانمرك ، فنلندا) .

إلاّ أنّه سرعان ما راحت الانقسامات تمزّق حركة الإصلاح بعد أن اختلف أتباع لوثر في عدّة أمور تمتّ إلى الإيمان ، وأسّس بعضهم كنائس خاصّةً بهم . فزفِنْكلي Zwingli (المتوفّى سنة ١٥٣١) تزعّم الإصلاح في سويسرا وانفصل عن لُوثر في مسألة حضور المسيح في عشاء الإفخارستيّا . أمّا جان كلڤان Calvin (المتوفّى عام ١٥٦٤) ، وهو أحد ألمع المصلحين ، فقد رفض مفهوم الكهنوت وأدخل فكرة الاختيار المسبَق ، وبرز تأثيره أكثر ما برز في سويسرا والبلدان المنخفضة (هولندة) وفرنسا وإسكوتلندا (الكنيسة المشْيَخِيّة) .

أمّا «الأناباتيست» ، أي تَجْدِيدِيُّو العماد ، فلم يكونوا حركةً واحدة ، بل عدّة نزعات بروتستانتيّة رفضت تعميد الأطفال وركّزت على القبول الشخصيّ بيسوع مخلِّصًا . وشدّدت على التقوى الباطنة ، وعَمَل الروح القدس في المسيحيّ ، وبساطة العيش ، والمسالمة ورفض العنف ، ونبذ السلطة الدينيَّة

والمدنيّة. والكنائس المنبثقة عن هذا التيّار هي كنائس **الكُويكِرْز**[1] **والموراڤيّين**، **والمنونيّين**، **والمعمدانيّين**.

في إنكلترا بدأ الإصلاح البروتستانتيّ مع انشقاقٍ حصل في أيّام هنري الثامن. فقد رفض هذا الملك سلطة روما في حين ظلّ محافظًا على العقيدة الكاثوليكيّة. وما زالت كنيسة إنكلترا تتّسم بهذا الطابع وتكوّن، مع شقيقات لها في بلدانٍ أُخرى، «كنائس الشرِكَة الأنكليكانيّة». وفي عهد ابنة هنري الثامن، الملكة **إليزَبت**، وَجدت الكثيرُ من عناصر البروتستانتيّة طريقها إلى كنيسة إنكلترا، وعلى وجه التحديد ظهرت الأوجه الإنكليزيّة للإصلاح: **الطُهوريّون** Puritans، الذين أرادوا تطهير كنيسة إنكلترا على نحو ما فعل كلفّان وأتباعه، **والمِيثُودِيّون** Methodists الذين انطلقوا بهمّة جون وِيْزلي J. Wesley وركّزوا على التقوى الباطنة في معارضة الإيمان المبنيّ على الصِيغ اللاهوتيّة.

والجدير بالذكر أنّ جميع تلك التيّارات البروتستانتيّة انتقلت إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة – وهي اليومَ أعظم دولة ذات أغلبيّة بروتستانتيّة في العالم – وإلى أوستراليا ونيوزيلَندا وإفريقيا الجنوبيّة، كما نقلها المرسَلون إلى آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا.

٢. الإصلاح الكاثوليكيّ المضادّ

إضطُرّت الكنيسة الكاثوليكيّة إلى الاعتراف بصواب العديد مِن التُهم التي وجّهها إليها المصلحون، ورأى الكثيرون من أبنائها أنّ التجاوزات التي اعترض عليها المصلحون هي حقيقة راهنة وينبغي الكفّ عنها دون إبطاء. ومن جهةٍ ثانية لاحظ الكاثوليك أن المصلحين أهملوا، باندفاعهم الإصلاحيّ، عناصرَ أساسيّةً من الإيمان المسيحيّ. ومن ثمّ انطلقت حركةٌ تسعى إلى إصلاح

---

١. ويُعرفون أيضًا بـ«جمعيّة الأصدقاء الدينيّة» أو «الصاحِبيّين» نقلاً عن الإنكليزيّة «فرِنْدز» (المترجم).

الكنيسة الكاثوليكيّة «من الداخل»، سُمِّيت «الإصلاح المضادّ». وكانت الخطوة الأُولى في هٰذه الحركة دعوةً وجّهها البابا لعقد مجمع إصلاح التأمّ بين عامَيْ ١٥٤٥ و١٥٦٣ وعُرف **بالمَجمع التريدَنْتيني** (نسبةً إلى المدينة التي استضافته) ولم يشترك فيه لا الأرثوذكس ولا البروتستانت.

ووضَع المجمعُ التريدنتينيّ حدًّا لأغلبيّة التجاوزات التي ندّد بها المصلحون، كما أنّه أعلن مجدّدًا، ودحضًا للمصلحين، التعليم الكاثوليكيّ التقليديّ. ومن الذين عملوا بنشاط لإرساء الإصلاح المضادّ، أعضاء رهبانيّات حديثة التأسيس **كالكَبُّوشيّين واليسوعيّين**، وسعى الجميع إلى إصلاح الكنيسة الكاثوليكيّة من الداخل، بالأمانة إلى سلطة البابا لا بالخروج عنها. والبلدان التي طالها نشاط الإصلاح المضادّ هي التي يغلب فيها الكاثوليك كإسبانيا وإيطاليا وبولونيا وإيرلندا.

٣. الكنائس الأرثوذكسيّة والإصلاح

إزدهرت الدراسات اللاهوتيّة في الكنيسة الأرثوذكسيَّة طوال قيام الإمبراطوريّة البيزنطيّة، واستمرّت على ازدهارها بعد سقوط القسطنطينيّة، متأصّلةً في تقاليدَ عريقة. وفي القرن السادس عشر رأى الأرثوذكس أنّه يتوجّب عليهم توضيح موقفهم من المسائل العالقة بين الكاثوليك والبروتستانت. وعلى الرغم من أنَّ أحد بطاركة القسطنطينيّة المدعوّ كِيرِلُّس لُوكارِيس (توفّي سنة ١٦٣٨) كان ميّالاً إلى مواقف كلڤان، فالكنائس الأرثوذكسيّة أقرّت بأنّها تتمسّك، في أغلب المسائل المطروحة، بالمواقف التقليديّة على نحو ما فعلت الكنيسة الكاثوليكيّة.

وفي سنتي ١٦٤٣ و ١٦٧٢ تبنَّت الكنائس الأرثوذكسيّة **اعترافَين** بالإيمان، أعلنهما مِترُوبُولِيت كِييف، بطرس مُوكِيلا، وبطريرك القدس، دُوسِيثاوس، وفيهما دحضٌ لطروحات المصلحين البروتستانت وتثبيتٌ للمعتقد الأرثوذكسيّ في شأن العلاقة بين تقليد الكنيسة والكتاب المقدّس، وإكرام القدّيسين والصور، وعدد الأسرار ومعناها، والخلاص بالإيمان والأعمال.

ولئن التقى الأرثوذكسُ البروتستانتَ في رفض الموقف الكاثوليكيّ حيال سلطة البابا، إلاّ أنّهم لم يوافقوا قولهم بأنّ الأساس الوحيد للسلطة هو الكتاب المقدّس دون سواه على نحو ما يفسره المؤمن الفرد المستنير بالروح القدس. أمّا الجواب الأرثوذكسيّ فكان أنّ السلطة متجذّرة في **جماعة الكنيسة** المستمرّة بفضل الخلافة الأسقفيّة منذ الرسل.

ح- المجمع الفاتيكانيّ الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥)

آخر المجامع المسكونيّة في الكنيسة انعقد بدعوة من البابا يُوحنّا الثالث والعشرين، والهدف من ورائه تجديد الكنيسة الكاثوليكيّة بمقتضى حاجات العصر الحديث. شارك في المجمع أساقفة كاثوليك من جميع المناطق وحضر إلى جانبهم مراقبون من الكنائس الأرثوذكسيّة والبروتستانتيّة، فضلاً عن ضيوف ينتمون إلى الإسلام واليهوديّة وديانات أُخرى.

صدر عن المجمع الفاتيكانيّ هذا ستّ عشرة وثيقةً كانت الغاية منها تجديد سائر مظاهر الإيمان المسيحيّ وممارساته. ونذكر من أهمّ تعاليم المجمع:

١. مكانة الكتاب المقدّس المميَّزة في إيمان الكنيسة،

٢. كهنوت جميع المسيحيّين،

٣. الالتزام بمتابعة العمل في سبيل الوحدة المسيحيّة (= العمل المسكونيّ)،

٤. الالتزام الفعّال بالنضال من أجل العدالة والسلام وحقوق الإنسان،

٥. إقامة شعائر العبادة باللغات المحلّيّة،

٦. خلاص الله لأتباع سائر الديانات.

إحدى الوثائق الصادرة عن المجمع عنوانها «تصريحٌ حول علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحيّة». والفصل الخاصّ بالإسلام هو أوّل كتابة عالجتْ فيها الكنيسة موضوع المسلمين معالجةً رسميّة. وفي ما يلي مختصَرٌ لمضمون التصريح:

- على المسيحيّين أن **يحترموا** المسلمين ويُولوهم كلّ **الاعتبار**.

– المسلمون والمسيحيّون **يعبدون الإلٰه الواحد**، الخالق السماء والأرض، القدير، الرحيم، المكلِّم البشر.
– المسلمون والمسيحيّون على السواء يجتهدون في أن **يخضعوا لأوامره تعالى**.
– كلا الفريقين يستند في إيمانه إلى **إيمان إبراهيم**.
– المسلمون يُجلّون **يسوع** نبيًّا ويكرّمون **مريم** العذراء.
– المسلمون والمسيحيّون ينتظرون **يوم الدين وقيامة الأموات**.
– المسلمون يقدّرون **الحياة الأخلاقيّة**،
– ويعبدون الله لا سيّما **بالصلاة والصوم والزكاة**.

واختتم المجمع تصريحه حول الإسلام بهٰذا الكلام: «ولئن نشأت، على مرّ القرون، منازعاتٌ وعداوات كثيرة بين المسيحيّين والمسلمين، فالمجمع يحضّ الجميع على أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم ويصونوا ويعزّزوا **معًا** السلام والحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة والقِيم الأخلاقيّة لصالح جميع الناس».

وسنة ١٩٦٥ أنشأ البابا بولس السادس في الڤاتيكان أمانةً للحوار مع الأديان، أَلحقها بعد قليل بلجنة للحوار مع الإسلام، مِن مهامِّها تعزيز الاحترام المتبادل والتفاهم بين المسيحيّين والمسلمين عن طريق المحاضرات الأكاديميّة والدراسات والمشاريع المشتركة في ميادين الشؤون الاجتماعيّة وقضايا التنمية والأخلاق.

ط – الحركة المسكونيّة

إنّها حركة مسيحيّة تسعى إلى إعادة الوحدة بين الكنائس على نحوِ ما أرادها المسيح بين تلاميذه. فلم تُعدَم المسيحيّة، طوال تاريخها، أناسًا تألّموا للانقسامات داخل جماعة المؤمنين وحاولوا إعادة اللحمة بين الكنائس. وقد تكلّلت تلك المساعي في القرن العشرين بولادة الحركة المسكونيّة، وأُطلِق عليها هٰذا الاسم لأنّها تبغي توحيد الكنائس في المسكونة كلّها.

يعود فجر الحركة المسكونيّة إلى سنة ١٩١٠ لدى إقامة **مؤتمر إدِنبرو**، الذي انبثق عنه سنة ١٩٢٥ **المؤتمرُ المسيحيّ العامّ حول الحياة والكلمة**. وبعد

سنتين انعقد في مدينة لوزان **المؤتمر العالميّ الأوّل حول الإيمان والنظام** فتدارس أعضاؤه الأسس اللاهوتيّة التي تُبنى عليها الكنيسة ووحدتها. وتمّ انعقاد ثانٍ لهٰذين المؤتمرين سنة ١٩٣٧، فجرى الاتّفاق على ضرورة دمجهما في هيئة واحدة هي **المجلس العالميّ للكنائس**. وحُرِّر سنة ١٩٣٨ دستور لهٰذا المجلس، إلاّ أنّ الحرب العالميّة الثانية أرجأت الانطلاقة الفعليّة إلى عام ١٩٤٨. واختيرت جنيفا لتكون مقرًّا للمجلس بسبب حياد سويسرا في الشؤون السياسيّة.

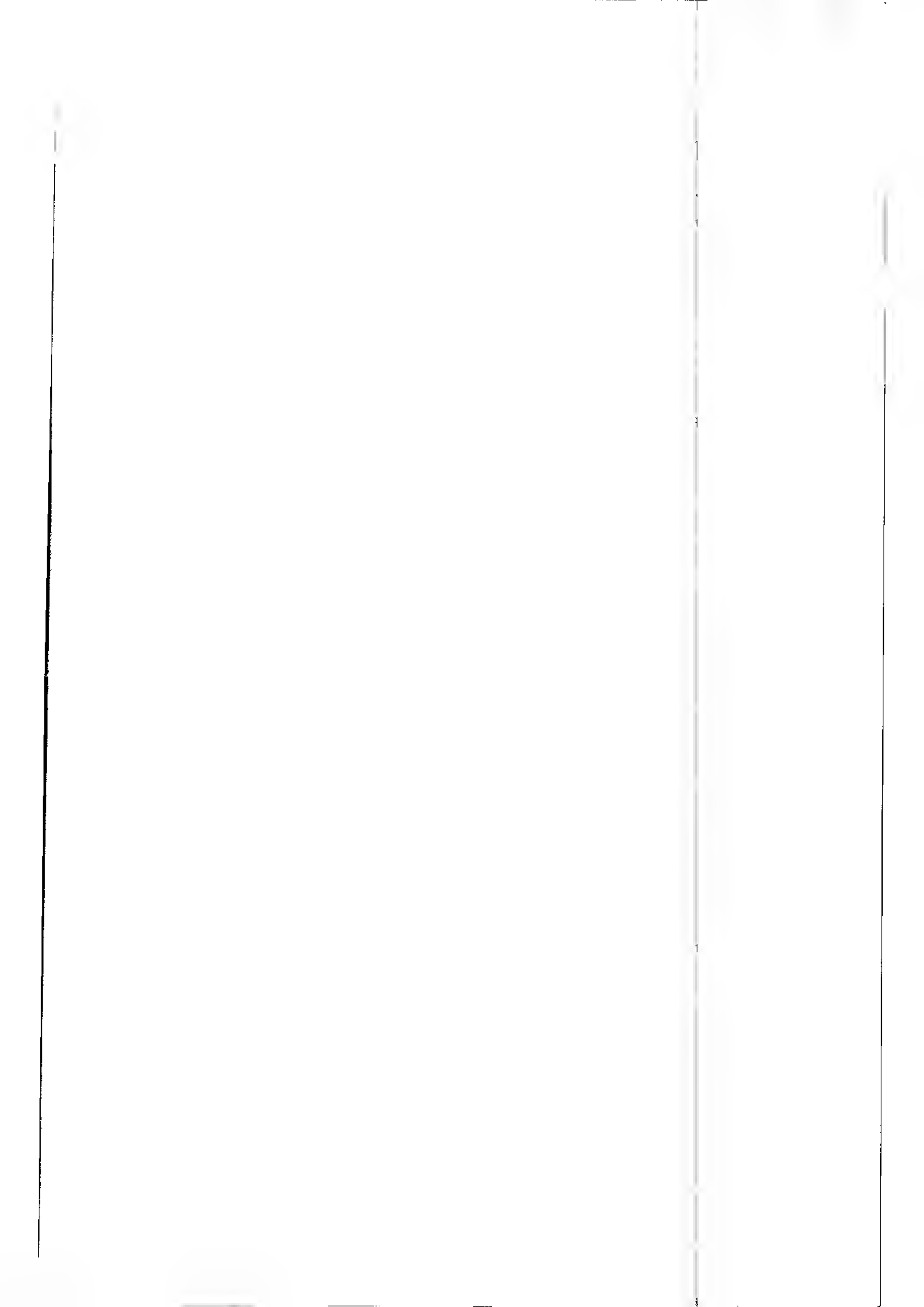
وعلى الرغم من أنّ المبادرات الأُولى جاءت من جانب الكنائس البروتستانتيّة، فالبطريرك الأرثوذكسيّ في إسطنبول وجّه سنة ١٩٢٠ دعوةً إلى جميع كنائس المسيح لتعمل على توثيق العلاقات والتعاون بينها، وانتمى الأرثوذكس إلى المجلس العالميّ للكنائس منذ بدايته، كما أُنشئت في أغلب بلدان العالم مجالس إقليميّة ووطنيّة للكنائس، منها، على سبيل المثال، **مجلس كنائس الشرق الأوسط**.

أمّا الكنيسة الكاثوليكيّة فقد التزمت، في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، العملَ المسكونيّ التزامًا رسميًّا، وأنشأ البابا بولس السادس عامَ ١٩٦٤ أمانةً خاصّةً مهمّتها العمل الدؤوب الفعّال في سبيل الوحدة المسيحيّة الكاملة. ولئن لم ينتسب الكاثوليك إلى مجلس الكنائس العالميّ، فإنّهم يساهمون في العديد من نشاطاته وينتمي بعضهم إلى مختلف لجانه.

وممّا يجدر ذكره أنّ كلّ سنة في الأسبوع الثالث من شهر كانون الثاني/يناير يصلّي المسيحيّون من جميع الكنائس لأجل الاتّحاد، وهم يسعون إلى تعزيزه بالمحاضرات والاحتفالات الطقسيّة المشتركة وما شابه ذٰلك. ومن أبرز الحقول التي يتجلّى فيها التعاون المسكونيّ ترجمة الكتاب المقدّس والدراسات الكتابيّة.

كانت هٰذه نظرةً جدَّ سريعة إلى بعض التطوّرات التي حدثت طوال عشرين قرنًا من تاريخ المسيحيّة منذ مجيء المسيح إلى اليوم. وقد حاولتُ تفسير نشوء مختلف الكنائس الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة والبروتستانتيّة وما قام بينها من

منازعات ، ولعلّي وجدتُ نفسي مضطرًّا إلى المبالغة في التركيز على تلك المنازعات التي حدثت في الماضي وما زالت آثارها ملموسةً في أيّامنا. وإنّها لعَمري ظاهرة مؤلمة تشوّه تاريخ المسيحيّة ، ولا أحد من مسيحيّي اليوم يريد أن تدوم تلك الانقسامات. إلاّ أنّ الانقسام يعود في الماضي إلى قرون عديدة ولا يسهل التغلّب عليه في زمن قصير ، لا سيّما أنّه مرتبط بأمور هي في أساس الإيمان المسيحيّ. وعليه فيسعى المسيحيّون إلى بناء الوحدة بمواقف عمليّةٍ مصدرها المحبّة والصلاة معًا من جهة ، وإلى التعاون في مجالاتٍ شتّى من جهةٍ ثانية ، وهكذا يحاولون تسريع مجيء اليوم الذي فيه تتمّ الوحدة بينهم ، الوحدة في المحبّة على نحو ما أرادها المسيح في عشائه الأخير.



مدخل إلى علم اللاهوت والفلسفة والروحانيّة المسيحيّة

آ - علم اللاهوت

يعني المسيحيّون بعلم اللاهوت (وقد تُستَعمل كلمة «لاهوت» وحدها للاختصار) سائر مظاهر اجتهاداتهم الفكريّة لفهم إيمانهم. ويشدِّد اللاهوتيّون الأرثوذكس على أنّنا لا نعرف عن الله عزَّ وجلّ إلاّ ما أوحاه لنا هو نفسه. وعليه فعلم اللاهوت هو، على وجه التدقيق، «علم الوحي». وإنّه لدى المسيحيّين يشمل مجالاً من الدراسات الدينيّة أوسع من مجال **الكلام** في التقليد الإسلاميّ. ولعلّ الأقرب إلى علم اللاهوت هو ما يدرجه المسلمون في باب **الفقه**.

وممّا يدخل في اختصاص علم اللاهوت: الدراسات حول تعليم الكتاب المقدّس، الاجتهادات لفهم مجموع الحقائق في ضوء التعاليم المسيحيّة، التطوّرات التاريخيّة في صِيغ التعبير عن الإيمان المسيحيّ على مرّ العصور، صياغة ما نعرفه عن الله بواسطة العقل وحده، تبيان معنى القداسة المسيحيّة وطُرُق الوصول إليها، مبادئ الأخلاقيّات وتطبيق التعاليم المسيحيّة عمليًّا في حياة المسيحيّين. وسأحاول تعريف كلٍّ من هذه المجالات المختلفة.

١. علم اللاهوت الكتابيّ

ليس الكتاب المقدّس مصنَّفًا لعلم اللاهوت، وهو لا يستعرض العقائد المسيحيّة استعراضًا منظَّمًا. فمحرِّرو العهد الجديد إنّما **أعلنوا** إيمانهم بيسوع

المسيح ، وقد راعوا في إعلانهم الاحتياجات الخاصّة بالجماعة المسيحيّة في زمانهم ومكانهم.

وكلٌّ من كتّاب العهد الجديد له مفهومه الخاصّ لِما عناه الإيمانُ بيسوع للمؤمن المسيحيّ. ولم يتطرّق إلى العناصر الأُخرى. كلّ منهم كان له اهتماماته وأولويّاته. لذلك فمن الصواب القول إنّ ثمّة لاهوت يوحنّا ، ولاهوت بولس ، ويعقوب ، ومتّى ، الخ. ولمّا كنّا لا نعرف أسماء جميع كتّاب العهد الجديد ، فقد قال العلماء بأنّ هنالك أيضًا ، على سبيل المثال ، «لاهوت صاحب الرسالة إلى العبرانيّين». كذلك يمكن القول إنّ في العهد القديم لاهوت أشعيا ، ولاهوت سفر تثنية الاشتراع ، وسفر الحكمة ، الخ.

ولمزيد من الإيضاح نشير إلى أنّه في لاهوت إنجيل يوحنّا يحتلّ مفهوم كلمة الله الأزليّة المتجسِّدة في الإنسان يسوع مكانًا أساسيًّا. ومع ذلك فهذا المفهوم غير مذكور ، أو مذكور على نحوٍ هامشيّ في كتبٍ أُخرى من العهد الجديد كرسالة يعقوب أو إنجيل مرقس. وفي لاهوت متّى ، فمفهوم يسوع الأساسيّ هو كونه موسى الجديد الآتي بالشريعة الجديدة من لدن الله. أمّا بحسب لاهوت الرسالة إلى العبرانيّين فيسوع هو الوسيط الكاهن الذي كمَّل شعائر الهيكلِ اليهوديّة.

ولم يعبِّر محرِّرو الكتاب المقدّس عن فكرهم اللاهوتيّ تعبيرًا منهجيًّا. فيمكن تلمُّس هذا الفكر من خلال دراسة النصّ الكتابيّ بكلّيّته ، وتفحُّصِ البنية والصياغة الأدبيّة في مختلف مقاطعه ، وتحرّي دوافع الكاتب واهتماماته ، وتوضيحِ ما يرمي إليه في تعليمه. وهذا هو عمل علم اللاهوت الكتابيّ.

إلى ذلك يَدرس علمُ اللاهوت الكتابيّ **مفاهيمَ الإيمان المسيحيّ الأساسيّة** كما تجلّت في مختلف أسفار الكتاب المقدّس ، فيحاول العالِم أن يعرض مضمون ما دوّنه الكتّاب عرضًا منهجيًّا منسّقًا. وعلى سبيل المثال ، من أراد أن يدرس موضوع «السعادة» أو «السلام» في الكتاب المقدّس ، أمكنه ذلك بالرجوع إلى «معجمٍ للاّهوت الكتابيّ» فيجد في حرف «السِين» عددًا من المواضيع مدروسةً ومدرجةً بحسب الترتيب التالي : ساعة ، سبْت ، سَبي ،

سحاب ، سِحر ، سراج ، سرّ ، **سعادة** ، سُكر ، **سلام** ، سلطة ، الخ . وإن هو ابتغى معرفة المزيد حول موضوعَيه ، وجد ضالّته في مصنَّف موسّع من مصنّفات علم اللاهوت الكتابيّ .

ولمّا كان ما جاء في الكتاب المقدّس أساسيًّا للإيمان المسيحيّ ، فسائر العلوم الأخرى التي تمتّ إلى اللاهوت تستند إلى الكتاب المقدّس ، وهي بالتالي لاهوت كتابيّ في أساسها . إلاّ أنّ المسيحيّين يَقْصُرون عبارةَ « علم اللاهوت الكتابيّ » على العرض المنهجيّ للاّهوت المتجلّي في الأسفار الكتابيّة .

٢. علم اللاهوت المنهجيّ (أو النظريّ)

علم اللاهوت المنهجيّ – أو النظريّ – هو الاجتهاد لفهم مجموع الحقائق في ضوء تعاليم المسيحيّة . وهٰذا العلم مؤسَّس على **الفلسفة** ، التي هي تفهّم طبيعة الكون تفهّمًا عقليًّا .

في القرن الثالث أَسَّس إقْليمَنْضُس الإسكندريّ (ت ٢١٥) وأُورِيجانِيس (ت ٢٥٤) نظريّتيهما اللاهوتيّتين على **الفلسفة الأفلاطونيّة** . وجاء بعدهما لاهوتيّون من أمثال أَمبرُوسيُوس (ت ٣٩٧) وأُوغُسطِينُس (ت ٤٣٠) ودِيُونُوسِيُوس (ت ٥٠٠) فاستعانوا **بالأفلاطونيّة الجديدة** كما عبّر عنها أفلوطين وفرفورِيُوس وبرُوكلُس وأسّسوا عليها مفهومهم اللاهوتيّ للإيمان المسيحيّ .

في العصر الوسيط استند علماء اللاهوت الأوروبّيّون إلى الأفلاطونيّة الحديثة التي انطلق منها أُوغُسْطِينُس ودِيُونُوسِيُوس ، وأصدروا نتاجًا هامًّا ضَخمًا عُرِف « باللاهوت المدرسيّ » . وأحدُ أوّل المفكّرين التابعين لهذا المنهج كان جُون سكُوت إرِيجِينا John Scott Erigena (المتوفّى عام ٨٧٧) الذي شدَّدَ على التمييز الواضح بين **السلطة** (الكتاب المقدّس) **والعقل** ، وقال بأنّ الكتاب المقدّس هو للمسيحيّين المصدر الأساس لمعرفة الله ، إلاّ أنّه من واجب العقل ، المستنير بنعمة الله ، أن يَدرس ما تُعلّمه الأسفار المقدّسة ويظهره بطريقةٍ منهجيّة .

وفي القرن الحادي عشر برز أَنْسِلم رئيس أساقفة كانتربري (توفّي

سنة ١١٠٩) وأوضح برنامج اللاهوت المدرسيّ، وقوامه العلاقة بين الإيمان والعقل: «إنّي أومن لأستطيع أن أفهم». إنّه جهد ومحاولة «لنفهم ما نؤمن به».

ومن الأساليب التي لجأ إليها اللاهوت المدرسيّ وطوّرها، لا سيّما بعد زمن أَبِيلار Abelard (توفّي سنة ١١٤٢)، **المجادلة**، وهي مَبنيّة على تناوب «المسألة» والمجادلة نفسها، أي على تقويم الحجج المؤيّدة والحجج المناقضة. وقد بيّنت بعض الدراسات الحديثة أنّ اللاهوتيّين المدرسيّين اقتبسوا أسلوبهم هذا من الأساليب المرعيّة في **الكلام** الإسلاميّ. وتُعتبر **حِكَم** بطرس اللُومبَرديّ (ت ١١٦٠) «ذروة» هذا المذهب في بداياته وخير تعبير له.

وفي القرن الثالث عشر هبّ على اللاهوت المدرسيّ روحٌ جديد بفضل إنتاج **أَلبِرتُس الكبير** (ت ١٢٨٠) وتلميذه **توما الأَكْوِينيّ** (ت ١٢٧٤)، فقد جعلا من فلسفة أرسطو الأساس الفلسفيّ لفكرهم اللاهوتيّ. ولمّا كان تعليم الأكوينيّ على قدر كبير من العمق والرجاحة وبُعد النظر، فإنّ الكنيسة الكاثوليكيّة اعتبرته تعليمها «الرسميّ»، وكثيرون من المسيحيّين يعدّون الأكوينيّ أعظم علماء اللاهوت في تاريخ الكنيسة.

وفي زمن الإصلاح يمكن القول إنّ أهمّ الذين أدلوا بدلوهم في حقل اللاهوت المسيحيّ هما مارتن لوثر وجان كلڤان. أمّا لوثر فقد وضع نهجًا لاهوتيًّا لأجيالٍ متعاقبة من البروتستانت يومَ أَطلق صيحته المعروفة: «الكتاب وحده، النعمة وحدها، الإيمان وحده». وأمّا كلڤان، وهو أذكى مَن عُرِف من لاهوتيّي الإصلاح، فقد اشتهر بمذهب «الاختيار المسبَق» الذي أضحى أحد حجارة الزاوية في التقليد الكلڤينيّ. إلاّ أنّ هذا المذهب وقوله بأنّ الله يخلِّص المختارين مجّانًا، قد لقي في ما بعد معارضةً لدى بعض الكلڤينيّين أنفسهم، من أمثال يعقوب أَرْمِينيُوس (ت ١٦٠٩)، الذي رأى أنّ قدرة الله الشاملة يمكنها أن تنسجم مع حرّيّة الإنسان. وفي هذا النطاق قرّر المجمع التريدنتينيّ أنّ تعليم كلڤان في موضوع الاختيار المسبَق لم يكن مطابقًا للعقيدة المسيحيّة المستقيمة. إلاّ أنّ تعاليم كلڤان وطرْحَها لمسألة التوافق بين قدرة الله

الشاملة وحرّيّة الإنسان ، أثارت الكثير من المجادلات بين اللاهوتيّين الكاثوليك في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فعلماء الرهبانيّة الدومينيكيّة ، بزعامة دُومِنْكُو بانِييث Bañez (✝ ١٦٠٤) ، شدّدوا على أنّ قدرة الله هي أعظَم من كلّ الأحداث ، بما فيها الأعمال البشريّة ، في حين سعى علماء الرهبانيّة اليسوعيّة ، ورائدهم لويس ده مُولينا (✝ ١٦٠٠) ، إلى إثبات حقيقة الحرّيّة البشريّة إلى جانب سلطان الله المطلق. وقد أعلنت الكنيسة أنّ كِلا المذهبين مطابق للتعليم الكاثوليكيّ.

في الكنائس الأرثوذكسيّة ، تزعّم المذاهب اللاهوتيّة العلماءُ الروس واللاهوتيّون الناطقون باليونانيّة. وأهمّ المفكّرين الأرثوذكس في القرن الثامن عشر كان أُوجِينِيُوس بلغارِيس (✝ ١٨٠٦). وُلد في جزيرة كُورفُو وتَضلَّع من الفلسفة واللاهوت في پادُڤا وأضحى مدير الأكاديميّة الجديدة في جبل آثوس. ولكنّ بطريركه اتّهمه بأنّه شديد التأثّر بعقلانيّة الفلاسفة الفرنسيّين أصحاب **دائرة المعارف** ، فاستقرّ في روسيا بمدينة سانت پِترسبُورغ. وقد أصبح كتابه الأساسيّ المعنْوَن **ثِيولُوغِيكُون** Theologikon نموذج كتب اللاهوت المعتَمَدة في التدريس عند الأرثوذكس.

في الزمن المعاصر قامت محاولات جديدة في علم اللاهوت النظريّ ، تستند إلى ما وصلت إليه الفلسفة والعلوم من تقدُّم ، وتتّجه إلى معالجة القضايا الملحّة التي تهمّ إنسان اليوم.

في التقليد البروتستانتيّ احتلّ اللوثريّ كارل بارْت (✝ ١٩٦٨) مركز الصدارة في القرن العشرين. وكان شديد الانتقاد لمعاصريه من رجال الكنيسة المتحرِّرين ، الذين وقفوا من العلم والثقافة والفنّ موقفًا إيجابيًّا ، ونادى بالعودة إلى أهداف الإصلاح الخالصة. وقال بأنّ العقل البشريّ تشوبه غياهب الخطيئة بحيث يستحيل علمُ اللاهوت المستندُ إلى الفلسفة والخبرة ؛ والوسيلةُ الوحيدة التي يمكن الله أن يُتمَّ بها اتّصالَه بالإنسان ، هي كلمته المتجسّدة في يسوع المسيح.

ومن اللاهوتيّين الكبار في التقليد البروتستانتيّ المعاصر : دِيتْرِيش بُونْهُوفِر

(† ١٩٤٥) الذي شنقه النازيّون، وبُول تِيلِتْش († ١٩٦٥)، ورُودُولف بُولْتمان († ١٩٧٦) الذي أثار الجدل بمواقفه اللاهوتيّة، والأخوان نيبُوهر: راينْهُولد († ١٩٧١) وهـ. ريتشارد († ١٩٦٢)، ويُورِكِن مُولتْمَن وڤُولْفهارت پَنِنبرغ وكلاهما على قيد الحياة.

في الكنيسة الأرثوذكسيّة برز في القرن التاسع عشر اللاهوتيّ ڤلاديِمير سُولُوڤييف († ١٩٠٠) الذي ركّز على مفهوم **الصُوفيا**، أي الحكمة (الإلهيّة)، المبدأ المؤنّث، «الفكرة التي هي في بال الله الخالق، والتي يحقّقها في خلقه». وفي النصف الأوّل من القرن العشرين تابع اللاهوتيّان الروسيّان المَهْجَرِيّان س. بُولْغاكُوف (Bulgakov † ١٩٤٥) وپاڤِل فلُورِنْسكي († ١٩٤٣) استثمار فكرة **الصوفيا**، فكانت لهما بذلك مساهمة أرثوذكسيّة فريدة في علم اللاهوت.

ومن اللاهوتيّين الأرثوذكس البارزين في عصرنا: نقولا بِردِياييف († ١٩٤٨)، وجورج فلُورُوڤْسكي († ١٩٧٩)، وألِكسَنْدِر شْمِيمَن وجُون مِينْدُورف، وكلاهما ما زال حيًّا.

أمّا في الكنيسة الكاثوليكيّة، فأعظم لاهوتيّي القرن العشرين هو الراهب اليسوعيّ كارل راهْنِر († ١٩٨٤). تأثّر بفلسفة أستاذه الوجوديّ مارتِن هايْدِغِر، وسعى طوال حياته في أن يعيد بناء تعليم الأكوينيّ بحيث يقوى على انتقادات فلسفة كانْط. وكان راهنر من اللاهوتيّين الذين أثّروا بالغ التأثير في تعاليم المجمع الڤاتيكانيّ الثاني.

ومن كبار اللاهوتيّين الكاثوليك في القرن العشرين: الآباء إيڤ كُونْغار Congar وهنري ده لُوباك de Lubac وهانس أُورس ڤُون بَلْتاسار von Balthasar. وثمّة تطوّر ملحوظ في علم اللاهوت الكاثوليكيّ تجلّى في عصرنا الحاضر من خلال ازدياد عدد اللاهوتيّين غير الأوروبيّين، وقد أثّرت آراؤهم في الكنيسة جمعاء. من هؤلاء ثلاثة لاهوتيّين من أميركا اللاتينيّة هم غُوستاڤو غُوتِيِيريث G. Guttierrez، وجون سُوبْرِينُو J. Sobrino، ولِيونارْدُو بُوفّ L. Boff، كتبوا انطلاقًا من خبراتهم في النضال من أجل الفقراء،

فأدخلوا ما عُرف بلاهوت التحرير، وهو موضوع أثار نقاشات حامية في الكنيسة. ونذكر من اللاهوتيّين الأسيويّين والأفارقة: أَمَلُور پَقَداس Amalorpavadass (من الهند) وپياريس A. Pieris (من سري لانكا) ومُولاغُو V. Mulago (من زائير) وقد أَتوا بمساهمات جديدة لمواجهة المسائل التي تمتّ إلى لاهوت الديانات وشؤون الانثقاف.

بقي أن نقول في ختام هذه الفقرة إنّه من الصعب على مثل عجالتنا أن تورد أسماء جميع الذين برزوا في حقل اللاهوت النظريّ، إلاّ أنّنا نأمل أن نكون قد ذكرنا أهمّ الشخصيّات المعنيّة بالأمر، إلى جانب ذِكرنا مختلف المقاربات الفلسفيّة التي عرفتها الأجيال المتعاقبة.

٣. تاريخ العقيدة (علم اللاهوت التاريخيّ)

يعالج هٰذا البابُ كيفيّة فهم المسيحيّين، عبْرَ تطوّر التاريخ، تعاليمَ ديانتهم. وهو يشمل دراسة:

- تعاليم الباباوات،
- المجامع المسكونيّة،
- المجادلات اللاهوتيّة في الكنيسة،
- مساهمات اللاهوتيّين والمتصوّفين الفرديّة،
- مختلف الحركات التي سعت للتجديد، فنمّت أو جدّدت النظرات إلى الإيمان المسيحيّ،
- تعاليم البطاركة والأساقفة والمجامع المحلّيّة.

وأحد أهداف علم اللاهوت التاريخيّ هو المعرفة الدقيقة لما **أَعلنته** الكنائس المسيحيّة أو **رفضته**. ولذٰلك فمن الأهمّيّة بمكان **فهمُ** التعاليم الغابرة في ضوء **سياقها التاريخيّ**. ويقرّ علم اللاهوت التاريخيّ بأنّ تعليم الباباوات والأساقفة والمجامع واللاهوتيّين ليست جميعها على مستوى واحد من الأهمّيّة ولا تتمتّع جميعها بالسلطة المعنويّة الواحدة، كما أنّه لا ينبغي أن تؤخَذ هٰذه التعاليم بحرفيّتها دومًا. فعلى المؤرّخ أن يحاول تفهّم أوضاع الزمان الذي نشأت

فيه تلك التعاليم ، وفهم الأهداف المبتغاة من ورائها ، وكيف نظر إليها الذين صاغوها ، وعلى أيّ نحوٍ استعملوا الألفاظ والمفاهيم ، وما كانت العناصر السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعرقيّة والشخصيّة التي أثّرت في تعليم الكنيسة هذا.

وعلم اللاهوت التاريخيّ مبنيّ على الاعتقاد بأنّ روح الله ما زال يُرشد خطى الشعب المسيحيّ على مرّ الأزمان. بيد أنّه لا ينبغي الاعتقاد بأنّ كلّ ما قاله المسيحيّون أو فعلوه هو نتيجة لعمل الروح القدس ، فالخطيئة كان لها دور في تاريخ المسيحيّة وظهرت بأوجه شتّى ، كالأحقاد ، والجهل ، والكبرياء والعداوات. فعلم اللاهوت التاريخيّ يحاول رصد تاريخ **هداية الله** إلى جانب **خطايا البشر** في حياة الكنيسة من جيل إلى جيل ، في مختلف الثقافات ومختلف الظروف.

٤. لاهوت الآباء

هناك حقبة من تاريخ الكنيسة تسترعي اهتمام المسيحيّين على نحوٍ خاصّ ، هي فترة آباء الكنيسة الأوائل. وتمتدّ هذه الحقبة بين القرنين الثاني والسادس ، والدراسات اللاهوتيّة الخاصّة التي تتناولها تُعرف **بلاهوت الآباء** أو **الآبائيّات**. والآباء كانوا في الكنيسة المفكّرين واللاهوتيّين الأُول الذين ألّفوا تفاسير الكتب المقدّسة ، ودافعوا عن المعتقدات المسيحيّة في وجه البدع ، وشرحوا القضايا الإيمانيّة وملابساتها ، وسجّلوا الأحداث والمجادلات التي قامت في أزمانهم ، ونقلوا التعاليم المسيحيّة إلى معاصريهم اليهود والوثنيّين.

الآباء الأوّلون كتبوا باليونانيّة ، لغة المثقّفين في تلك العصور. **يُوسْتِينُس** (توفّي عام ١٦٥) هو ، في العرف السائد ، أوّل الآباء. وُلد وثنيًّا ، وقَبْل اعتناقه المسيحيّة سعى للحكمة لدى الفلاسفة تلامذةِ الرواقيّين وأرسطو وفيثاغوراس وأفلاطون. أمّا تلميذه **طَطْيانُس** ، جامع **الدِياطسَّرُون** والمتوفّى عام ١٨٠ ، فهو مختلف عن معلّمه ، وخيرُ ممثِّل للتيّار المناهض للفلسفة في المسيحيّة

الأولى. ومن أهمّ الآباء الأوائل، هناك اثنان عُرفا بالدفاع عن المسيحيّة في وجه الغنوصيّين، هما **إيرينايُوس** (ت. عام ٢٠٠) **وهِيبُّولِيتُس** (ت. ٢٣٦).

ولئن كان إيرينايوس وهيبّوليتوس، شأنهما شأن يوستينوس، متضلّعين من الفكر الفلسفيّ اليونانيّ، إلاّ أنّ بدء الاستناد المنظَّم إلى الفلسفة للتعبير عن الفكر المسيحيّ، كان من نصيب **إقليمنضُس الإسكندريّ** وتلميذه **أورِيجانِيس**. هؤلاء الآباء الأوائل توسَّعوا في علم لاهوت كلمة الله، وقالوا بأنّ هٰذه الكلمة كانت منذ البدء في العالم وقد أعطاها اللهُ حكمةً للحكماء. ورأى إقليمنضس أنّ مجوس الفُرس، وكهنة بلاد الغال، والبرهمان في الهند، وبوذا، وفلاسفة اليونان من أمثال سقراط وهِيراقليطس، هم حكماء قبلوا الحكمة الإلٰهيّة. وكلمة الحكمة تلك، التي منّ بها الله على الحكماء مجتزأةً كما تُعطى البذرة، صارت جسدًا في يسوع الإنسان.

أمّا مساهمة أوريجانيس الرائدة في حقل الفكر المسيحيّ، فقد تجلّت في تفاسيره المسهبة لكلّ سِفر من أسفار الكتاب المقدّس. وكان يسعى من خلال ذٰلك إلى أمرين: أوّلها **الشرح**، أي تحديد معنى النصّ وضبطه، والثاني **التفسير**، أي تفهّم أبعاد النصّ. وكانت مؤلّفات أوريجانيس أساسًا رَكَنَ إليه أغلب الآباء اللاحقين الذين فسّروا الكتاب المقدّس، أمثال **أُوسابِيُوس** السوريّ (ت ٣٥٩)، **وأَمبرُوسِيُوس** أسقف مِيلانو (ت ٣٩٧)، **وهِيرُونِيمُوس** (ت. عام ٤٢٠).

أمّا أوّل الآباء الكاتبين باللاتينيّة فكان **تِرْتُولِيانُس** القرطاجيّ (ت ٢٢٥). فقد ألّف عدّة مصنّفات تدافع عن المسيحيّة تجاه تهجّمات الوثنيّين، وكان من الأوائل الذين حدّدوا المصطلحات المسيحيّة باللاتينيّة. وفي أواخر حياته خرج ترتوليانوس عن إيمانه المستقيم ليلتحق بحركة أُخيريّة تُعرف بالمُونْتانيّة كانت تنتظر المجيء الوشيك لأورشليم السماويّة ويوم الدينونة. وكان ترتوليانوس أوّل من أظهر، بين الآباء، أنّ الكتاب المقدّس وحدة قائمة بين الأسفار اليهوديّة (العهد القديم) والعهد الجديد المسيحيّ، وذٰلك خلافًا

لمَرقِيون ، أحد المسيحيّين البارزين ، الذي رفض أن تكون للعهد القديم أيٌّ من صفات الكتب المقدّسة .

وعُرف من قرطاجة أيضًا ، أبٌ لاتينيّ آخر هو **قِبْريانُس** (ت ٢٥٨) ، وهو أوّل من قال بأنّ الكنيسة إنّما يَسُوسها الأساقفة بطريقة جماعيّة في الشركة مع أسقف روما . وعلى هٰذه النظريّة بنت الكنيسة الكاثوليكيّة مفهومها لدور البابا .

وقد بلغ أدب الآباء ذروته في منتصف القرن الرابع ، بعد مجمع نيقيا المسكونيّ . فلمع في فلسطين نجم **قِيرِلُّس الأورشليميّ** (ت ٣٨٦) الذي عُرف بمواعظه عن الطقوس ومبادئ الديانة ، وهي من الوثائق التي تساعد المؤرّخين على معرفة حياة الكنيسة في المدينة المقدّسة آنذاك . إلاّ أنّ المنطقة التي أنتجت أعظم الآباء اليونان كانت بلاد قَپّادُوقِيا في وسط الأناضول الحاليّة :

أوّلهم كان **باسِيلِيُوس** أسقف قيصريّة (ت ٣٧٩) . تتلمذ على خير فلاسفة عصره من وثنيّين ومسيحيّين ثمّ انصرف إلى حياة النسك . إلاّ أنّ أوسابيوس أسقف قيصريّة استدعاه إليه وما عتّم باسيليوس أن خلفه . واجتهد الأسقف العلاّمة في مؤلّفاته اللاهوتيّة أن ينشر السلام في جماعة مسيحيّة مزّقتها المشاحنات حول طبيعة الله الواحد في أقانيمه الثلاثة ، وحول علاقة يسوع بأبيه .

ثاني الآباء القپّادوقيّين هو **غريغُورِيُوس النَّزِيَنْزِيّ** (ت ٣٨٩) ، صديق باسيليوس الحميم منذ أن درسا الفلسفة معًا في أثينا . نشأ في بلدة نَزِيَنْزا ، بِكَرْلار الحديثة قرب مدينة أَقْسَراي . ساعدت مواقفُه اللاهوتيّة ، على غرار ما فعلتْ مواقف باسيليوس ، في توحيد الكنيسة بعد المجادلات التي رافقت مجمع نيقيا .

وهناك قپّادوقيٌّ آخر عظيم الشأن هو **غريغوريوس النِيصِيّ** (من بلدة نيصي ، مدينة نِوشِهير الحديثة) . كان غريغوريوس (ت ٣٩٥) الأخ الأصغر لباسيليوس وأصبح أسقفًا على نيصي في المدّة التي صار فيها أخوه أسقفًا على قيصريّة . أمّا كتاباته اللاهوتيّة فقد عالجت جميع القضايا المختلف عليها في

أيّامه، وساهمت في معرفة معنى الأسرار المسيحيّة، كما أنّها وضعت أسس لاهوت روحانيّ يشدّد على قيمة البتوليّة.

ومن الآباء اليونان الذين قاموا بدورٍ هامّ لتطوير علم اللاهوت في الكنيسة الأُولى: **يوحنّا الذهبيّ الفم** (ت ٤٠٧)، وأصله من أنطاكيا، والبطريرك **قِيرِلُّس الإسكندريّ** (ت ٤٤٤)، وهو لاهوتيّ بارع ومجادل شديد الشكيمة، يكاد يكون متعصّبًا. وممّن جاؤوا لاحقًا صاحبُ الأثر البليغ **دِيُونُوسِيُوس**، الذي لا نعرف عنه الكثير سوى مؤلّفاته. أمّا في الكنيسة اللاتينيّة، فأهمّ الآباء **أَمْبرُوسِيُوس** (ت ٣٩٧) أسقف مِيلانو، **وأوغُسْطِينُس** الذي اعتنق المسيحيّة بفضل تأثير أمبروسيوس.

وأهمّيّة لاهوت الآباء تكمن في أنّه يوفِّر معرفةَ تَفَهُّمِ الجماعة المسيحيّة الأُولى لعقيدتها في القرون اللاحقة مباشرةً زمنَ الحواريّين. ففي تلك الحقبة تطوّرت الجماعة من طائفةٍ دينيّةٍ صغيرة في الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى أهمّ قوّة دينيّة وفكريّة في تلك المملكة. وما زال المسيحيّون ينظرون إلى كتابات الآباء بكثير من الاحترام، ومؤلّفاتُهم تُدرس في المعاهد اللاهوتيّة في سائر أنحاء العالم المسيحيّ.

٥. علم اللاهوت الطبيعيّ وفلسفة الدين

علم اللاهوت الطبيعيّ هو المحاولة لتحديد ما يمكن معرفته عن الله **بواسطة العقل البشريّ وحده**. وعلى الرغم من أنّ هذا الميدان غالبًا ما يُدرَج في نطاق علم اللاهوت، فهو في الحقيقة من العلوم الفلسفيّة. وهو محاولة لفهم ما يمكن معرفته عن الله وصفاته عن طريق إدراك الحواسّ، والمنطق، وبواسطة اجتهاداتِ العقل البشريّ. وقد طوّر اللاهوتيّون المدرسيّون، من أمثال الأكوينيّ، علمَ اللاهوت الطبيعيّ تطويرًا ملحوظًا، في حين رأى الكثير من المفكّرين البروتستانت، كمثل كانط (ت ١٨٠٤) وكارل بارت، أنّه من الصعب أن نقول شيئًا يُذكر عن الله بمعزلٍ عن الوحي الإلهي.

أمّا فلسفة الدين فقد برزت كميدان قائم بذاته من ميادين الدراسات الفلسفيّة انطلاقًا من عصر الاستنارة الألمانيّ في القرن الثامن عشر. وهي تدرس ظواهر الحياة البشريّة التي تندرج في مقولة «الدين» و«الخبرة الدينيّة»، كما أنّها تبحث في جوهر الدين ومضمونه وجذوره، وقيمته ودوره في الخبرة الإنسانيّة وإعلانه للحقيقة. واللاهوت الطبيعيّ لدى المدرسيّين يختلف عن فلسفة الدين من حيث إنّ الأوّل اعتُبِر تهيئةً فلسفيّةً للاهوت، في حين أنّ الثانية لا تقبل بمثل هذا التمييز، وتقول بأنّها لا تتعدّى كونَها بحثًا علميًّا في قضايا الله والخبرة الدينيّة.

٦. علم اللاهوت الروحيّ (النُسكيّ، الصوفيّ)

هٰذا العلم يحاول فهم عمل نعمةِ الله في حياة المؤمن المسيحيّ. وهو يبحث في:

آ) هدف الحياة المسيحيّة على أنّها اتّحادُ مَحبّةٍ بين المؤمن والله،
ب) مراحل الكمال المسيحيّ،
ج) أساليب الصلاة والتأمّل والمشاهدة الروحيّة،
د) الصعوبات والمخاطر التي يواجهها المؤمن في طريقه إلى القداسة،
هـ) تطبيق الشعائر الروحيّة على ما يُطلَب للعيش يوميًّا عيشةً مسيحيّة،
و) أساليب التمييز بين الدوافع الدينيّة الصادرة عن روح الله وتلك التي مصدرها روح الشرّ أو المسبّبات الأنانيّة في الأشخاص.

وقد طَبع الكُتّاب الروحيّون الكبار التقليدَ المسيحيَّ بطابعهم وخلّفوا فيه أثر رؤاهم الخاصّة وأساليبهم الخاصّة. وتحلّق حول المعلّمين الروحيّين الكبار تلاميذُ عاشوا بحسب تعاليم أساتذتهم ثمّ نقلوا تراثهم إلى الأجيال اللاحقة. وعليه يقول المسيحيّون بأنّ لديهم «روحانيّات» أو تقاليد روحيّة مختلفة. فعلى سبيل المثال، هناك عند الكاثوليك روحانيّة القدّيس مبارك، وروحانيّة القدّيس فرنسيس (الأسّيزيّ)، والقدّيس عبد الأحد، والقدّيس إغناطيوس.

٧. علم اللاهوت الأدبيّ (الأخلاقيّ)

يجتهد هٰذا العلم في إدراك ما يرتبط بالتعاليم المسيحيّة من موجبات خُلقيّة، وهو يدرس ما يعلّمه الكتاب المقدّس على الصعيد الأخلاقيّ، ويحاول توضيح المبادئ التي يرتكز عليها هٰذا التعليم بحيث يستطيع المسيحيّ أن يطبّقها على سائر مظاهر حياته الشخصيّة والاجتماعيّة. وعليه، فعلم اللاهوت الأدبيّ يهتمّ بتحديد **المبادئ** التي يجب أن يستند إليها المسيحيّ في أحكامه الخلقيّة.

وعلم اللاهوت الأدبيّ يدرس القضايا المستحدثة التي لم تُذكر ذكرًا صريحًا في الكتاب المقدّس، كمثل منع الحمل بأنواعه، والمسائل الناشئة عن تقدُّم العلوم الطبّيّة، ومشاكل ميادين التجارة والأعمال، وما يمتّ إلى العدالة الاجتماعيّة، والأساليب الشرعيّة أو غير الشرعيّة في قيادة الحروب، والمسائل الأخلاقيّة المتعلّقة بالاقتصاد الدوليّ. ففي تلك الميادين يحاول علمُ اللاهوت الأدبيّ تبيانَ المبادئ الأخلاقيّة في ضوء ما أورده الكتاب المقدّس، بحيث يتمكّن المسيحيّون من إدراك واجباتهم ومسؤوليّاتهم في العالم المعاصر.

٨. علم اللاهوت الرَعَويّ

يحاول علم اللاهوت الرعويّ أن يرى كيفيّة تطبيق الرسالة المسيحيّة، بخير الطُرق، في تكوين جماعاتٍ مسيحيّة حقيقيّة. ويعالج من هذا المنطلق:

آ) التنشئة المسيحيّة والتعليم الدينيّ،
ب) إعلان الرسالة المسيحيّة،
ج) إرشاد المسيحيّين الواقعين في أزمات والمحتاجين إلى التوجيه،
د) أساليب بناء الجماعات المسيحيّة،
هـ) المظاهر السوسيولوجيّة والأنثروبولوجيّة في الحياة المسيحيّة.

٩. ميادين جديدة في علم اللاهوت

نشأت في عصرنا الحاضر مسائل جديدة دفعت الفكر اللاهوتيّ في اتّجاهات مستحدثة. ومن أبرز تلك الميادين، الثلاثة التالية:

آ) لاهوت الديانات

لاهوت الديانات يدرس العلاقة بين المسيحيّة والديانات الأُخرى. وينطلق من أنّ في عالمنا شعوبًا تسير في سُبل دينيّة مختلفة : اليهود ، المسيحيّون ، المسلمون ، البوذيّون ، الهندوس ، أتباع الديانات التقليديّة ، إلخ. وهو يطرح تساؤلات من النوع التالي :

- كيف يعمل الله في الجماعات الدينيّة الأُخرى؟
- كيف يخلّص الله تعالى اليهود والمسلمين وسواهم؟
- هل من الممكن أن يكون في الديانات الأُخرى أنبياء وكتبٌ مقدَّسة؟
- ماذا ينبغي أن يكون موقف المسيحيّين من أتباع الديانات الأُخرى؟

فعِلمُ لاهوت الديانات يحاول فهمَ الديانات الأُخرى وتقويمَها في ضوء الوحي المسيحيّ ، وهو بذٰلك يختلف عن «علم الديانات المقارَنة» أو تاريخ الأديان ، لأنّه دراسة لاهوتيّة مسيحيّة لِما يمكن معرفته عن الديانات الأُخرى من خلال التفكير المنهجيّ في تعليم الكتاب المقدّس والتقليد المسيحيّ.

ب) لاهوت التحرير

هٰذه المقارَبة اللاهوتيّة الجديدة تنطلق في المقدِّمة التالية : إنّ الله سبحانه يريد خلاص **الإنسان بكلّيّته** ، لا الإنسان في بعده الروحيّ وحسب. ويطرح أسئلةً من النمط التالي :

- ماذا يطلب الكتاب المقدّس من المسيحيّين الذين يواجهون حالات الظلم والقهر؟
- هل يمكن المسيحيّين وهل يجب عليهم أن يلتزموا في حركات ومنظّمات للتحرير تقاوم النُظُم والحكومات القاهرة؟
- ما قيمة تحليل النُظُم والبُنى الاجتماعيّة في تكوين الضمير المسيحيّ؟
- هل العنف خيار صحيح للمسيحيّين؟

ومختصر القول إنّ لاهوت التحرير يدرس التزام المسيحيّين في مسيرة التاريخ على الصعيد الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ. ولمّا كانت منهجيّة علم لاهوت التحرير شبيهة في نواحٍ كثيرة بالتحليل الماركسيّ للنُظم الاقتصاديّة، فإنّ العديد من المسؤولين المسيحيّين عارضوا الحركات والنشاطات المنبثقة من وحي لاهوت التحرير.

ولدينا وثيقتان صدرتا في عامَي ١٩٨٤ و١٩٨٦، بهما حاولت الكنيسة الكاثوليكيّة تقويم لاهوت التحرير. ويمكن اختصار مضمونهما على الوجه التالي:

- ليس لاهوت التحرير لاهوتًا واحدًا، بل عدد من التعابير اللاهوتيّة يوحّد بينها روحٌ مشترك، ألا وهو واقع الظلم والقهر.
- التحليل الاجتماعي، باعتباره وسيلة تقنيّة، هو حياديّ، ويمكن المسيحيّين اللجوء إليه للبلوغ إلى فهم أفضل لتفاعل النُظم الاجتماعيّة.
- لا يمكن المسيحيّين القبولُ بأيّ تحليل للتاريخ مبنيّ على القول بأنّ النظام الطبقيّ هو عنصر لا مفرّ منه في الحياة البشريّة.
- يؤمن المسيحيّون بأنّ الله جلّ جلالُه هو سيّد التاريخ، حاضِرٌ بنعمته في جميع الأمكنة والأزمنة، ويدعو جميع البشر إلى تتميم مشيئته. ومن ثمَّ لا يمكن المسيحيّين أن يقبلوا بأيّ نظرة إلى التاريخ مبنيّةٍ على الحتميّة المادّيّة.
- على المسيحيّين أن يميّزوا بين مقاربتهم من الواقع الاجتماعيّ بالاستناد إلى تعليم الكتاب المقدّس، وهي مقاربة صحيحة وضروريّة، وبين الماركسيّة التي تتستّر وراء التعاليم المسيحيّة.
- من واجب المسيحيّين، أفرادًا وكنائس، أن يلتزموا جدّيًّا تحريرَ الإنسان تحريرًا كاملاً حقيقيًّا.

ج) لاهوت الانثقاف

ينطلق لاهوت الانثقاف من كون المسيحيّين يجدون أنفسهم اليومَ في

بيئات ثقافيّة متعدّدةٍ مختلفة بعضها عن بعض، ويدرس هذا الفرع من اللاهوت العلاقة بين الرسالة المسيحيّة والثقافة. فقد اعتاد المسيحيّون في الماضي، ومثلهم اعتاد غير المسيحيّين، الربطَ بين المسيحيّة والثقافة الأوروبّيّة. أمّا اليوم، فالمسيحيّون الهنود، والأفارقة، والعرب، والفيليبّينيّون وسواهم، يريدون أن يحيوا حياتهم المسيحيّة بالطرق والأساليب التي تناسب تقاليدهم الثقافيّة. وعلى هذا الأساس ينصرف لاهوت الانثقاف إلى دراسة المسائل الآتية وما شابهها:

- ما هو الأساسيّ الجوهريّ في الإيمان المسيحيّ، وما هو العَرَضيّ: هل هو مجرّدُ التعبير أو التطوّر الثقافيّ أو التاريخيّ؟
- عندما يفكّر المسيحيّون من مختلف البيئات في إيمانهم، فما هي الرؤى الجديدة التي يرتأونها ومن شأنها إثراءُ الجماعة المسيحيّة بأسرها؟
- ما هي العلاقة بين الكنيسة المحلّيّة (الوطنيّة) والجماعة المسيحيّة الشاملة؟
- كيف تواجه الرسالة المسيحيّة كلّ ثقافة بمفردها وخصوصيّاتها؟ ما هي القيم التقليديّة والثقافيّة التي تثبّتها. وما هي التي ينبغي لها أن تقاومها وتنبذها؟

ب – الفلسفة

١. أولى لقاءات المسيحيّة والفلسفة

أوّل اللقاءات التي تمّت بين المسيحيّين والفلسفة اليونانيّة لم تكن على كثير من الإيجابيّة. فقد روى سِفر **أعمال الرسل** أنّ بولس كرز في أثينا وجادل فيها الفلاسفة الأبيقُوريّين والرواقيّين، وإذ دُعي إلى التكلّم في ساحة المدينة راح يعرض موجزًا للإيمان المسيحيّ، إلاّ أنّه لمّا شرع بالتكلّم على الدينونة والثواب والعقاب بعد الموت، هزئ به سامعوه وانصرفوا عن الإصغاء إليه. وقد دفع ذلك ببولس إلى أن كتب لاحقًا أنّ الإيمان المسيحيّ مبنيّ «لا على حكمة البشر بل على قدرة الله».

وبعد سنواتٍ قليلة كانت لبولس خبرة أُخرى، أكثر إيجابيّةً، في مدينة أَفَسُس حيث أمضى عامَين يناقش ويجادل كلّ يوم في مدرسة المدعوّ طِيرَنُّس. ويظنّ العلماء أنّ تلك الحقبة كانت المناسبة التي أتاحت لبولس التوصّل إلى خير الطرق لتقريب الرسالة المسيحيّة من أذهان المثقّفين الوثنيّين في الإمبراطوريّة الرومانيّة، وتنعكس خبراته آنذاك في رسالتيه إلى أهل أفسس وأهل قُولُسّي.

وكان المسيحيّون الأوائل ينظرون إلى الفلسفة اليونانيّة بعين الحذر، وفي بعض الأحيان ينبذونها نبذًا مطلقًا. ذٰلك بأنّهم اعتبروا أنّ هذه الفلسفة وديانةَ اليونانيّين الوثنيّة سيّان، ورأوا أنّ الفلسفة ليست إلاّ التعبير الفكريّ عن النظرة الوثنيّة إلى العالم. ومن ثمّ شعروا بأن ليس لهم ما يتعلّمونه من العلوم الفلسفيّة اليونانيّة، وهي عدوّة الإيمان بالله.

إلاّ أنّ الفلسفة اليونانيّة راحت تتطوّر على نحوٍ مختلف في كلٍّ مِن مركزَيها الأساسيَّين: أثينا والإسكندريّة.

ففي **أثينا** أخذت الفلسفة تنحو منحى التحاليل الباطنيّة للأرقام والعلاقات بين عناصر الكون، وتطوّرت المبادئُ الصوفيّة في رياضيّات فِيثاغوراس في اتّجاه الصوفيّة الطبيعيّة. وأضحى التيّار الفلسفيّ المهيمن في مدارس أثينا تيّار **الغنوصيّة**، وهي تدّعي العودة بجذورها إلى **هرمِس ترِسْمِجِسْتِس** (المثلّث العظمة) المطابق للإله المصريّ الحُوت، أبي المعرفة، وتقول بالخلاص من خلال المعرفة السرّيّة.

ولم يقبل المسيحيّون تلك الباطنيّة قطّ، وانبرى الكتّاب المسيحيّون الأوائل في القرنين الثاني والثالث، من أمثال إيرينايُوس أسقف لِيون، وتِرْتُولِيانُس، وهيبُّولِيتُس، فألّفوا المصنَّفات للردّ على الذين أدخلوا المعالم الغنوصيّة في الإيمان المسيحيّ. وركّزوا في ردودهم تلك على المعنى **الظاهريّ** في نصوص الكتب المقدّسة، وهو تقليد في تفسير الكنيسة للأسفار المقدّسة يرقى إلى الرُسُل ويستند إلى حقيقةِ إنسانيّةِ يسوع وصلاح خليقة الله عزّ وجلّ. وفي سنة ٥٢٨، لمّا تمّت سيطرة المسيحيّين على الصعيد السياسيّ، أغلق الإمبراطور يُوستينيانُس مدرسة أثينا لكونها من مخلّفات الفكر الدينيّ الوثنيّ.

أمّا في **الإسكندريّة** فنُظِرَ إلى الفلسفة على أنّها السعي البشريّ إلى المعرفة، وجهدٌ يتجاوز معتقدات الأفراد الدينيّة وممارساتهم. وفي زمن يسوع نفسه، عُرف الفيلسوف الإسكندرانيّ اليهوديّ العظيم **فِيلُون** (٢٠ ق. م. — ٥٠ ب. م.) بتفسيره الفكر اليهوديّ انطلاقًا من ميتافيزيقا أفلاطون. فلا عجب، والحالة هٰذه، أن تكون الإسكندريّة المكان الذي بدأ فيه المسيحيّون استعمال مفردات الفلسفة اليونانيّة ومفاهيمها للتعبير عن التعاليم المسيحيّة.

٢. الأفلاطونيّون المسيحيّون الأوائل

أوّل الفلاسفة المسيحيّين الكبار هو **إقليمَنضُس الإسكندري** (توفّي عام ٢١٥) الذي اعتَبر الفلسفة اليونانيّة هبةً من الله. وكان أكثر انجذابًا إلى آراء أفلاطون منه إلى أفكار أرسطو، بسبب قبول أفلاطون واقعَ عالم الروح. وقد أسَّس في الإسكندريّة مدرسةً لتأهيل معلِّمي الديانة المسيحيّة، كانت الفلسفة اليونانيّة تُدرس فيها. وأصبحت هٰذه المدرسة أهمّ المعاهد اللاهوتيّة في المسيحيّة الناشئة، وكان لها عظيم التأثير في الفكر المسيحيّ آنذاك.

وأعظم العلماء المتخرّجين من مدرسة الإسكندريّة هو **أُورِيجانِيس**، تلميذ إقليمنضُس. خلّف أوريجانيس (ت ٢٥٤) مؤلّفات ضخمة، منها تفاسير **لِحِوارات** أفلاطون، ودراسات للكتاب المقدّس مبنيّة على أسسٍ فلسفيّة. وقد أضحى أوريجانيس مثارًا للجدل في الجماعة المسيحيّة، واعتُبرت بعض كتاباته خارجةً عن المعتقد المستقيم.

وعلى الرغم من تلك التعثّرات، ظلّ المسيحيّون يَدْرسون في معهد الإسكندريّة، إلى جانب اليهود والوثنيّين، حتّى أمسوا أكثر المجموعات عددًا فيها. ولمّا انتقلت المدرسة في ما بعد إلى أنطاكيا في القرن السابع، كان مديرها وجميع معلّميها من المسيحيّين.

ويمكن القول إنّ إقليمنضُس وأوريجانيس هما الحاملان الأعظمان للواء الأفلاطونيّة الخالصة في المسيحيّة الأُولى. وجاء بعدَهما **أفلوطين** (ت ٢٧٠)

فأُعيدت صياغة نظريّات أفلاطون بحيث أبصر النورَ مذهبٌ فلسفيّ جديد هو الأفلاطونيّة المحدثة.

٣. الأفلاطونيّة المحدَثة المسيحيّة

لا حاجة إلى الإطالة في بيان تعاليم الأفلاطونيّة المحدَثة الأساسيّة. ومعروف أنّ بعضها كان له تأثير بالغ في الفلاسفة المسيحيّين والمسلمين اللاحقين. فنكتني بالإشارة إلى مفهوم «الواحد» (الخير)، الذي منه يصدر العالم في سلسلة تراتبيَّة؛ وإلى تشديد الأفلاطونيّة الحديثة على التأمّل في الأحد لأنّه للإنسان الهدفُ الأسمى؛ وإلى قولها بأنّ الأفكار تُزرع في العقل البشريّ، يزرعها «الصانع» Demiurge وهو العقل الفعّال السماويّ. ومن الجدير ملاحظته أنّ تلميذ أفلوطين وناشرَ تعاليمه، **فَرفُورِيُوس** (ت ٣٠٥) كان مقتنعًا أن أفلاطون وأرسطو يقولان أساسًا الشيءَ نفسه. فأدّى ذٰلك إلى التنسيق بين نظريّات كلا الفيلسوفين وإلى النتيجة الحتميّة لمثل هٰذا العمل، ألا وهي الخلط بين الآراء الحقيقيّة لدى كلّ من الرجلين. وممّا جاء في عمليّة الخلط هٰذه أنّ «أرسطو قُرئَ من خلال عينَي أفلاطون».

أعظم الأفلاطونيّين المحدثين المسيحيّين في العصور المتقدّمة هو **أوغُسْطِينُس** (ت ٤٣٠). وُلِد في شمال إفريقيا (في الجزائر الحديثة)، لوالد وثنيّ وأمّ مسيحيّة، وسرعان ما تخلّى عن التعاليم المسيحيّة التي تلقّاها بفضل والدته. درس الحقوق والآداب في روما وأُولع في ما بعد بالفلسفة. وكان يسعى إلى الحقيقة، فمال أوّل الأمر إلى ديانة ماني، سوى أنّه تركها في مرحلة لاحقة وهو في الثالثة والثلاثين، فاعتنق المسيحيّة.

خلّف أوغسطينس الكثير من الكتابات، إذ ظلّ يكتب طوال السنين الثلاث والأربعين التي عاشها بعد ذٰلك، وهو يُعَدُّ أعظم المفكّرين المسيحيّين وأبلغهم أثرًا في تاريخ الكنيسة. ولئن اعتبَر المسيحيّون أوغسطينس لاهوتيًّا قبل كلّ اعتبار آخر، إلاّ أنّه انصرف أيضًا إلى الكتابات الفلسفيّة وسار على نهج الأفلاطونيّة المحدثة وصَبَغَه بالصبغة المسيحيّة، وبفضل مؤلّفاته تبنّت المسيحيّة

في الغرب الفلسفة معتبرةً إيّاها عِلمًا له عندها صفة الشرعيّة. (ويمكن تشبيه الدور الذي أدّاه أوغسطينس في التاريخ المسيحيّ بالدور الذي قام به الكِنْدِيّ في التقليد الفلسفيّ الإسلاميّ).

ويعود الفضل لأوغسطينس أيضًا في تبنّي الفلسفةِ المسيحيّةِ نظريّة الأفلاطونيّة المحدثة في الكون، فأضحت تلك النظريّة لدى المسيحيّين السبيل الأمثل إلى فهم العالم المخلوق. وقد ورث أوغسطينس عن الأفلاطونيّة المحدثة رَفْعَه لشأنِ الروح وحذَرَه من الجسد وعَدَمَ ثقته بكلّ الأمور الأرضيّة. والمرء في رأيه مدعوٌّ إلى تخصيص انتباهه واهتماماته وتأمّلاته وإخلاصه **بمدينة الله**، متحاشيًا التدنّس بمعاطاته شؤونَ **مدينة البشر**، لأنّ «المدينتين» في نظره متناقضتان على مدى التاريخ، إلاّ أنّ الغلبة ستكون في النهاية لمدينة الله.

وهناك اثنان من الفلاسفة المسيحيّين الأوائل يستحقّان الذكر في معرض الكلام على الأفلاطونيّة المحدثة. أوّلهما **بُويثيُوس** (Boethius) – المتوفّى عام ٥٢٤ – وقد حذا حذو أفلوطين في التشديد على التأمّل في الله (الواحد) وقال بأنّ الفلسفة، إذا ما انصرف المرء إليها في حياة هادئة، منعزلة، تراعي جانب التفكير، فهي تقوده إلى معرفة الله. وموقف بُويثيُوس هٰذا من الفلسفة، واعتباره إيّاها مسلكًا فرديًّا تقشّفيًّا، يجعلانه قريب الشبه بالفيلسوف المسلم ابن باجة. أمّا عن مؤلّفات بويثيوس، فقد نقل إلى اللاتينيّة كتابات أفلاطون وأرسطو وفرفوريوس، وصنّف كتابًا عن الفلسفة للطلاّب، وسائرُ هٰذه الأعمال كان لها بالغ الأثر في نشأة الفلسفة المدرسيّة في القرون اللاحقة.

أمّا الفيلسوف الثاني، فهو **دِيُونُوسِيُوس**، الملقَّب «بالأَرِيُوباجيّ». فقد فاق أُوغسطِينُس وبويثيوس في محاولته الدمج المنهجيّ بين الأفلاطونيّة المحدثة والمسيحيّة. ولا يُعرف عن اسمه وحياته سوى ما أوردناه. ولمّا كان أوّل ذِكر لمؤلّفاته جاء في شهادة لبطريرك أنطاكية سنة ٥١٣، فمن المقدَّر أنّه كتَب حوالى السنة ٥٠٠ في سورية.

قال ديونوسيوس بأنّ هدف الحياة المسيحيّة هو الاتّحاد في الصميم مع الله بواسطة تأليه الإنسان بالتدريج. ويتمّ ذٰلك في عمليّة «عدم التعرُّف» إذ

يَترك المرء جانبًا تلمّسات الحواسّ ، ثمَّ تفكيرَ العقل ، إلى أن تستنير نفسه بشعاعٍ من نعمة الله تعالى.

وقد غدت كتاباتُ هٰذا الفيلسوف المجهول الدليلَ للمتصوّفين المسيحيّين ، لا بل عُدَّت أوّلَ خلاصة جامعة لعلم اللاهوت الفلسفيّ المسيحيّ. والسواد الأعظم من المفكّرين المسيحيّين ، سواء في الشرق أو في الغرب ، كتبوا تفاسير لمؤلّفات ديونوسيوس.

٤. الفلسفة المدرسيّة

وُلدت الفلسفة المدرسيّة المسيحيّة مع تمخّضات عصر الظُلمات في الغرب (بين القرن السادس والقرن التاسع) حيث قُيِّض للفكر الفلسفيّ اليونانيّ أن يُحفظ خاصّة في الأديرة الإيرلنديّة والبِنِدِكتِيّة. كانت التربية في مدارس الرهبان إبّان العصر الوسيط مبنيّةً على مرحلتين من الدراسة ، أُولاهما مرحلة «السُبُل الثلاثة» Trivium – ويُدرس فيها الصرف والنحو ، والخطابة ، والجدل – ، والثانية مرحلة «السُبُل الأربعة» Quadrivium – ويُدرس في أثنائها الرياضيّات ، والهندسة ، وعلم الفلك ، والموسيقى –. وكانت هٰذه التنشئة تقود الطلاّب إلى التعمّق في مبادئ الحياة والكون. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هٰذا المنهج الدراسيّ اعتُمِد في المدارس الإسلاميّة ، لا سيّما في إيران ، بتأثيرٍ من ابن سينا ، وما زال متَّبَعًا في مدارس مدينة قمّ.

ومن إنجازات تلك الحقبة أنّ المؤلّفات اليونانيّة نُقِلت إلى اللاتينيّة ، وأُلِّفت لها التفاسير ، ودُرست تلك التفاسير وأُنشئت تفاسير للتفاسير. وعُرِضت أفكارٌ جديدة وصُقِلَت الأفكار القديمة ، وبذٰلك حقّقت الفلسفة تقدّمًا ملحوظًا. (ولا يخلو من الفائدة القيام بمقارنة بين ما جرى في الغرب من هٰذا القبيل وما أُنجز على الصعيد نفسه وإبّان الزمن عينه في مراكز الفكر الإسلاميّ كبغداد ودمشق وهمذان ونيسابور).

أحد أوائل المدرسيّين الكبار هو **جُون سكُوت إريجِينا** (ت ٨٧٧) ، وقد حاول التوفيق بين مفهوم الأفلاطونيّة المحدثة للفيض وتعليم المسيحيّة في الخلق ،

والتزم في مؤلّفاته – التي اشتبهوا بعد موته أنّها مشوبة بالحلوليّة – جانب تعاليم الأفلاطونيّة المحدثة حول الفَيض والرجوع ليبيّن أنّ ابتداءَ العالم المخلوق وانتهاءه هو الله. وقد ساهم سكُوت مساهمةً مهمّةً في تدعيم أُسس الفلسفة المدرسيّة بنقله مؤلّفات ديونوسيوس وسواه من المفكّرين المسيحيّين اليونان إلى اللاتينيّة، وبإدخاله تلك المؤلّفات إلى المدارس.

أمّا عصر الفلسفة المدرسيّة الذهبيّ فقد بدأ مع **أَنْسِلْم** أسقف كانْتِربري (ت ١١٠٩). وقد أوضح هٰذا المفكّر هدَفه على النحو التالي: «إنّي أومن بأنّي أستطيع الفهم»، أي أنّه يجب **على المؤمن أن يجتهد في أن يفهم ما يؤمن به**. وآثر أنسلم الدفاع عن تعاليم المسيحيّة بالاستناد إلى العقل، على الرجوع إلى الكتاب المقدَّس، وكان أوّل المدرسيّين في القول بـ«البرهان الأُونطولوجيّ» لإثبات وجود الله[1].

٥. تأثير الفلاسفة المسلمين

في بدايات القرن الثاني عشر هبّت على الفلسفة المسيحيّة ريحٌ منشّطة مَصدرها نقلُ مؤلّفات كبار الفلاسفة المسلمين إلى اللاتينيّة. تمّت أُولى تلك الترجمات في بلاط الملوك النورمانديّين بمدينة پالِرمُو (صِقِلّيّة) وعلى يد جماعة اليهود في مدينة ناپُولي. وَقد نقل المسيحيّون الكتابات العربيّة إلى اللاتينيّة مباشرةً، كما حصل في پالرمو، أو مرورًا بالترجمات العبريّة التي قام بها اليهود قبلهم. وبذٰلك أخذ الفلاسفة المدرسيّون المسيحيّون يتعرّفون إلى أعمال الكِنديّ والفارابيّ وابن سينا والغزّاليّ وابن باجة وابن طفيل وابن رشد، وراحوا يتعمّقون في دراستها ومناقشتها.

وعلى خطّ آخر نُقِلت إلى اللاتينيّة مؤلَّفات المسلمين في الميادين العلميّة

---

١. يُختصَر هٰذا البرهان على النحو التالي: مجرَّدُ التفكير بأنّ ثمّة كائنًا أعظم، هو البرهان على أنّ هٰذا الكائن موجود لا في الفكر فقط، بل بالفعل أيضًا (الناقل).

كالطبّ والفلك والرياضيّات، وانتشرت انتشارًا واسعًا. وباتت مصنّفاتُ ابن سينا وجابر والرازيّ مراجعَ أساسيّة اعتمدها المسيحيّون في أوروبّا طوالَ قرون[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ أوّل الفلاسفة المدرسيّين الذين تعلّموا العربيّة كان **بطرس اللومبَرديّ** (ت ١١٦٠)، ولم يكتفِ بتعلُّمها لنفسه بل شجّع تدريسها في المدارس ليتسنّى للطلاّب قراءة مؤلّفات الفلاسفة العرب دون وساطة الترجمات. وكان بطرس اللومبرديّ كبير المفكّرين المسيحيّين الناهجين نهج الأفلاطونيّة الحديثة والأوغسطينيّة. وكان كتابه **الحِكَم** أهمّ الكتب لدراسة اللاّهوت الفلسفيّ المسيحيّ حتّى ظهور **الخلاصة اللاهوتيّة** لمؤلِّفها توما الأكوينيّ. ولمّا كان اللومبرديّ معاصرًا لابن طفيل وابن رشد، فلم يتسنَّ له الاطّلاع على تفاسير ابن رشد لأرسطو، وبذلك كانت كتاباته نقطة النهاية إلى حدٍّ ما – للفكر الأفلاطونيّ الحديث قبل ظهور فكر أرسطو في أوروبّا.

٦. إعادة اكتشاف أرسطو

حوالى السنة ١٢٣٠ اكتشفت أوروبّا المسيحيّةُ الفكر الأرسطويّ الخالص عن طريق ترجمات تفاسير ابن رشد إلى اللاتينيّة. وظهرت في هذا الشأن ردّات فعل ثلاث بين المدرسيّين:

آ) الأوغسطينيّون التقليديّون رفضوا أرسطو لكونه مادّيًّا تتنافى نظريّاته مع الإيمان المسيحي كلَّ التنافي.

ب) أنصار ابن رشد اللاتينيّون، وفي طليعتهم **سيجر البَرَبانْتِيّ** الأستاذ في جامعة باريس، تبنّوا مقاربة ابن رشد من العلاقة بين **العقل والنقل**، وقالوا بأنّ العقل هو القوّة الأولى التي تخوّل الإنسان بلوغ المعرفة. أمّا الوحي فهو يتيح

[1]. جابر هو جابر بن حيّان (ت ٨١٥)، من علماء الكيمياء. والرازيّ المذكور هنا هو أبو بكر محمّد بن زكريّا الرازي (٨٦٤–٩٣٢) أحد كبار أطبّاء الإسلام وفلاسفتهم. أمّا ابن سينا فمعروف أنّه برع في الطبّ على نحو ما برع في الفلسفة (الناقل).

لعامّة الناس التقرّب، عن طريق الرموز والقصص والصور، من الحقيقة.

ج) الواثقون بأنّه يمكن التوفيق بين فلسفة أرسطو والإيمان المسيحيّ، قالوا بأنّ تلك الفلسفة توفّر للّاهوت خير الأسس الفلسفيّة وأنسبها.

وكان الأوّل بين أساطين المعلّمين في الخطّ الفكريّ الثالث **أَلبِرتُس الكبير** (ت ١٢٨٠). وقد صنّف، شأنه شأن ابن رشد، تفاسير لسائر مؤلّفات أرسطو المعروفة، ووضع لنفسه هدفًا، لكأنّه هدف العُمر، هو تقريب أرسطو من أفهام المسيحيّين الناطقين باللاتينيّة، وإقامة البرهان على أنّ فلسفة أرسطو تستطيع أن تكون مستندًا سليمًا لعلم اللاهوت المسيحيّ. وخلّف ألبرتُس الكثير من المؤلّفات الفلسفيّة واللاهوتيّة الخطيرة، وما زالت حتّى اليوم موضوع دراسة الباحثين والعلماء. إلاّ أنّ هٰذا المعلّم العظيم ما عتّم أن شحُب نوره لمّا سطعت شمس تلميذه النابغة، تُوما الأَكوينيّ (ت ١٢٧٤).

٧. تُوما الأَكوينيّ والتومائيّة الأرسطويّة

التمييز بين العقل والإيمان أمر أساسيّ بحسب توما. فعلى الرغم من أنّ حَقلَ المعارف التي يمكن إدراكها عن طريق العقل هو حقل واسع، إلاّ أنّ هنالك بعض الأمور التي يستحيل معرفتها سوى عن طريق الوحي. فالحقائق الموحاة غير خاضعة لبرهان العقل، إلاّ أنّه من الممكن البيان، بواسطة العقل، أنّ تلك الحقائق ممكنة. والحقيقة الموحاة لا يمكنها مناقضة العقل، ولكنّ بعض عناصر الإيمان تفوق قدرة العقل.

لقد طبّق توما نظريّة أرسطو في المادّة والصورة على سائر أوجه العالم المخلوق: (المادّة والصورة، الوجود والماهيّة essence، الفعل والقوّة، الجوهر والطبيعة). ففي الله الماهيّة والوجود واحد، إذ إنّ الله فِعل محض. وقال توما ما سبق أن قاله ابن سينا، إنّ وجود الله هو نتيجة حتميّة لطبيعته. فالله ضروريّ في ذاته. ولمّا كانت كلّ معرفة تنطلق من المعرفة الحسّيّة، فقد بنى توما

براهينه العقليّة الخمسة المشهورة لإثبات وجود الله، على ملاحظة العالم المخلوق، ومن ثمَّ وصل بواسطة العقل إلى ضرورة وجود الله.

وانطلق توما من ابن رشد أيضًا ليصوغ رأيه القائل بأنّ المعرفة هي من صنع الفكر داخلَ الفكر ولا يزرعها عاملٌ من الخارج. وابتعد عن تقليد الأفلاطونيّة المحدثة بقوله إنّ العقل الفعّال هو غير «الصانع» أو الملاك جبريل، على نحو ما ارتآه الفارابي وابن سينا، بل هو وظيفة من وظائف العقل البشريّ.

وكان لفكر الأكوينيّ من قويّ الحجج وتماسُك الطروحات وتناسقها ما جَعل طريقتَه الأرسطويّة سائدةً لدى الكاثوليك حتى يومنا هذا. إلاّ أنّ الأوغسطينيّين أنصارَ الأفلاطونيّة المحدثة، لم يُخلوا الساحة. وكان زعيمهم في العصر الوسيط **بُونَفِنْتورا** (ت ١٢٧٤)، فركّز على أولويّة الإرادة خِلافًا للأكوينيّ، كما شدّد على اعتبار كلّ حكمةِ البشر جَهالةً إذا ما قورنت بما يُفيضه الله تعالى من نور على الإنسان الذي يقترب منه بمحبّة وإيمان (قابِل ذلك بمفهوم **الذوق** لدى أصحاب الإشراق كالسهرورديّ).

أمّا التيّار الفكريّ الثالث، المتجلّي في أَتباع ابن رشد من اللاتين، والقائل بأنّ العقل هو السيّد وبأنّ الحقيقة الموحاة ليست سوى تصوّر رمزيّ جُعل لغير المثقّفين، فقد تابع مجراه في الجامعات الأوروبيّة الكبرى، كجامعتَي باريس وپادُوْا، ويمكن اعتباره إرهاصًا للمذاهب الحديثة في الفلسفة الأوروبيّة، كالعقلانيّة والوضعيّة والعلميّة. كما أنّ كثيرًا من كتّاب تاريخ الفلسفة يرون أنّ الجذور الفكريّة لأَنَسِيَّة النهضة ولعصر الاستنارة في ما بعد، ترقى إلى أتباع ابن رشد اللاتين.

وفي زمن النهضة حصل أنّ الكثير من المثقّفين في أوروبّا «أعادوا اكتشاف» أفلاطون وحاولوا إحياء فكره ردًّا منهم على ما آلت إليه الأرسطويّة التومائيّة آنذاك من مبالغة في المنهجيّة. وكان أحد ألمع فلاسفة هذا التيّار الأفلاطونيّ المتجدّد **جورج جِمِسْتُس پليثُون** G. Gemistus Plethon

(ت ١٤٥٠). وُلد في إسطنبول وأنشأ في مدينة فِيرِنْزِه الإيطاليّة مدرسةً لتدريب الطلاّب على الفلسفة الأفلاطونيّة الخالصة.

وكان أحد تلامذة بليثون، المدعوّ مَرْسِيلِيُو فِنْشِينُو Ficino (ت ١٤٩٩)، أبلغَ أثرًا من معلّمه في تحدّي الهيمنة الأرسطويّة على الفلسفة في أوروبّا. وقد أعدّ ترجماتٍ جديدةً لاتينيّة لأهمّ مؤلّفات أفلاطون، وأشرف على إدارة المدرسة حتّى وفاته. وكانت له محاولة مستحدثة للمؤالفة بين الإيمان المسيحيّ والفكر الأفلاطونيّ. ممّا أثّر عميق التأثير على العديد من علماء عصر النهضة. ففي إنكلترا خاصَّةً قام بعض المفكّرين المسيحيّين كمثل جُون كُولِيت Colet (ت ١٥١٩) وجون فِيشِر Fisher (ت ١٥٣٥) وتُوماس مُور More (ت ١٥٣٥) و «أفلاطونيُّو جامعة كيمبردج» في القرن السابع عشر، بدمج أنَسِيَّة النهضة والفكر الأفلاطونيّ حول السياسة والأخلاق وعلم النفس في عَرْضِهم الإيمَانَ المسيحيّ.

ولا يسعنا الآن الخوض في سائر تيّارات الفلسفة الحديثة التي برزت في العالم المسيحيّ منذ دِيكارْت (ت ١٦٥٠). وعلى الرغم من أنّ عددًا كبيرًا من فلاسفة الغرب كانوا مسيحيّين مؤمنين، على غرار ديكارت نفسه، فالجهد الجماعيّ لبناء «فلسفة مسيحيّة» وصل إلى خطّ النهاية بعد عصر النهضة. ومن أسباب هذا الوضع الجديد: ١) الشكّ في صحّة «علم اللاهوت الطبيعيّ»، مع ما نتج عن ذلك من طلاق بين العقل والإيمان؛ ٢) توجّهات الفلسفة الوضعيّة لقصر البحث الفكريّ على الوقائع الملحوظة. يُضاف إلى ذلك إخفاق الفلسفة المدرسيّة في المحافظة على قدراتها الخلاّقة في العالم الصناعيّ، ممّا حوّلها إلى مجموعة جافّةٍ جامدةٍ من الكتابات الفلسفيّة.

وفي قرننا الحاضر برزت تيّاراتٌ فكريّة وجوديّة تعود إلى الفيلسوف اللوثريّ الدانمركيّ سُورِن كِيرككارد Kierkegaerd (ت ١٨٥٥) وقد حملت آمالاً وطيدة في توفير منطلق فلسفيّ لإدراك الواقع والحياة الإنسانيّة إدراكًا مسيحيًّا حديثًا.

ج – الروحانيَّة والتصوّف

١. التصوّف في التقليد المسيحيّ

يمكن تحديد التصوّف بأنّه معرفة الله المباشرة يَصل إليها الإنسان في هٰذه الحياة بوساطة الخبرة الدينيّة الشَخصيّة. إنّه حالة صلاة قوامها اثنان: أوقاتٌ وجيزة يشعر المرء في أثنائها بـ «لَمْسٍ» إلهيّ، واتّحادٌ دائم بالله يُعرف في بعض الأحيان بـ «الزواج الروحانيّ». ويتّفق المتصوّفون على أنّ البرهان الذي يؤكِّد صحّة الخبرة الصوفيّة هو النموّ في الفضيلة على أنواعها، كالحبّ والتواضع والخدمة.

يعترف التصوّف المسيحيّ بأنّ الله سبحانه هو في آن واحد **متعالٍ وحاضر**. وفي تعليم المتصوفين المسيحيّين المستقيمي الرأي، لا وجود لمفهوم الذوبان في الله، فالتصوّف المسيحيّ «ثنائيٌّ» دائمًا، وفي نظره الوحدة الروحانيّة مع الله هي اتّحادُ حبّ وإرادة يظلّ فيها التمييز بين الخالق والمخلوق أمرًا ثابتًا لا جدال فيه.

الأحلام، والرؤى، والانخطافات، والغيبوبة، مظاهرُ لا يندر أن ترافِق خبرة المتصوّفين المسيحيّين، ولٰكنّها غير أساسيّة فيها. ويقول بعض المتصوّفين بأنّ مثل تلك الظواهر الخارقة تتوقّف عادةً عند البلوغ إلى درجات رفيعة من الخبرة الروحانيّة.

أمّا موقف المسيحيّين من التصوّف، ففيه تباين. ذٰلك بأنّ بعض المفكّرين البروتستانت، ومنهم راينْهُولد نِيبُوهر Niebuhr (ت ١٩٧١)، يرون أنّ التصوّف **انحراف** عن رسالة الإنجيل، لأنّ تلك الرسالة إنّما هي تسعى إلى توطيد جماعةٍ بشرية في عالم يَهديه الله بهديه. وعلى نقيض ذٰلك، ثمّة بعض المفكّرين، من أمثال بِرْدِيايِيف، يعتبرون أنّ خبرة التصوّف هي **جوهر** المسيحيّة.

ومهما يكن من أمر، فأغلب المسيحيّين متّفقون على أنّ بعضًا من التصوّف هو جزء من حياة كل مسيحيّ حقّ. والكنائس الكاثوليكيّة

والأرثوذكسيّة تُجلّ متصوّفيها عظيم الإجلال، وكثير من المتصوّفين الكبار هم في عداد قدّيسيها، ومؤلّفاتهم تُدرس ويؤخَذ بتعاليمها، وحياتهم تُعتبَر مثالاً يُحتذى. والبروتستانت أنفسهم، على الرغم من تحفّظهم تجاه التصوّف، لم يُعدموا في صفوفهم بعض المتصوّفين.

وتأثير التقاليد التصوّفيّة في المسيحيّة هو من الأهمّيّة بحيث يصعب اعتبار المتصوّفين فرقةً منفصلةً عن الجماعة المسيحيّة، أو اعتبار نهجهم مختلفًا عن نهج المسيحيّة الأصيلة. أمّا الأسس الكتابيّة لحياة التصوّف، فيجدها المسيحيّون على وجه الإجمال في الأناجيل، لا سيّما إنجيل يوحنّا، وفي مقاطع من رسائل بولس، وفي سفر الرؤيا.

وغالبًا ما يتكلّم المسيحيّون عن «الروحانيّات» (لا بمعنى الشؤون الروحيّة، بل بمعنى صيغة الجمع للمفرَدة «روحانيّة») أي عن طُرُقٍ ونُهُجٍ في الحياة المسيحيّة تشمل عادةً عناصر تمتّ إلى التصوّف. وكلّ تقليد روحيّ في المسيحيّة يهدف إلى اتّباع ما تعلّمه الأناجيل اتّباعًا كاملاً، وهو يسمّى، لهذا السبب، نَهجًا إنجيليًّا. ويمكن القول إنّ «الروحانيّة» هي برنامج للتقيّد داخليًّا بما يترتّب على المرء إن هو أراد أن يتبع يسوع في سائر نواحي حياته. ومن هذا المنطلق، فهناك «روحانيّة» مسيحيّة واحدة، ألا وهي الاستجابة التامّة لكلّ ما يعلّمه الكتاب المقدّس.

والروحانيّة المسيحيّة تعني أنّ الاستجابة لله عزّ وجلّ لها بُعْدٌ «عموديّ» وبُعد «أفقيّ»، لا يمكن أحدهما أن يغيب عن الحياة المسيحيّة المتكاملة. والبُعد العموديّ هو بُعد العبادة والصلاة وقيام المسيحيّ بواجباته تجاه الله. أمّا البُعد الأفقيّ فيشمل مسؤوليّات المسيحيّ تجاه نفسه وتجاه الآخرين والمجتمع، وهي مسؤوليّات يكون العنصر الدافع والموحِّد فيها عنصر المحبّة والخدمة.

علّم يسوع الجموع أنّ مجمل الشريعة وأقوالِ الأنبياء يُختصَر في وصيّتين. الأولى هي: «أحببِ الربَّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ ذهنك»، والثانية هي «مِثلُها: أَحببْ قريبك حبَّك لنفسك». إنّ وصيّة المحبّة هذه هي مركزيّة أساسيّة في المسيحيّة، ممّا دفع بولس الرسول إلى القول إنّ

المرءِ يستطيع أن يكون عالِمًا بجميع أسرار اللاهوت، وأن ينقل الجبال، وحتّى أن يموت شهيدًا في سبيل إيمانه، إلاّ أنّه إن لم يقُم بهٰذه الأعمال وفيه المحبّة، فسعيه كلُّه باطل.

وعلى الرغم من أنّ هنالك روحانيّة مسيحيّة واحدة في أساسها، يسعى إليها الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، إلاّ أنّ التاريخ المسيحيّ عَرَف تنوّعًا كبيرًا في طرائق التصوّف ومذاهبه، فشدَّد بعضها على نقاط معيَّنة من رسالة الكتاب المقدّس، أو ركّز بعضها الآخر على وسائل خاصَّة للسير بموجب الإنجيل. ولئن كنتُ لا أستطيع الآن، وفي نطاق هٰذا المؤلَّف، كتابة تاريخ الروحانيّات المسيحيّة على نحوٍ وافٍ، إلاّ أنّي سأحاول التعريف ببعضٍ من أهمّ تلك الروحانيّات وأشدّها تميّزًا.

٢. الحركة الرهبانيّة في بداياتها

منذ أيّام الرسل كان هناك بعض المسيحيّين قد اختاروا اتّباع المسيح في حياة التبتّل والتقشّف. فيسوع نفسه لم يتزوّج قطّ، وقد علَّم أنَّ ثمّة من يظلّون على البتوليّة في سبيل «ملكوت الله»، علمًا أَنَّ أغلبيّة الرسل، بمن فيهم بطرس، كانوا متزوّجين، في حين كان بولس بتولاً، وحالته نادرة. وفي البداية كانت البتوليّة مرتبطةً بالاعتقاد بعودة يسوع الوشيكة وبمجيء اليوم الأخير، إلاّ أنّه، مع مرور الزمن، ولمّا تبيّن أنّ مجيء يسوع الثاني لم يكن وشيكًا، اختار بعض المسيحيّين البتوليّة علامةً للحياة الجديدة التي ينبغي إيجادها في المسيح، وللعلاقات الجديدة ضمن الجماعة المسيحيّة، وهي علاقات مبنيّة لا على وشائج الدم والقرابة، بل على الإيمان بالله.

ولا بدّ من التذكّر أنّه، منذ أيّام الرسل، كانت الحياة الزوجيّة، في نظر المسيحيّين، الحالة الطبيعيّة لاتّباع المسيح وتأدية الشهادة لتعاليمه. والبتوليّة كانت وما زالت، طوالَ تاريخ المسيحيّة، سبيلاً استثنائيًّا لعددٍ محدودٍ من المسيحيّين يشعرون بأنّهم مدعوّون دعوةً خاصّة إلى السير فيه ليحيوا حياتهم الإيمانيّة.

وفي القرون الأولى حيث عصفت الاضطهادات الهوجاء، كوّن المسيحيّون جماعةً صغيرة مشدودةَ الروابط اتّبعت طريق الإنجيل وسطَ المخاطر الجسيمة تحيط بكل من الأفراد. ولكن، لمّا أصبحت المسيحيّة، في زمن قسطنطين، دينَ الدولة، واعتنق أغلبيّةُ سكّان الأمبراطوريّة الرومانيّة الإيمان المسيحيّ، بات من الطبيعيّ أن تتدنّى المستويات، وراح الكثير من المسيحيّين يعيشون على نحوٍ لا يعكس تعاليم يسوع ومثالَه. ومن هٰذا الوضع الاجتماعيّ المتبدّل نتجت الحركة في اتّجاه الترهّب في الصحراء. ومعلوم أنّ اليهود سبقوا المسيحيّين في هٰذا المجال إذ قامت عندهم قبل المسيح جماعات الإسّينيّين، وكان لها أديرة بالقرب من قمران على شاطئ البحر الميت. وكانت تلك الجماعات ترى أنّ المجتمع العلمانيّ شريرٌ لا يمكنه الخلاص، وتحاول أن تُبعد أعضاءها عن التجارب وفساد المجتمع باللجوء إلى طريقتهم الخاصّة والعيش في الصحراء.

وفي القرنين الثالث والرابع سَلَكَ بعضُ المسيحيّين تلك الطريق نفسها، فتركوا المدن كالإسكندريّة وأنطاكية، وطلبوا العزلة في البرّيّة ليعيشوا فيها عيشة التوحّد والصلاة والتقشّف. وما كانَ يذيع صيت أحد الرهبان القدّيسين المقيمين في خلوة الصحراء، حتّى يتوافد عليه الكثيرون بغية استرشاده والتتلمذ عليه وإمضاء الوقت معه في الصلاة. وكان بعضهم يختار البقاء معه ليعيش على غراره مقتديًا بمثاله. وهكذا قامت حول صوامع النسّاك والمتوحّدين أُولى الجماعات الرهبانيّة ذات الحياة المشتَرَكَة.

وهٰذه الظاهرة بدأت أوّلَ ما بدأت في برّيّة مصر، ثمّ سرعان ما انتشرت في المناطق الصحراويّة بسورية والجزيرة العربيّة. ومن أوائل المصريّين النسّاك **أنْطُونيُوس** (ت ٣٥٦) **ومقّار** (ت ٣٩٩)، وقد مارسا أشدّ صنوف التقشّف. أمّا **باخُومِيُوس** (ت ٣٤٦) فقد استقطب حوله رفاقًا وتلاميذ وبنى تسعة أديرة في كلّ منها مائةُ راهب. وكان باخوميوس أوّل من دوّن قانونًا لتنظيم الحياة الرهبانيّة الجماعيّة.

في مقابل ذٰلك اختلف مفهوم الحياة الرهبانيّة في رأي الآباء

القيّادُوقيّين: باسيليوس، وغريغوريوس النزينزيّ، وغريغوريوس النيصيّ. فإنّهم قالوا بعدم فساد المجتمع البشريّ، وبالتالي بعدم الحاجة إلى نبذه. وكلٌّ من هؤلاء الأساقفة الثلاثة كان كثير الانشغال، ملتزمًا التزامًا فعّالاً في المجادلات اللاهوتيّة والأوضاع السياسيّة الراهنة، إلاّ أنّهم واظبوا جميعًا على العودة، حينًا بعد حين، إلى الصحراء للصلاة والتفكير، وبذلك شعروا أنّهم يستطيعون لجم جماح الأشغال والتذكُّرَ أنّ هدف الحياة إنّما هو اتّباع تعاليم الإنجيل على أكمل وجه.

وقد سنَّ باسيليوس قانونًا للرهبان ما زال متّبعًا في الكنائس الشرقيّة. وأُنشِئت الأديار «الباسيليّة» في سائر أنحاء البراري السوريّة والعربيّة وفي المناطق القليلة السكّان بالأناضول واليونان. وكان الرهبان يُسْدُون الإرشاد والنصائح في أمور الدين لأهل المدن الوافدين عليهم، كما أنّهم كانوا يوفّرون الضيافة، والملجأ، وإمكانيّة الإخلاد إلى الهدوء، للمسافرين الذين يضلّون طريقهم في الصحراء، أو للمضطهَدين والواقعين في بعض المشاكل.

أمّا في الغرب، فيُقال إنّ **يوحنّا كاسِّيانُس** (ت ٤٣٥) هو أوّل مَن كتب عن الحياة الرهبانيّة. بيد أنّ الأب الحقيقيّ للرهبانيّة في الغرب هو **بِنْدِكْتُس** (مبارك) (ت ٥٤٧). كان لا يزال شابًّا لمّا انتحى منطقةً جبليّةً معزولة قرب روما ليعيش فيها متوحّدًا منصرفًا إلى الصلاة والعبادة. وفي غضون سنوات قليلة لحق به آخرون للصلاة معه بادئ الأمر، ثمّ لمشاركته في نمط عيشه. ودوّن مبارك قانونًا للحياة الجماعيّة أصبح في ما بعد أهمّ وثيقة تمّت إلى تاريخ الرهبانيّة الغربيّة.

وكلمة السرّ في الحياة البندكتيّة هي «صَلِّ واعملْ». وهناك بَرنامج مرسوم للحياة اليوميّة في الأديرة يتركّز على تلاوة المزامير جماعيًّا سبعَ مرّات في اليوم بدءًا من الثانية صباحًا. أمّا العمل الأساسيّ فكان في البدايات الزراعة، إلاّ أنّه مع تقهقر الإمبراطوريّة الرومانيّة وحلول عصور الانحطاط والظلمات، أخذت أديرة البندكتيّين على عاتقها المحافظة على العلوم والآداب والمعارف الفلسفيّة واللاهوتيّة. وقد نشأ الكثير من المدن الأوروبّيّة الكبيرة في

جوار الأديار البندكتيّة، وعددٌ كبير من مراكز العلم الهامّة بدأ في أوّل أمره مدرسةً رهبانيّةً.

ولم تكن الحياة الرهبانيّة أقلَّ شأنًا لتقدّم المسيحيّة في الكنائس الأرثوذكسيّة. فالرهبان الأرثوذكس اتّبعوا القانون الذي رسمه القدّيس باسيليوس، وهو يفرض الصلاة اليوميّة الجماعيّة وتتميمَ مختلف الخدمات في الدير. ولا بدّ في هٰذا السياق من ذكر جبل آثوس، وهو شبه جزيرة في شمال اليونان يقوم في أنحائها عشرون ديرًا مستقلاً. وأديرة جبل آثوس، وكذٰلك دير القدّيسة كاترينا في جبل سيناء، قامت بدور هامّ في الحياة الروحيّة بالكنيسة الأرثوذكسيّة.

علاوةً على ذلك، فالرهبان كانوا أوّلَ المرسَلين المسيحيّين إلى بلاد البلقان وروسيا، وحملوا معهم إلى تلك المناطق تقاليد الرهبانيّة الشرقيّة وقانون القدّيس باسيليوس، واضطلع الرهبان، في الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة خاصّةً، بدور بالغ الأهمّيّة في تاريخ المسيحيّة بتلك البلدان.

٣. الهِزِخَسْما

الهِزِخَسْما كلمة يونانيّةἡσύχασμα تعني «السكينة» وتشير إلى التيّار الأساسيّ لممارسة التصوّف في المسيحيّة الأرثوذكسيّة. نشأت هٰذه الطريقة في القرنين الرابع والخامس بين رهبان الأناضول واليونان، وهي مستوحاة في مجملها من كتابات الآباء اليونانيّين كغريغوريوس النيصيّ ويوحنّا الذهبيّ الفم و**مَكْسِيمُس المعترف** (ت ٦٦٢). وأهمّ منظّري تلك الطريقة، **سمعان اللاهوتيّ الجديد** (ت ١٠٢٢) و**غريغوريوس پَلَماس** (ت ١٣٥٩)، نظّما ما سبق أن طبّقه رهبان جبلَي آثوس وسيناء طوال قرون من الزمن. ثمّ انتشر التيّار في روسيا حيث أضحى مظهرًا أساسيًّا من مظاهر الروحانيّة الرهبانيّة الروسيّة.

ويمارس تبّاع تلك الطريقة نوعًا من **الذِكر** يُدعى «صلاة يسوع»، وهي صلاة قصيرة تكرَّر باستمرار والعينان مركّزتان في الداخل على القلب مع ضبطٍ لعمليّة التنفُّس. والهدف من ذٰلك صلاةٌ قلبيّة لا ذهنيّة تَنتظر النفسُ من

خلالها النورَ الإلٰهيّ. وهٰذا النور ليس جوهر الله بل القوّة الإلٰهيّة أو النعمة التي تصدر عن الله، ويمكن أن «يراها» أو يختبرها أولئك الذين «أُغلِقَت عليهم» مَلكاتهم «المادّيّة» كالحواسّ والذهن، بحيث أصبحوا يتقبّلون الروحيّات.

٤. متصوِّفو العصر الوسيط في الغرب

تأثّر المتصوّفون في الغرب، شأنهم شأن نظرائهم في الشرق، بكتابات **دِيونُوسِيُوس**. وقد رأى ديونوسيوس أنّ هدف الحياة الإنسانيّة هو الاتّحاد في الصميم بين الله والمؤمن، ممّا يقود إلى تأليه الإنسان بالتدريج. والمتصوّف يدخل دائرة الظلام وينتظر شعاع النور مِن علٍ فيُتاح له إدراك الحضرة الإلٰهيّة وهي لا يُمكن تأكيدها أو رفضها عن طريق العقل والتفكير. ومقاربة التصوّف المسيحيّ هٰذه ظهرت أوّل ما ظهرت في كتابات هُوغ ده سان ڤيكتور (ت ١١٤٢) ورِيشار ده سان ڤيكتور (ت ١١٧٣) وجُوليان النُورِڤيشي (ت ١٣٤٢).

ثمّ جاءت «رهبانيّة الواعظين»، ويُطلِق الناس على أعضائها اسم «الدومنيكيّين» لأنّ مؤسِّسهم كان القدّيس **دومنيك** (ت ١٢٢١). وهم ينصرفون إلى الوعظ والتربية ويصنَّفون بين «الرهبان الشحّاذين» لأنّه لا يحقّ لهم أن ينعموا بأيّ دخل سوى ما يأتيهم من باب الهبات. وقد طوّر المتصوّفون الدومنيكيّون الألمانُ تلمّسات الصوفيّين الأوائل فصاغوا برنامجًا يقود المريد بحيث ينفتح ويتهيّأ لقبول نور نعمة الله. ويتمّ له ذٰلك من خلال:

آ) الاستسلام التامّ لمشيئته تعالى،

ب) الرغبة عن الذات،

ج) نبذ جميع التصوّرات الحسّيّة (بما فيه تصوّر المسيح نفسه).

والهدف من هٰذا السلوك الصوفيّ هو الوصول بالفرد إلى الاتّحاد بالله على أوثق ما يكون الاتّحاد بحيث لا يستطيع أيٌّ من أمور الدنيا أن يقوم بين المتصوّف والله. ولقد طرح هٰذا النهج أكثر من سؤال على مسيحيّين كثيرين

بسبب ما يدعو إليه من إفناء الذات وما ينتج عن ذلك من ميول إلى الحلوليّة.

والرائد في هذا التيّار وأستاذه الأكبر كان **المعلّم إكْهارت** Eckhart (ت ١٣٢٧). وقد شجب البابا بعض كتاباته، إلاّ أنّها نُشِرت بواسطة تلاميذه **جون تاوْلِر** J. Tauler (ت ١٣٦١) **وهنري سُوزُو** H. Suso (ت ١٣٦٦) **ويان رُويسبْرُوك** Jan Ruysbroeck (ت ١٣٨١)، وكان لها بالغ الأثر في التصوّف المسيحيّ. وفي زمن الإصلاح البروتستانتيّ أبدى مارتن لُوثر إعجابه العظيم بكتابات إكهارت، كما أنّ فلاسفةً ألمانيّين لاحقين، من أمثال **كانْط** **وهِيغل**، مالوا إلى تعاليمه. واليومَ هناك عدد كبير من المسيحيّين يدافعون أشدّ الدفاع عن إكهارت في وجه من يتّهمه بالانحراف عن الرأي المستقيم.

فرنسيس الأَسِّيزيّ

فرنسيس الأَسيزيّ (ت ١٢٢٦) هو في طليعة الشخصيّات المسيحيّة المحبّبة وصاحب تأثير منقطع النظير في تاريخ الكنيسة. وُلد في عائلة تجّار أثرياء بمدينة أسِّيزي، ولكنّه سرعان ما شعر بعدم الرضى عن حياته الدنيويّة فراح، في ما تبقّى له من العمر، يعيش مقتفيًا آثار السيّد المسيح. وكان لا يزال في العشرين من سنّه لمّا جمع حوله عددًا من رفاقه الشبّان فعاشوا حياة الفقر متمسّكين بحرفيّة ما دعا إليه يسوع في إنجيله من هذا القبيل. وكانت هذه الحياة المُوغِلة في الفقر «الإنجيليّ» تحدّيًا عظيمًا لكنيسة عصر فرنسيس بسبب ما كانت عليه من غنًى ورفاهية.

كان فرنسيس متصوّفًا كبيرًا لا يندر له أن يختلي، طوال أسابيع بل أشهر بلا انقطاع، في المغاور والغابات لينصرف إلى التأمّل والصلاة. وقد أنعم الله عليه برؤى وخبرات روحيّة خارقة، وفي أواخر حياته وُسِم «بالسِمات»، وهي آثار جراح يسوع في جسمه. غير أنّ سبيل فرنسيس إلى الله كان على نقيض ما انتهجه المتصوّفون الأوائل تلامذةُ ديونوسيوس. فقد علّم فرنسيس أنّ العالم المخلوق هو العلامة المباشرة التي تعكس عمل الله المجّانيّ في سبيل الإنسان. وقد دعا الشمسَ «أخته» والقمر «أخاه»، ورأى في سائر الحيوانات

والنباتات والظواهر الطبيعيّة خلائقَ رفيقةً للإنسان خليقةِ الله سبحانه.

ويُعتبر فرنسيس «أشبه البشر بيسوع» في تاريخ المسيحيّة. فمَثَلُه، والأدعية الكثيرة التي ألّفها، ومقاربته البسيطة المباشَرة للإيمان، والطرائق الرهبانيّة الكثيرة التي انطلقت بوحيٍ مِن أسلوبه في الحياة، لمّا أحلّ الروحانيّة الفرنسيسيّة في طليعة ما عَرفه تاريخُ المسيحيّة من مذاهب صوفيّة.

٥. المتصوّفون الإسبان

بلغ التصوّف المسيحيّ منزلةً رفيعةً مرموقة في إسبانيا مع بزوغ القرن السادس عشر وصدور كتابات **يوحنّا الصليب** (ت ١٥٩١) **وتريزيا الأفيليّة** (ت ١٥٨٢) **وإغناطيوس ده لُويُولا** (ت ١٥٥٦). فكلٌّ من هؤلاء القدّيسين الثلاثة عاش حياةً على أشدّ ما تكون الحياة نشاطًا والتزامًا لتحقيق الإصلاحات في الكنيسة الكاثوليكيّة، إلاّ أنّهم كانوا من البارزين أيضًا في الميدان الروحيّ وباتت كتاباتهم الصوفيّة من أهمّ ما عرفه التقليد المسيحيّ في هذا الباب.

آ) يوحنّا الصليب

يقول يوحنّا في مؤلّفاته إنّ الله سبحانه وتعالى أبعدُ مِن أن يُدركه إدراك أو يشعر به شعور أو تتخيّله مخيّلة، ولا يمكن معرفته مباشرةً إلاّ بالحبّ الخالص. اللهُ محبُّ النفْس ويَهدي المؤمن ويجذبه إليه. وهو يطهّر النفسَ من جميع ملذّات العبادة الحسّيّة بإدخالها في «ليل الحواسّ» فيُتْرَك المتصوّف مجرّدًا من كلّ شيءٍ سوى الإيمان.

وبعد مدّة من الراحة، يبدأ الله بتطهير المتصوّف عن طريق «ليل الروح» وهو أن يدرك المرء إدراكًا مؤلمًا عظمةَ الله وسلطانه إلى جانب صِغر الإنسان وحقارته. وتدوم عمليّتا التطهير المذكورتان دوامَ المتصوّف على قيدِ الحياة، ومنهما تُفضي النفس إلى الاتّحاد بالله. وقد شبّه يوحنّا هذا الاتّحاد بين النفس والله باتّحاد العروس وعريسها، وغالبًا ما لجأ في هذا الصدد إلى استعارات جريئة مستوحاةٍ من خبرة الحبّ البشريّ.

ب) تريزيا الأفيلية

لعلّ تريزيا أعظم الكتّاب المسيحيّين الذين عالجوا موضوع مراحل صلاة المتصوّفين وأنواعها. فقد تصوّرت حياة المؤمن على نحوِ قَصْرٍ متعدّد «المنازل» يقوم المسيحُ في وسطه. وللوصول إلى يسوع، على النفس أن تعبر في تلك المنازل، وعددها سبعة، وكلٌّ منها يرمز إلى نوع من الصلاة. وتصف تريزيا مراحل الصلاة تلك وصفًا مطوّلاً مشيرةً إلى تنوّعاتها وأقسامها.

وثمّة ثلاث مراحل للصلاة «المكتَسَبة» يَجهد المؤمنُ في أثنائها ليطهّر ذاته من التعلّق بالدنيا والعوائق الداخليّة. وعندما يصل المريد إلى المنزل الرابع تبدأ الصلاة «المُفاضَة» وهي نعمة من الله يبادِر بها، وتتقبّلها النفسُ قبولاً لا فِعلَ لها فيه. ومن عناصر المرحلة الرابعة أنّ الإرادة تكون متّحدة بالله، في حين لا تزال الذاكرة والمخيّلة حرّتَين طليقتين. وفي المرحلة الخامسة تتركّز سائر الوظائف على الله سبحانه وتبدأ صلاة «الاتّحاد البسيط». أمّا المرحلة السادسة فهي مرحلة «صلاة الاتّحاد في الانجذاب» وغالبًا ما ترافقها الرؤيا. وفي المرحلة السابعة «تزول» سائر الظواهر الأُخرى ولا يبقى إلاّ «الزواج الروحانيّ».

إنّ المسلمين الملمّين بأدب التصوّف لا يلبثون أن يروا أوجه القرابة بين «المنازل» **والمقامات والأحوال**، وأن يجدوا عند تريزيا ما يوازي مفاهيم **الفناء والبقاء** وسواهما عند الصوفيّين المسلمين. وفي الواقع فإنّ الكتّاب المتصوّفين المسيحيّين الإسبان في القرن السادس عشر قد تأثّروا بالغ التأثّر بالتقاليد الصوفيّة لدى المسلمين. ويبدو ذلك الأثر جليًّا في مؤلّفات إغناطيوس ده لويولا.

ج) إغناطيوس ده لويولا

كان شريف النسب وتمرّس في شؤون البلاط والجنديّة، وعاش في شبابه عيشةً لم تخلُ من العنف والتهوّر. وفي إثر إصابة بليغة سمّرته إلى فراشه، أنعم الله عليه بالارتداد. وبعد بضع سنوات من الصلاة والبحث، انصرف إلى الدراسة في جامعة باريس وهناك أسّس مع عدد من رفاقه رهبانيّةً اسمها الرسميّ «جمعيّة يسوع»، وتُعرف أكثر ما تُعرف عند الناس بالرهبانية اليسوعيّة،

وأفرادها بـ «اليسوعيّين».

وكان هدف هٰؤلاء الرهبان إصلاح الكنيسة، على نحو ما ابتغاه المصلِحون البروتستانت، سوى أنّهم آثروا البقاء على كاثوليكيّتهم والخضوعَ لسلطة البابا. فبالإضافة إلى النذور التقليديّة الثلاثة: الفقر والعفّة والطاعة، نذر اليسوعيّون، وما زالوا حتّى اليوم، نذرًا رابعًا به يلتزمون الذهاب حيثما يرسلهم البابا.

أمّا خبرة إغناطيوس الصوفيّة فهي مدوّنة في **سيرته الذاتيّة** وفي كتيّبه المرجَع: **الرياضات الروحيّة**. ثمّة أمر أساسيّ مركزيّ في روحانيّة إغناطيوس، هو **الخلوة**. إنّها مدّة من الزمن تخصَّص للانفراد والتأمّل والصلاة المكثّفة وتدوم ثمانية أيّام – وذلك مرّةً في السنة – أو ثلاثين يومًا – مرّتين في الحياة –. وفي أثناء هٰذه المدّة يَتبع المرتاض نظامًا معيّنًا قوامه تمارين روحيّة من شأنها أن تقوده خطوةً بعد خطوة إلى مشاهدة حبّ الله تعالى.

وممّا استحدثه إغناطيوس في «رياضاته» التركيز على أهمّيّة المخيّلة في الصلاة، ووضْعُه قواعدَ سهلةً عمليّةً للتمييز بين الأفكار والمشاعر التي تأتي بفعل روح الله وتلك التي تنشأ عن همس الروح الشرّير. ولليسوعيّين فضلٌ كبير في نشر حركة **الرياضات الروحيّة** في سائر أنحاء العالم الكاثوليكيّ، والدُور التي تُقام فيها تلك الرياضات موجودة حيثما وُجد مسيحيّون كاثوليك.

٦. التصوّف في التقليد البروتستانتيّ

ذكرنا في ما سبق أنّ البروتستانت مالوا إلى اعتبار التصوّف أمرًا لا يدعو إلى الارتياح. فهم لا يجدون له أسسًا واضحة في الكتاب المقدّس وخبرةِ الكنيسة الناشئة، ويشعرون بأنّه قد يكون هروبًا من المتطلّبات الحقيقيّة التي تواجه الحياة المسيحيّة في المجتمع. ومع ذٰلك فقد برز في التقليد البروتستانتيّ بعضُ المتصوّفين، كما تجلّت فيه روحانيّةٌ لها مظاهرُها الخاصّة المتميّزة.

أحد أوّل المتصوّفين البروتستانت هو اللوثريّ **يعقوب بُومِه** Jakob Boehme (توفّي ١٦٢٤). وقد أعلن أنّه لا يكتب ويصف إلاّ ما تعلّمه بواسطة

نور الله المفاض عليه ، أي بواسطة المعرفة الصوفيّة النابعة مباشرةً من اختباره الله عزّ وجلّ. ومؤلّفاته صعبة الفهم ، تستند إلى الفكر الثِيوسُوفيّ والكيمياء القديمة والتنجيم ! وبعض العلماء يرى أنّ تلك الكتابات فيها نزعة إلى الحلوليّة والثنائيّة ، كما أنّها أثّرت في المثاليّين والرومانطيقيّين الألمان من أمثال هيغل وشِيلِين Schelling وفُون بادِر von Baader .

وثمّة **السَكِينيّون** – أتباع مذهب السكينة الروحيّة – وهم يرفضون اللجوء إلى أيّ جهد بشريّ ويقولون بأنّه يتوجّب على المؤمن أن ينتظر صابرًا ويدَعَ الله يعمل. وبعض الذين يتبعون هٰذا المذهب هم **جمعيّة الأصدقاء** Society of Friends ، ويُعرفون بالفرنْدز أو الكُويكِرز Quakers. ولا يتّبعون فرائض محدّدة ، ولا زعيمَ لهم ، بل يعتقدون بأنّ الله سوف يعيِّن مَن يشاء ليخاطب الجماعة . كما أنّهم يشدّدون على « النور الباطن » وهو في أساسه الشعور بحضور الله وبعمل المسيح المباشر في النفس.

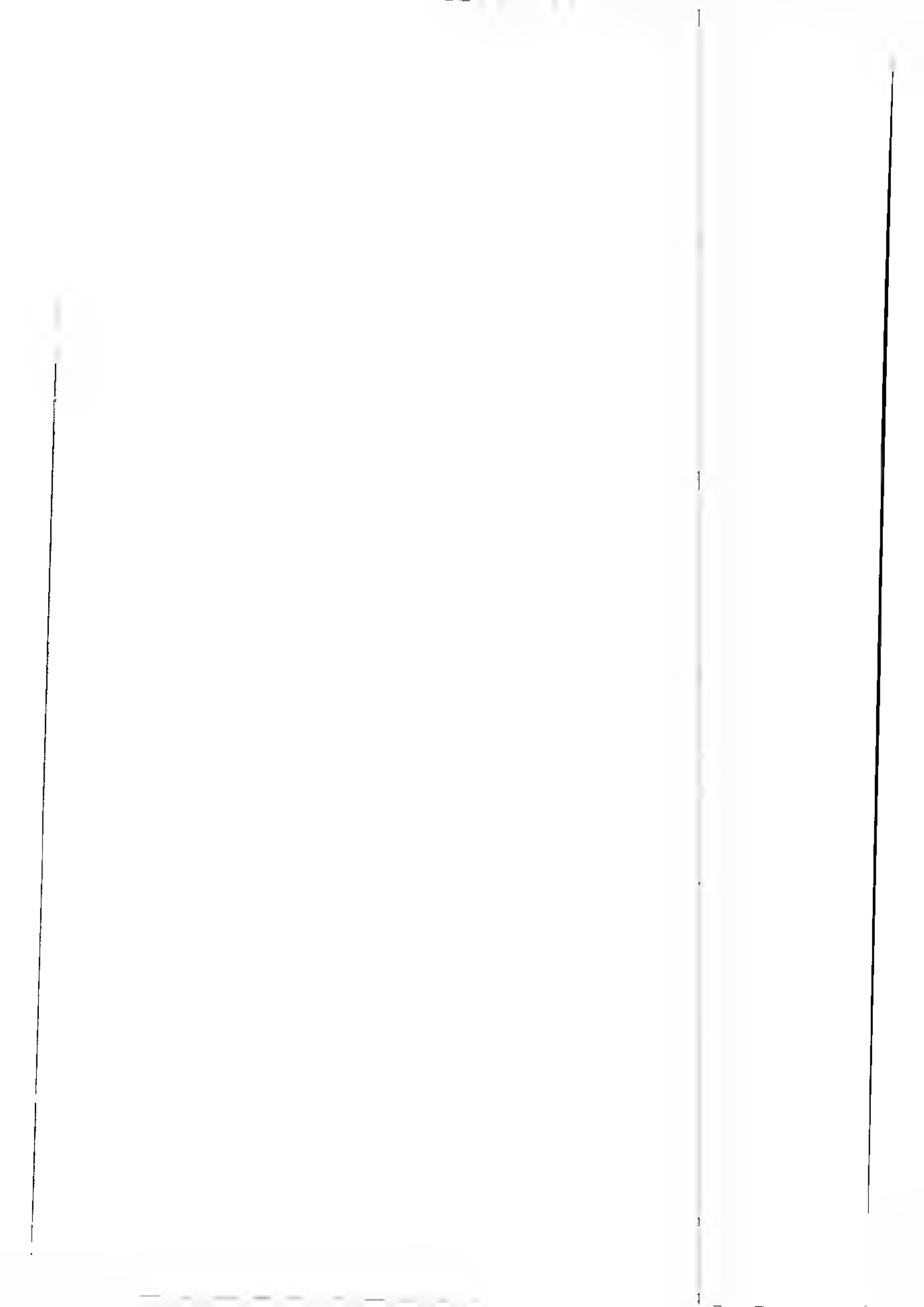
وهناك حركة بروتستانتيّة أُخرى تتّسم بجذورها الروحيّة العميقة ، هي **التقويّة** . وقد بدأت حركة إصلاح داخل الكنيسة اللوثريّة في ألمانيا إبّان القرن السابع عشر ، إذ شعر أعضاؤها أنّ كنيستهم تبالغ في تشديدها على دَور العقل في شرح المعتقدات وبسط شؤون الإيمان بحيث تُضحي ممارسةُ الدين خاليةً من الإيمان الحيّ أو تكاد. وعليه شرعوا يُنشئون حلقات تقويّة للصلاة وقراءة الكتاب المقدّس ، وشدّدوا على كون المسيحيّين جميعًا يتمتّعون بالكهنوت .

وقامت في صفوف كنيسة إنكلترا حركة نظيرة للتقويّة ، هي حركة **الميثُودِيّين** ، بدأت في القرن الثامن عشر بقيادة **جون وِيزلي** (ت ١٧٨٨) . كان هٰذا المُصلِح مسيحيًّا مؤمنًا ، إلاّ أنّه شعر سنة ١٧٣٨ بأنّه تاب عمّا سبق في حياته ، وكرّس ما تبقّى له من عمر لبعث « ديانة عمليّة » و« ليبثّ – بعونه تعالى ونعمته – في نفوس البشر ، حياةَ الله ويصونها وينمّيها » . وما لبثت هٰذه الحركة أن انفصلت عن كنيسة إنكلترا وأصبحت الكنيسة الميثوديّة .

أمّا الحركة **العنصرانيّة** ، فقد نشأت في القرن التاسع عشر داخل الأوساط النهضويّة في الولايات المتّحدة . وأعضاؤها يركّزون على « العِماد في

الروح القدس» وهم يميّزونه عن سرّ الاعتماد بالماء. وللدلالة على قوّة عمل الروح القدس يهتمّون بالغ الاهتمام بالمواهب الخارقة التي ورد ذكرها في أخبار الجماعة المسيحيّة الناشئة وفي رسائل بولس الرسول مِن تكلُّمٍ بلغات متعدّدة، وتنبّؤات، وأشفية، وطرد الشياطين. وتتميّز شعائرهم بعفويّة عظيمة وتقوى جيّاشة.

وجدير بالذكر أنّه في مطلع الستّينيّات راحت أهمّ مظاهر العنصرانيّة تشقّ طريقها إلى جماعاتٍ في الكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة والبروتستانتيّة التقليديّة، وتُعرف تلك الحركات في الكنائس المذكورة «بالحركة المواهبيّة».



كلمة الختام

قال توما الأكوينيّ في مطلع موسوعته الشهيرة **الخلاصة اللاهوتيّة** : «لا نستطيع أن نعرف ما هو الله، بل ما ليس هو فحسب». وكبار المتكلّمين المسلمين قالوا بمثل هٰذا القول. وتكمن المفارقة في أنّ الله سبحانه، على كونه المركزَ في حياة البشر، يوحي ويعمل ويسوس جميع الأمور، فهو لا يزال سرًّا يفوق إدراك بني آدم. ومع أنّنا، معشرَ المسيحيّين والمسلمين، نطالع كتبنا المقدّسة، ونتعمّق في سائر مظاهر تقاليدنا الدينيّة، ونحاول أن نحيا بحسب ما تعلّمناه من خلالها، فإنّ الله تعالى يظلّ قادرًا على مفاجأتنا ودفعِنا قُدُمًا بواسطة ما لَهُ من سلطان وحرّيّة في التصرّف.

لقد حاولتُ في كتابي هٰذا أن أقدّم بوجيز الكلام ما تتضمّنه كتبُ المسيحيّين المقدّسة، والمبادئُ الأساسيّة في الإيمان المسيحيّ، إلى جانب حياة الجماعة المسيحيّة في تطوّرها التاريخيّ، وعلم لاهوتها، وفلسفتها، وحياتها الروحيّة. وظلّ هدفي طوال العرض أن أجعل سائر أوجه إيماني المسيحيّ في متناول فهم طلاّبي المسلمين. وعبارة «في متناول فَهْم» لا تعني أنّني أنتظر من المسلمين أن يقتنعوا بعرضي، بل أنّني أودّ أن يروا كيف يستطيع المسيحيّون المخلِصون النبهاء أن يجدوا في ديانتهم جوابًا مقنعًا عن قضيّة الله سبحانه وتعالى. ولئن تمكّنتُ من تبديد بعض سوء التفاهم وتقديم فَهمٍ للديانة المسيحيّة يوافق عليه مَن يؤمنون بها ويعملون بموجبها، إذن لكان عملي هٰذا خطوةً صغيرة نحو المعرفة المتبادلة والاحترام المتبادل بين أبناء الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة.

شعوب عالمنا الحاضر بحاجة إلى أمور كثيرة. فإنّهم يحتاجون إلى الإيمان

بواقع يتعدّى وقائع الحياة اليوميّة بأزماتها وكبْتها وملذّاتها العابرة. ويحتاجون إلى ما يبعث فيهم الرجاء لمتابعة النضال فيصبحوا أناسًا على نحوٍ ما يمكنهم أن يكونوا، ويدفعوا بالمجتمع البشريّ في سُبُل العدالة والكرامة والحقيقة التي يطمح إليها جميعَها. ويحتاجون إلى مصدر إلهامٍ بوسعه أن يقودهم إلى ما وراء الأَثَرَةِ والأنانيّة والنزاعات والانعزال. إنّ الله سَمَتَ حِكمَتُه فوّض إلى الذين يؤمنون به أن يحملوا رسالةً فيبيّنوا لمن يحيط بهم معالمَ الطريق إلى كمال الإنسانيّة. وأرى أنّه على المسلمين والمسيحيّين أن يَعدّوا بعضهم بعضًا شركاء في هٰذه الرسالة.

ولقد وجّه البابا يوحنّا بولس الثاني كلمة إلى أعيان المسلمين الذين رحّبوا به في نَيروبي سنة ١٩٨٠، قال فيها إنّ المسلمين والمسيحيّين مدعوّون إلى «الالتزام معًا لإحياء السلام، والعدالة الاجتماعيّة، والقيم الأخلاقيّة وسائر حرّيّات الإنسان الحقيقيّة». ذٰلكم ما تواجهه ديانتانا من تحدٍّ في علاقة الواحدة بالأخرى وفي مقاربتهما المشتركة من الحياة على سطح كوكبنا.

مقاطع يمكن مطالعتها في الكتاب المقدَّس

لمّا كان الكتاب المقدَّس يحتوي على ٧٢ سِفرًا، فمطالعته برمّته تستغرق وقتًا طويلاً جدًّا. لذا اخترتُ عددًا من المقاطع ذات الفائدة لمن يريدون قراءة النصوص الكتابيّة المتعلّقة بالمواضيع المعالَجَة في الفصل الثاني. وقد سجَّلتُ مقاطع من كلا العهدين، القديم والجديد، وحاولت اختيار النصوص التي هي أكثر توضيحًا لِما علّمه الكتاب. ولا شكّ أنّ هذا الاختيار هو اختياري الشخصيّ، ويمكن سواي من المسيحيّين أن يتبنّوا غير ما تبنَّيتُ من النصوص.

آ – العهد القديم

١. التوراة

التكوين ١–٢ : الخَلْق
التكوين ٣ : خطيئة آدم وحوّاء
التكوين ٦–٩ : قصّة نوح
التكوين ١٢–١٣، ١٥، ١٧، ٢١–٢٢ : قصّة إبراهيم
التكوين ٣٧–٤٨ : قصّة يوسف وإخوته

الخروج ٢ : ولادة موسى وحداثته
الخروج ٣–٤ : موسى في بلاد العرب ودعوته
الخروج ٥ : موسى وفرعون

الخروج ٧–١٠ : ضربات مصر
الخروج ١٢ : الفصح الأوّل
الخروج ١٣–١٤ : عبور البحر الأحمر
الخروج ١٩–٢٠ : العهد في سيناء والوصايا العشر

العدد ١١–١٤ : الشعب اليهوديّ في الصحراء
تثنية الاشتراع ١–٣ : توصيات موسى الأخيرة
تثنية الاشتراع ٦–٧ : شريعة موسى
تثنية الاشتراع ٢٩–٣١ : وفاة موسى

٢. تاريخ الشعب اليهوديّ

يشوع ٦ : إحتلال أريحا
القضاة ١٣–١٦ : قصّة شمشوم
صموئيل الأوّل ١–٣ : قصّة صموئيل
صموئيل الأوّل ١٠–١٢ : شاوول أوّل الملوك
صموئيل الأوّل ١٦–٢٤ : قصّة داود في شبابه
صموئيل الثاني ٥–٩ ، ١١–١٢ : أخبار الملك داود

الملوك الأوّل ٣–١٠ : أخبار سليمان والهيكل
الملوك الأوّل ١٧–١٩ ، ٢١ : قصّة إيليّا
الملوك الثاني ٢٤–٢٥ : خراب أورشليم والجلاء إلى بابل
عزرا ١ ، ٤–٦ : قورش يُطلق الشعب اليهوديّ
نحميا ٨ : عزرا يتلو التوراة على الشعب

٣. المؤلّفات (كتب الحكمة)

أيّوب ١–٢ : الشيطان يجرّب أيّوب الصابر
أيّوب ٣ : أيّوب يلعن يوم ولادته

أيّوب ٢٩–٣١ : أيّوب يدافع عن نفسه
أيّوب ٣٨–٣٩، ٤٢ : الله يجيب أيّوب ويشفيه

المزمور ٥، ١٣٤ : صلاة للصباح والمساء
المزمور ٦، ٢٢، ٣٨، ٤١، ٥٥، ٨٦ : صلوات في زمن الاضطراب
المزمور ٨، ١٩، ٢٩، ٣٣، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠ : أناشيد لمديح الخالق
المزمور ٢٣ : الله الراعي الصالح
المزمور ٣٢، ٥١ : صلوات توبة
المزمور ٦٢، ٦٣، ٩٠، ١٣١ : صلوات رجاء
المزمور ٧١ : صلاة رجل عجوز

الأمثال ٦، ١٠–٢٢ : نصائح سليمان
الجامعة ١–١٢ : في معنى الحياة
نشيد الأناشيد ١–٨ : أناشيد حبٍّ بشريّ
الحكمة ٣ : مصير الأبرار والأشرار

٤. الأنبياء

أشعيا ٦ : دعوة أشعيا النبيّ
أشعيا ٤٠ : نبيّ التعزية
أشعيا ٤٢، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣ : العبد المتألّم
إرميا ٣١ : سيعيد الله بناء شعبه
حزقيال ١٦ : قصّة شعب الله الرمزيّة
دانيال ٢–٥ : أخبار دانيال ونبوكد نصَّر
دانيال ٧ : رؤى دانيال

هوشع ١–٢ : إسرائيل زوجة الله الخائنة
هوشع ١١ : رحمة الله تفوق إدراك البشر

عاموس ٢–٤ : عاموس نبيّ العدالة الاجتماعيّة
يونان ١–٣ : قصّة يونان
زكريّا ٨ : الوعد بالمسيح المخلّص

ب – العهد الجديد

١. الأناجيل

متّى ١–٢ : ولادة يسوع
متّى ٥–٧ : الخطبة على الجبل
متّى ٨–٩ : يسوع يشفي المرضى
متّى ١٣ : الأمثال عن ملكوت الله
متّى ٢٣ : يسوع ينتقد رؤساء اليهود
متّى ٢٥ : الدينونة الأخيرة

مرقس ١١–١٢ : يسوع يعظ في أورشليم
مرقس ١٣ : خطبة يسوع عن نهاية العالم
مرقس ١٤–١٦ : آلام يسوع وموته وقيامته

لوقا ١–٢ : ولادة يوحنّا المعمدان ويسوع
لوقا ٣ : يوحنّا المعمدان يعظ ويبشّر
لوقا ١٥ : أمثال ثلاثة في رحمة الله
لوقا ١٧–١٩ : من تعاليم يسوع ومآثره

يوحنّا ١ : المقدّمة : كلمة الله صار جسدًا
يوحنّا ٦ : يسوع «خبز الحياة»
يوحنّا ١٠ : يسوع «الراعي الصالح»
يوحنّا ١٣–١٧ : رواية العشاء الأخير
يوحنّا ٢١ : ظهور يسوع الأخير بعد قيامته

٢. أعمال الرسل

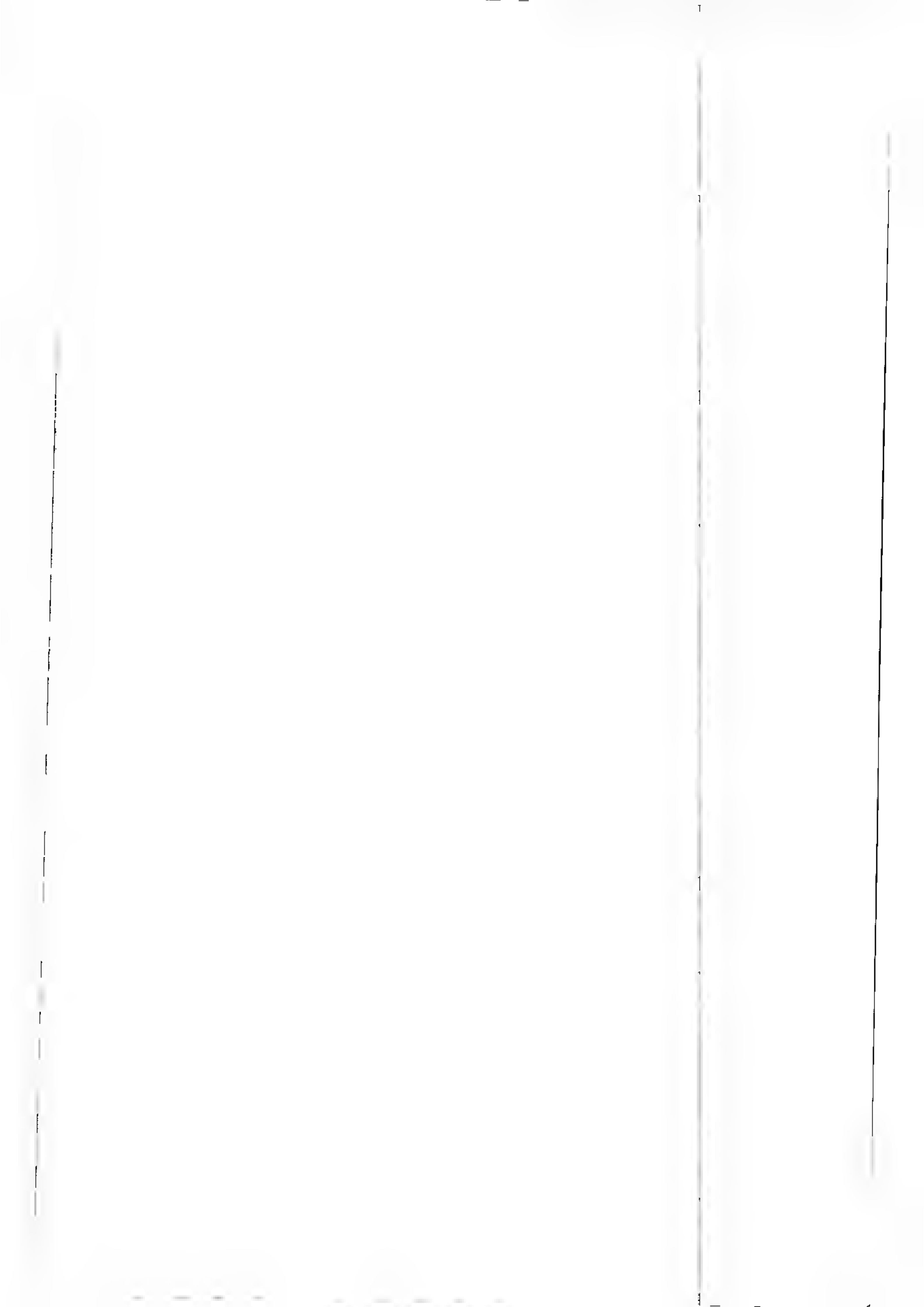
أعمال ٢ : المسيحيّون الأوائل والعنصرة
أعمال ٩ ، ٢٢ : إهتداء بولس
أعمال ١٩ : بولس في أفسس
أعمال ٢٧–٢٨ : سفر بولس إلى روما

٣. الرسائل

إلى أهل روما ١٢–١٤ : واجبات الحياة المسيحيّة
الأولى إلى أهل قورنتس ١٣ : أولويّة المحبّة
الأولى إلى أهل قورنتس ١٥ : قيامة الموتى
إلى أهل غلاطية ٥ : الحريّة المسيحيّة وثمار الروح
إلى أهل أفسس ٥–٦ : وصايا أخلاقيّة
الأولى إلى طيموتاوس ٢–٣ : واجبات المسيحيّين
إلى العبرانيّين ٥–٧ : كهنوت يسوع
يعقوب ١ - ٥ : الديانة العمليّة
يوحنا الأولى ٣–٤ : شريعة المحبّة

٤. الرؤيا

الرؤيا ٢–٣ : رسائل إلى كنائس آسيا
الرؤيا ١٤ : رؤيا الحَمَل
الرؤيا ٢٠–٢٢ : رؤيا أورشليم السماويّة



معجم الألفاظ

آبائيّات. وتُعرف أيضًا بـ«لاهوت الآباء»، وتُعنى بدراسة كتابات «آباء» الكنيسة وهم مفكّرو وقادة الجماعة المسيحيّة في القرون الخمسة الأولى.

أبُوكْرِيفا. هي الأسفار التي لم تُقبل بين الكتب المقدّسة «القانونيّة» (أطلب كلمة «قانون»). أبوكريفا العهد القديم تقبل بها وتقول بقانونيّتها الكنيستان الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة، في حين يرفضها اليهود والبروتستانت. أمّا أبوكريفا العهد الجديد فهي الأناجيل والرسائل وسواها من الأسفار التي لا تقرّ الكنائسُ المسيحيّة بأنّها من الكتب المقدّسة.

أُرثُوذُكْس. أسرة من الكنائس المستقلّة لها إيمان واحد وتعترف بأولويّةٍ شرفيّة للبطريرك المسكونيّ المقيم في إسطنبول (القسطنطينيّة). وتضمّ الكنائس الأرثوذكسيّة البطريركيّات الأربع القديمة: القسطنطينيّة والإسكندريّة وأنطاكيا وأورشليم، إلى جانب البطريركيّات الحديثة: روسيا، وصربيا، ورومانيا، وبلغاريا، وجيورجيا، فضلاً عن الكنائس الأرثوذكسيّة في قبرس واليونان والجمهوريّتين التشيكيّة والسلوفاكيّة وبولونيا وألبانيا. والصفة «أرثوذكسي» تعني أساسًا «المستقيم الرأيِ» أو التعليمِ.

أرمنيّة (كنيسة). أطلب: «غريغوريّة».

أسقف. أصل الكلمة يونانيّ، وتعني بمعناها الحرفيّ «الناظر» أو المُشرف. والأسقف هو الرأس الروحيّ في الجماعة المسيحيّة المحلّيّة التي تُعرف بالإبَرْشِيّة.

إفخارستيّا. العمل الأساسيّ في العبادة المسيحيّة. في الإفخارستيّا يتذكّر المسيحيّون عشاء يسوع الأخير، لا بل يُحيونه مجدَّدًا.

أقنوم. يؤمن المسيحيّون بأنّ في الله تعالى، الإله الأحد، ثلاثةَ أقانيم جوهريّة أزليّة. والأقنوم حالة في الوجود والعمل. واللفظ يونانيّ الأصل وأدَّت العربيّةُ معناه بكلمة «صفة». أمّا ترجمته اللاتينيّة فبكلمة تعني «الشخص».

إلهام (الإلهام والكتاب المقدّس). الله يدفع أناسًا إلى إنشاء الكتب المقدّسة ويهديهم ليعبّروا عمّا يريد تعالى أن يعلّمه.

إنجيليّ. أحد الكتّاب الأربعة الذين دوّنوا الأناجيل، وهم متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا.

إنجيليّون (مسيحيّون). لا شكّ أنّه من الممكن إطلاق تسمية «الإنجيليّون» على سائر المسيحيّين المؤمنين بما يتوافق مع الأناجيل، إلاّ أنّ اللفظة تشير، اليوم، خاصّةً إلى المسيحيّين الذين يقولون بأنّ أساس الإيمان هو تعليم الكتاب المقدّس دون سواه.

إنشقاق. إنقسام في الجماعة المسيحيّة لا علاقة له بالاختلاف في العقيدة.

أيقونة. رسم للمسيح، أو لشخصيّات مذكورة في الكتاب المقدّس، أو لقدّيسين مسيحيّين. وليست الأيقونات والتماثيل موضوع عبادة، فتكريمها ما هو إلاّ تكريم الأشخاص الذين تمثّلهم.

بابا. لقب بمعنى «أب» يُطلق في الكنيسة الكاثوليكيّة على أسقف روما، وفي الكنيسة القبطيّة على بطريرك الإسكندريّة (أطلب: «كاثوليكيّة»).

بُروتستانْت. أتباع الكنائس المنبثقة من حركة الإصلاح التي تزعَّمها مارتن لوثر في القرن السادس عشر. وفي الكنائس البروتستانتيّة تنوُّعٌ كبير في

المعتقدات والممارسات نابعٌ كلّه من التركيز على أولويّة ما يعلّمه الكتاب المقدّس.

بطريرك. لقب يُطلق على رؤساء المراكز المسيحيّة القديمة الخمسة: روما، الإسكندريّة، أنطاكيا، أورشليم والقسطنطينيّة، وهو يعني أنّ لهؤلاء الرؤساء سلطانًا على كنائس المناطق المجاورة.

تجسُّد. إتّخاذ كلمة الله الأزليّة جسدًا في الإنسان يسوع.

تفسير. محاولة فهم معنى الكتب المقدَّسة الدقيق من خلال التحليل اللغويّ.

تكفير. مصالحة الإنسان مع الله بوساطة موت يسوع على الصليب. ويؤمن المسيحيّون بأنّ يسوع هدم بموته جميع الحواجز التي أنشأتها خطيئة البشر، وأسّس عهدًا جديدًا أبديًّا بين الله تعالى والإنسان.

خروج. إخراجُ الله الشعبَ اليهوديّ من مصر.

دِياطَسَّرون. مجموع يضمّ مقاطع مختارة من الأناجيل الأربعة وينسّقها في رواية واحدة. أشهر المجاميع المعروفة هو دياطسّرون طَطْيانُس.

رسالة. مكتوب خطّه أحد الرسل أو أحد تلاميذ يسوع الأوائل وبعث به إلى فردٍ أو جماعة من المسيحيّين. والكنائس تقرّ، ضمن لائحة كتبها المقدّسة، بإحدى وعشرين رسالة.

رسوليّة (كنيسة). الكنيسة في أيّام الرسل وتلاميذ يسوع الأوائل، وهي التي صدرت عنها أسفار العهد الجديد. وتمتدّ من سنة موت يسوع (نحو سنة ٣٠) حتّى حوالى العام ١٠٠.

روحانيّة. إدخال رسالة المسيح في حيّز حياة المؤمن الروحيّة بغية الوصول إلى تمام وحدة الفكر والقلب مع الله. **والروحانيّات** المتعدّدة التي عرفها التاريخ المسيحيّ هي سُبُلٌ شاملة متكاملة تقود الحياة المسيحيّة وتوجّهها نحو التتلمذ الأمثل للمسيح.

رؤيا (أدب الـ). أدب عُرِف لدى اليهود والمسيحيّين بين عام ٢٠٠ قبل الميلاد وسنة ١٠٠ بعده، وهو يسعى إلى استجلاء نهاية العالم الحاليّ وبداية الآتي. وتلجأ تلك الكتابات إلى الصور والرموز المعقّدة لتوجّه انتباه القارئ إلى مصير هٰذا العالم وإلى مجيء «يوم الربّ». وخير الأمثلة في الكتاب المقدّس عن هٰذا الأدب سفرُ دانيال في العهد القديم وسفر رؤيا يوحنّا في العهد الجديد. وهناك كتابات أخرى من هذا النوع في الكتاب المقدّس وفي سواه من الأسفار غير المقدّسة.

سرّ. الأسرار علامات حسّيّة وشعائر منظورة تحقّق أعمالاً غير منظورة يقوم بها المسيح القائم من الأموات ضمن جماعة المتّحدين بالكنيسة.

سريانيّة. أطلب: «يعقوبيّة».

سيمونيّة. خطيئة المتاجرة بالأمور الروحيّة.

شتات. تشتُّت الجماعات اليهوديّة خارج فلسطين.

صفة. أطلب: «أقنوم».

عقيدة. عنصر من عناصر الإيمان المسيحيّ أوحاه الله وحدّدته الكنيسة.

عَنصرة. عيد الحصاد عند اليهود، وكان يُحتفل به خمسين يومًا بعد الفصح. وعند المسيحيّين تشير الكلمة إلى ما اختبره الحواريّون لمّا حلّ عليهم الروح القدس إبّان عيد اليهود ذاك.

عَهْد. عَقْد حرّ بين طرفَين به يتعهّد الواحد القيامَ ببعض الأمور لصالح الآخر. والعهد على جبل سيناء خَلَقَ علاقةً خاصّة بين الله واليهود. أمّا المسيحيّون فيؤمنون بأنّ يسوع أنشأ **عهدًا جديدًا** بين الله والبشريّة جمعاء.

غريغوريّة (الكنيسة الأرمنيّة الـ). كانت أرمينيا أوّل دولة في التاريخ تعتنق المسيحيّة دينًا رسميًّا لها، وذٰلك لمّا تنصّر ملكها تِريدات الثاني سنة ٣٠١ على يد القدّيس غريغُوريُوس المنوِّر. ولم تقبل الكنيسة الأرمنيّة بمجمع

خلقيدونية ولذا ليست متّحدةً بالكنائس الكاثوليكيّة أو الأرثوذكسيّة . والرئيس الروحيّ لتلك الكنيسة هو كاثُولِيكوس (جاثليق) إتْشمِيَدْزِين .

ڤاتيكان. مكانُ إقامة البابا أسقفِ روما ومركزُ إدارته . وهو في مدينة روما ، ويُعرف أيضًا «بالكرسيّ الرسولي الرومانيّ» .

فداء . عملُ الله تعالى لخلاص البشريّة بموت يسوع وقيامته .

قانون الكُتُب المقدّسة . القائمة الرسميّة بالأسفار التي يعترف بها المسيحيّون جزءًا من الكتاب المقدّس . ويكون السفر «قانونيًّا» لمّا تعتبره الكنائس المسيحيّة جزءًا أصيلاً صحيحًا من كتابها المقدّس .

قبطيّة (الكنيسة الـ) . كنيسة مصر والحبشة (إثيوبيا) التي يقوم على رأسها بطريرك الإسكندريّة . ويروي التقليد المتواتر أنّ تأسيس هذه الكنيسة يرقى إلى القدّيس مرقس الإنجيليّ . ولمّا لم تقبل الكنيسة القبطيّة قرارات مجمع خلقيدونية فهي غير متّحدة بالكنائس الأرثوذكسيّة أو الكاثوليكيّة . وقد استقلّت الكنيسة الإثيوبيّة سنةَ ١٩٥٩ .

كاثوليكيّة (الكنيسة الـ) . جماعة المسيحيّين الذين يَعتبرون أنّ الكنيسة يَسُوسها مجموع الأساقفة برئاسة البابا أسقف روما .

كنيسة . جماعة المسيحيّين المنتشرين في المسكونة وعلى مرّ التاريخ ليؤدّوا الشهادة لِما حقّقه الله تعالى بوساطة الإنسان يسوع . وثمّة معنى ثانٍ به يُشار إلى البناء الذي يجتمع فيه المسيحيّون لإقامة شعائر العبادة . كما تُستعمل الكلمة أيضًا للدلالة على الهيئات التي تنظّم حياة الجماعة المسيحيّة ونشاطاتها .

مجمع . إجتماع رسميّ لأساقفةٍ وممثّلي كنائسَ يُعقَد لمناقشة مسائل تمتّ إلى الإيمان والسلوك . والمجامع المسكونيّة هي لقاءات تضمّ أساقفةً من العالم أجمع . أمّا المجامع «المحلّيّة» فهي التي تخصّ بلدًا واحدًا أو منطقةً واحدةً ، وغالبًا ما تُعرف بالسِينُودُسات (مفردها سِينودس) . وجميع المسيحيّين يقبلون بالمجامع

المسكونيّة السبعة الأُولى، في حين يعتبر الكاثوليك دون سواهم أنّ هناك أربعة عشر مجمعًا لاحقًا لها صفة المسكونيّة.

مسكونيّ (بطريرك). لقب بطريرك القسطنطينيّة المقيم في مدينة إسطمبول (أطلب: «أرثوذكس»).

مسيح. المخلِّص الذي ينتظره الشعب اليهوديّ. أمّا المسيحيّون فيؤمنون بأنّ المسيح قد جاء وهو يسوع، عيسى بن مريم.

يعقوبيّة (الكنيسة الـ). ترقى الكنيسة في سوريا إلى أوّل عهد المسيحيّة، وفي أنطاكيا، إحدى مدن سوريا، أُطلق اسم «المسيحيّين» على أتباع يسوع. سُمّي السريان في الماضي «يعاقبة» نسبةً إلى يعقوب البرادعي أحد كبار رجالاتهم، ولكنّهم يرفضون هذه التسمية، واسم كنيستهم الرسميّ «الكنيسة السريانيَّة الأرثوذكسيّة»، ورئيسها الروحيّ هو بطريرك أنطاكيا. وهي لم تقبل بمجمع خلقيدونيا. وعليه فهي غير متّحدة بالكنائس الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة.

فهرس الأعلام

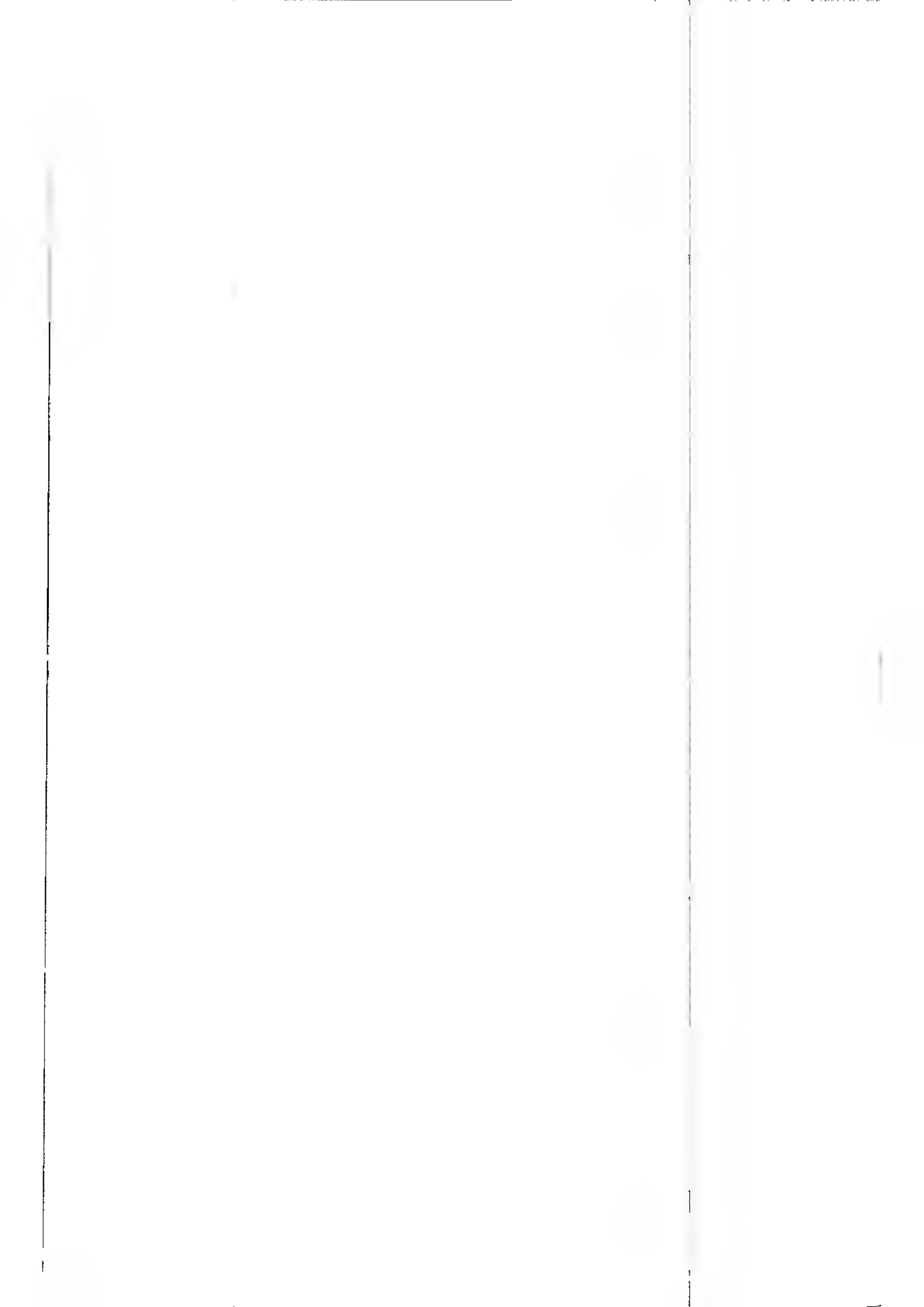
—ب—

—ق—

—ك—

—ل—

—م—



فهرس البلدان والمدن

فهرس المحتويات

أنجزت المطبعة الكاثوليكية ش . م . ل .
في عاريا – لبنان
طباعة هذا الكتاب في الخامس عشر
من تشرين الثاني ١٩٩٥

٠١٧٥٠٤ – ١,٥ – ٩٥/١١/١٥

